رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابن شرف القيرواني

(حياته وأدبه)

الدكتور
حلمي ابراهيم الكيلاني

الناشر
مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن
١٩٩٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابن شرف القيرواني

(حياته وأدبه)

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابن شرف القيرواني

(حياته وأدبه)

الدكتور
حلمي ابراهيم الكيلاني

الناشر
مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
١٩٩٨

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/١/١٧٠)

رقم التصنيف	:	١ر٩٢٨
المؤلف ومن هو في حكمه	:	حلمي ابراهيم عبد الفتاح الكيلاني
عنوان المصنف	:	ابن شرف القيرواني
رؤوس الموضوعات	:	١- الادباء - تراجم
رقم الايداع	:	(١٩٩٦/١/١٧٠)
الملاحظات	:	عمان - مؤسسة البلسم للنشر

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر
مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع
عمان - جبل الحسين، تلفاكس: ٤٦١٣٠٩٢
ص. ب: ٨٥٨٨ الرمز البريدي: ١١١٢١
عمان - الاردن

طباعة واخراج: مؤسسة ملك للطباعة والترجمة
عمان - جبل الحسين

الإهـــــداء .....

إلى والديّ الحبيبين ثمرة من ثمار غرسهما.

إلى زوجتي لقاء ما بذلته من عون وتشجيع.

إلى ولديّ الحبيبين: أمجد، وأنس .....

إلى الساعين وراء الحقيقة من أجل اقتناصها

أهدي هذه الرسالة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتويـــــــــات

الموضـــــــوع	الصفحـــــة
المقدمـــــــــة	٦
التمهيـــــــــد	١٣
البيئة السياسية	١٤
البيئة الاجتماعية	٢٦
البيئة الأدبية والفكرية	٣٢
الفصل الاول: حياته وثقافته	٤٧
اسمه ونسبه	٤٨
مولده ونشأته الأولى	٥٠
عائلته	٥٢
شيوخه وتلاميذه	٥٤
تكوينه الثقافي	٦٠
مصنفـــــاته	٦٥
مجريات حياته	٧١
شخصيته وأخلاقـه	٨٨
وفاتـــــــه	٩١
الفصل الثاني: شعره	٩٥
جمعه وتدوينه	٩٦
موضوعاته وأغراضه	٩٨
المديح	٩٩
الغـــزل	١١٠
الوصف	١١٦
الحكمـــة	١٢٤
الرثـــاء	١٢٩
الهجـــاء	١٣٥
خصائصه الفنيـــــة	١٣٧
بناء القصيدة	١٣٧
الألفاظ والأساليب	١٤٤
المعانـــــي	١٥٥

الموضوع	الصفحة
الموسيقى	١٦١
الصور والأخيلة	١٦٤
الفصل الثالث: نثره	١٧٠
أغراضه	١٧١
المديح	١٧١
مجتمع ابن شرف من خلال رسائله	١٧٣
الوصف	١٨١
الحكمة	١٨٤
رسائله	١٨٧
مقاماته	١٩٢
خصائصه الفنية	٢١٠
رسائله الاخوانية	٢١٠
الألفاظ والأساليب	٢١٢
الفصل الرابع: نقده	٢١٩
نظراته النقدية	٢٢٠
اللفظ والمعنى	٢٢٧
السرقات الشعرية	٢٣٠
المبدأ التعويضي	٢٣٣
الاستهلال والخاتمة	٢٣٧
مقاييسه في نقد الشعر	٢٤٢
مقاييس اللغة والنحو	٢٤٢
التلاؤم بين الألفاظ	٢٤٣
السهولة	٢٤٥
البعد عن التعقيد	٢٤٦
تجنب القوافي المعجمة	٢٤٨
نقده التطبيقي	٢٥٠
نقده لامرىء القيس	٢٥٠
نقده لزهير بن أبي سلمى	٢٥٣
استحسانه لبعض الأشعار	٢٥٦
الخاتمة	٢٥٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على سيدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهمّ لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا، ولا فهم لنا إلاّ ما فهّمتنا، إنّك أنت العليم الحكيم، وبعد:

فإن صلتي بابن شرف، وبيئته الّتي نشأ فيها ترجع إلى سنوات مضت، يوم أنْ درسنا الأدب الأندلسيّ والمغربيّ على أستاذنا الدّكتور عبدالكريم خليفة الّذي كان يغرينا بالاتصال بأعلام الأندلس والمغرب، وببيآتهم، ويحثُّنا على كتابة تقارير عنهم، فاستطعنا من خلال ذلك أنْ نتعرّف إلى نخبة كبيرة من أعلام هذه البيئة. ولمّا التحقت بقسم الدّراسات العليا بالجامعة الأردنيّة، وبدأت أعدّ نفسي لتقديم بحث لنيل درجة الماجستير في اللّغة العربيّة، قفز أبو عبدالله محمّد بن شرف القيروانيّ في مخيّلتي، فشرعت في استقصاء أخباره وآثاره من مظّانها المختلفة، وجمعت ما تناثر منها في كتب الأدب، والسّير، والتراجم، وإذا بي أمام أديب، شاعر، كاتب، ناقد، صاحب ثقافة واسعة، متنوّعة، فطرحت فكرة بحثي هذا على أستاذي الدكتور عبدالكريم خليفة، فلقيت منه كلّ تشجيع، وقبول، واتفقنا على أنْ نجعل دراستنا هذه بعنوان: ((ابن شرف القيروانيّ: حياته وأدبه)).

وأما الدّوافع التي حملتني لاختيار ابن شرف ليكون موضوعاً لدراستي هذه فكثيرة، وقد كان من أهمّها: أنّ ابن شرف لم يلق من الباحثين والدّارسين ما لقيه أدباء عصره على الرّغم من شهرته الواسعة الّتي طبقت الآفاق، والمكانة الشّعرية والأدبية المرموقة الّتي وصل إليها في عصره، وهذا ما أكّده لنا مؤرخ عصره ابن الرّقيق الّذي يقول: ((... ما كان بأفريقيّة من مشاهير الشّعراء إلاّ ابن رشيق، وابن شرف.))[1].

ففي الوقت الذي درس فيه معاصره وقرينه ابن رشيق أكثر من مرّة، وأقيمت عليه أكثر من دراسة، وقدّم عنه أكثر من بحث، فإن ابن شرف لم يدرس، ولم يخصّه أحد من الدّارسين بدراسة متخصّصة.

ويمكننا أن نردّ إغفال الباحثين والدّارسين لابن شرف لأمور منها: ضياع معظم آثاره الّتي ألّفها في حياته، إذ لم يصلنا منها إلاّ تلك الرّسالة المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد))[2]، ومنها: أنّ

---

[1] تاريخ ابن خلدون، ١: ١٩٠٤.

[2] نشرها الخانجي تحت عنوان: ((أعلام الكلام))، وهي هي.

نتاجه الأدبيّ لم يصلنا في كتاب مطبوع مستقل، فأتى شعره ونثره مبعثراً في طيّات كتب الأدب والتراجم على صورة مقطّعات شعرية قصيرة، ونتف لا تغري بالدّراسة، خاصّة وأنّ المصادر الّتي تصدّت له ما زال بعضها مخطوطاً، ومنها أيضاً: قلّة أخباره، وتراجمه في كتب الأدب والتّراجم، فكثيراً ما كانت هذه الكتب تكتفي بذكر اسمه، ومقطّعات من أشعاره، الأمر الذي جعل الدّارسين يزهدون في دراسته وبحثه.

ولقد كانت ثقافته الواسعة المتنوّعة، وانتاجه الشعريّ الغزير الذي لم يصلنا منه إلاّ القليل، من أقوى الدوافع إلى دراسته، وفي هذا يقول قرينه ومعاصره ابن رشيق: ((... ولقد شهدته في مرّات يكتب القصيدة في غير مسودّة كأنّه يحفظها، ثُمّ يقوم فينشدها، وأمّا المقطّعات فما أحصي ما يصنع منها كلّ يوم بحضرتي ...))[1].

وأخيراً فإنّ المعاناة التي عاشها هذا الرجل بعد أن شُرّدَ من وطنه قهراً، وأرغم على مفارقة أهله وأترابه، قد جعلتني شديد التعلّق بدراسته والبحث في حياته، لما بيننا مِن تقارب وتشابه، فكلانا فارق وطنه قهراً، وذاق مرارة التشريد، ولذعة الفراق.

ولكّن الشك -مع ذلك- ظلّ يراودني، وقلت في نفسي: إنّه ليس من المعقول أنْ تغفَلَ دراسة هذا الرجل حتّى يومنا هذا، فعكفت على التّنقيب في فهارس المطبوعات والمخطوطات داخل الأردنّ، وخارجها، واتصلت بمن لهم علاقة بهذا الأمر، علّهم قد علموا بدراسة قد أقيمت عليه، فأجابوا بالنّفي، وحثّوني على المضيّ بهذه الدّراسة، وأرسلوا لي -مشكورين- بعض الكتب والمخطوطات التي تتعلّق به، وتتحدّث عنه[2].

ولكنّني مع ذلك لم أظفر بدراسة مستفيضة، أو بحث متخصّص أقيم على هذا الرجل الفذ، وكلّ ما ظفرت به لا يتجاوز أنْ يكون ترجمات مختصرة كتلك الترجمة التي أثبتها له الأستاذ

---

[1] مسالك الأبصار، ق١ ج١١/٢٤٠.

[2] فقد أرسل إليّ الأستاذ السيد محافظ الخزانة العامّة للكتب والوثائق بالمغرب، مخطوطاً بعنوان: ((أبكار الأفكار))، كما أرسل لي الأستاذ محمّد العروسي المطويّ التّونسيّ مجموعة من المصادر والمراجع، من مثل: ((معالم الإيمان))، و ((بساط العقيق))، و ((مجمل تاريخ الأدب التونسي))، و ((المنتخب))، وغيرها من مؤلّفات الأستاذ حسن حسني عبدالوّهاب التي تتحدّث عنه، وصوّر لي الأستاذ شكري فيصل رسائله المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد)) الموجودة في مجلة المقتبس، وشجعني الأستاذ إحسان عبّاس على مواصلة بحثي هذا.

حسن حسني عبدالوهّاب في كتبه: ((مجمل تاريخ الأدب التّونسيّ)) و((المنتخب المدرسيّ))، و((بساط العقيق))، وقد اكتفى المؤلف في هذه الكتب بذكر اسمه، ونتف من شعره ونثره، وكتلك الترجمة التي أوردها له الأستاذ محمّد رضا الشّبيبيّ في كتابه: ((أدب المغاربة والأندلسيين))، وقد تحدّث في ترجمته له عن اسمه، ونسبه، وآثاره، ومؤلّفاته، ومكانته الشّعرية التي وصل إليها في عصره، واشار في اثناء حديثه عن مؤلفاته أنّه قد اطّلع على نسخة مخطوطة من كتابه المعروف بـ ((ابكار الأفكار)) في إحدى رحلاته التي قام بها إلى الخزانة العامة بالرّباط[1]، ولمّا كانت دراستنا هذه تدور حول حياة ابن شرف وأدبه، فقد سارعت إلى إحضاره مصوّراً من الخزانة العامّة، وعكفت على دراسته، فوجدت أنه في حقيقة الأمر عدّة مخطوطات لأدباء مختلفين، وبها نقول من كتاب ((أبكار الأفكار))، ورسائل لولده أبي الفضل جعفر بن شرف، جمعها النّاسخ بعضها إلى بعض، وأطلق عليها اسم: ((أبكار الأفكار))، فطلب مني أستاذي الدّكتور عبدالكريم خليفة أنْ أقوم بتحقيق هذا الأمر، سعياً وراء الحقيقة، وأنْ أرسل ما توصلت إليه الى الخزانة العامة، ففعلت ذلك، وصوّبت هذا الخطأ، حرصاً منّي على حفظ التراث، وحمايته من الشوائب.

ولكن الأستاذ الشبيبي عاد في نهاية كتابه ليهيب بالباحثين عن التّراث أنْ يبحثوا عن كتاب ((أبكار الأفكار)) لابن شرف القيروانيّ -مع أنه أكد أنّه قد أطلّع عليه- فذهب الى القول: ((... ولا بدّ لنا في ختام هذه الدراسة من التّأكيد على المعنيين بالبحث في تراثنا العربيّ القديم من المخطوطات، أنْ يثابروا على التنقيب عمّا ضاع من تلك المصنّفات الممتعة ... ومن أهمّها: كتاب: ((الأنموذج)) لابن رشيق، ... وكتاب: ((أبكار الأفكار)) لابن شرف القيروانيّ ...))[2].

يضاف الى ما تقدّم أنّ الأستاذ الشبيبيّ خلط بين ترجمة أديبنا، وترجمة ولده جعفر ابن شرف التي أقامها في كتابه.

هذا وقد أفرد له الشيخ محمّد النّيفر ترجمة ضيّقة في كتابه المعروف بـ ((عنوان الأريب))، خلط فيها بينه وبين ولده جعفر، ونسب اليه بعض مقطّعاته الشعرية[3]، كما عرض له الأستاذ محمّد سلامة موسى في مجلة: ((عالم الفكر))، فتحدّث عن نظراته النقديّة، وترجم له ترجمة بسيطة، هذا بالإضافة الى تلك الترجمات والاشارات التي أشار اليها الذين درسوا قرينه ومعاصره ابن رشيق،

---

[1] أنظر: أدب المغاربة والأندلسيين، ص: ٤١.

[2] المرجع نفسه، ص: ١٣٧.

[3] أنظر: عنوان الأريب، ١٢.

فتحدثوا عنه كمعاصر له، ومن أشهر هؤلاء الأستاذ عبدالرّحمن ياغي في كتابه: ((حياة القيروان، وموقف ابن رشيق منها))، والأستاذ عبدالعزيز الميمني في كتابه: ((ابن رشيق))، والأستاذ عبدالرؤوف مخلوف في كتابيه: ((ابن رشيق، ونقد الشعر))، و((ابن رشيق الشاعر الناقد)).

ولعلّ أول من أفرد له كتاباً خاصاً جمع فيه بعض مقطّعاته الشعريّة من بعض المصادر، وكتب التراجم، هو الأستاذ عبدالعزيز الميمنيّ، وقد اسماه: ((النتف من شعر ابن رشيق، وابن شرف))، وقد أفدنا مما توصّل اليه هؤلاء في دراستنا هذه، مع أنّهم كانوا يمرّون به مروراً سريعاً، ويتحدثون عنه حديثاً عابراً عندما كانوا يتوقفون عند معاصره وقرينه ابن رشيق، أو عندما كانوا يتصدّون لنظراته النقدية.

فأحببت إزاء ذلك كله أن ألقي ضوءاً كاشفاً على هذا الأديب، الشاعر، الكاتب، النّاقد، وأن أرسم له صورة واضحة المعالم، بقدر ما تسعفني به المصادر، وأن أضعه في المكان المناسب الذي يليق به بين الأدباء والشعراء العرب، مضيفاً بذلك رافداً جديداً الى المكتبة الأندلسيّة والمغربيّة.

وأما المصادر التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه، واستقينا منها مادة بحثنا فكثيرة ومتنوعة، ولقد كان أهمّها: رسالته النقديّة المعروفة بـ ((رسائل الإنتقاد))، وقد افدنا من هذه الرسالة في معرفة نظراته النقدية، وطريقته في كتابة النثر، واسلوبه فيه.

هذا ومن أهم المصادر التي أفدنا منها في دراستنا هذه: كتاب: ((الذخيرة))، لابن بسّام، (ت: ٥٤٢هـ) إذ أورد له ترجمة وافية، وحفظ لنا الكثير من مقطّعاته الشعرية والنثرية التي انفرد بها من بين المصادر الأخرى التي تصدّت لترجمته وأخباره، وهو كتاب مهم، لأنه يعطينا فكرة واضحة عن حياة ابن شرف بالأندلس، وعن صلاته ببعض حكّامها، يضاف الى هذا أنه أورد لنا أخباراً عن ابن شرف في غاية الأهميّة نقلها عن فصل لابن حيّان في ذكر الشعراء، وابن حيّان هذا كان معاصراً لابن شرف. وعلى كتاب الذخيرة هذا اعتمد معظم الذين تحدّثوا عن ابن شرف، وترجموا له، وقد كان في مقدمتهم: ابن فضل الله العمريّ في كتابه: ((مسالك الأبصار))، والدّباغ في كتابه: ((معالم الايمان))، وغيرهما.

ومن هذه المصادر أيضاً، كتاب: ((خريدة القصر))، للعماد الأصفهاني، (ت:٥٩٧هـ)، وقد افادنا هذا المصدر في معرفة ترجمته وأخباره، كما أثبت لنا طائفة من شعره ونثره.

ومنها: ((بدائع البدائه))، لعليّ بن ظافر الأزدي، (ت:٦١٣هـ)، وهو كتاب مهم بالنسبة لنا، لأنه أثبت لنا نقولاً من كتاب ((أبكار الأفكار)) لابن شرف، كما أورد لنا نخبة من مقطّعاته الشعريّة، وطائفة من أخباره.

ومنها أيضاً: ((معجم الأدباء))، لياقوت الحموي، (ت:٦٢٦هـ)، وقد افدنا منه في معرفة ترجمته، وصلاته، وأخباره، هذا فضلاً عن مقطّعاته الشعريّة التي حفظها لنا.

ومنها: ((المطرب في أشعار أهل المغرب))، لابن دحيّة، (ت:٦٣٣هـ)، وهو من المصادر الأساسية التي اتكأنا عليها، فأفادتنا في الوقوف على نسبه، وترجمته، وعرّفتنا الى مؤلفاته وصلاته بمن عاصروه، هذا فضلاً عن مقطّعاته الشعرية التي اثبتها لنا.

وثمّة مصادر أخرى تاريخيّة، وجغرافيّة أفدنا منها في بحثنا هذا عندما تحدّثنا عن معالم البيئة السياسيّة، والاجتماعيّة، والفكريّة التي نشأ فيها أديبنا، إضافة الى كتب التراجم والسيَر التي انتفعنا بها، وقد كان في مقدمتها: كتاب: ((الصلّة)) لابن بشكوال، و((فوات الوفيات))، لابن شاكر الكتبيّ، و((الوافي بالوفيات))، للصفدي، وغيرهم، وقد افادتنا هذه المصادر في معرفة اسمه، ونسبه، ومؤلفاته، وصلاته، كما حفظت لنا بعض مقطّعاته الشعريّة والنثريّة.

ولقد جمعت ما ورد في تلك المصادر من شعر، ونثر، وأخبار، واقمت على ضوئها دراسة تبحث في حياة ابن شرف وأدبه، وفقاً لما تجمّع لديّ من معلومات وأشعار، وجعلت ذلك في أربعة فصول، مهدت لها بتمهيد، وختمتها بخاتمة لخّصت فيها ما توصلت اليه من نتائج.

وقد جعلت التمهيد للحديث عن العصر الذي نشأ فيه ابن شرف، فتحدثت عن الحياة السياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والفكريّة التي هيمنت على عصره، لأرى مدى تفاعله مع أحداث عصره، وتأثيرها في شخصيته وانتاجه، ففي ذلك ما يلقي ضوءاً كاشفاً على إنتاجه وشخصيته. وتحدثت عن تلك النكبة التي مُني بها وطنه، فأنطقته بالشعر، وجعلته يتفاعل معها بكل مشاعره وأحاسيسه.

وأمّا الفصل الأول فقد خصصته للحديث عن حياة ابن شرف، وثقافته، فرافقته في هذا الفصل منذ ولادته في أواخر القرن الرّابع الهجري، وحتى وفاته في سنة ستين وأربعمائة للهجرة، فتوقّفت عند اسمه ونسبه، واسرته، ونشأته الأولى، وصلاته، وعرّفت بشيوخه الذين تتلمذ عليهم، وتلاميذه الذين تلمذ لهم، وبآثاره التي ألّفها، منبهاً الى ما ضاع منها. وتوقفت عند شخصيته وأخلاقه، ورافقته في رحلة القهر والتشريد التي قام بها -رغماً عنه- الى بلاد الأندلس، مشيراً الى علاقاته وصلاته بأمراء الطوائف فيها، فإن دراسة هذه النواحي هي دراسة للينابيع التي أمدت حياته الفكريّة، وشخصيته بالمدد الغزير. وقد ختمت هذا الفصل بالحديث عن زمن وفاته ومكانها، وصحّحت ما وقع فيه الدارسون من التباس في مكان ولادته، وحسمت القول في ذلك.

وأما الفصل الثاني فقد جعلته للحديث عن شعره من حيثُ جمعه وتدوينه، وأغراضه، وخصائصه الفنيّة، وحاولت في هذا الفصل أن أتعرّف الى طريقته في نظم الشعر، وأن أرسم معالم شخصيته واتجاهاته من خلال شعره، وأن أتعرّف الى جوانب حياته وعبقريته.

وجعلت الفصل الثالث للحديث عن نثره، فتحدّثت عن موضوعاته، وخصائصه الفنيّة، ورسائله التي بعث بها الى أمراء الطوائف ووزرائهم، ومقاماته التي ألّفها محاكياً بها بديع الزمان، وتحدثت عن مجتمعه كما يصوّره في نثره، فوقفت على موقفه منه، وتعرّفت الى موقفه من قضايا عصره.

وأمّا الفصل الرابع والأخير من هذه الدراسة فقد خصّصته للحديث عن نظراته النقديّة والتي طالعنا بها في إطار العناوين التالية: نظراته النقديّة، ومقاييسه في نقد الشعر، ونقده التطبيقي.

وقد واجهتنا في هذه الدراسة مصاعب كثيرة، ومنها: أنّ المصادر وكتب التراجم التي تعرضت لترجمته وأخباره كانت تكتفي بالاشارة الى اسمه، ونسبه، وبعض أخباره وأشعاره.

ومنها: ضياع معظم آثاره ومؤلفاته التي ألّفها في حياته، وجمع فيها شعره ونثره، وخاصة كتابه المعروف بـ ((أبكار الأفكار))، وكتابه المعروف بـ ((أعلام الكلام)).

ومنها: اختلاط شعره بشعر ولده جعفر، وخاصة عندما كانت بعض المصادر تورد عبارة: ((قال ابن شرف)).

وبعد: فهذا هو موضوع البحث، والدّوافع اليه، ومصادره الأساسيّة، والمشاكل التي واجهتنا فيه، آملاً أن أكون قد وُفقت فيما ذهبت اليه، فإن أصبت، فذلك فضل من الله ونعمة، وإن أخطأت، أو قصرت، فيقوم بعذري أنّني ما زلت طالب علم في بداية الطريق، أتتبع خطى من سبقني من الدّارسين والباحثين.

وفي الختام، ليسمح لي استاذي الفاضل الدكتور عبدالكريم خليفة أن أتقدم إليه باسمى آيات الشكر والعرفان، على ما منحني إيّاه من وقته، وجهده، وسعة صدره، فرعى هذا البحث منذ أن كان فكرة، الى أن بدا على الصورة التي ترونها، فكان يوجّهني بعلمه، وخبرته، ويمسك بيدي كلما اشرفت على الزلل، ولولاه ما كان هذا البحث ليتم على هذه الصورة، فله منّي كلّ تحيّة وتجلة، والله وليّ التوفيق.

((ربنا عليك توكلنا، واليك أنبنا، واليك المصير))

التمهيد

أولاً: البيئة السياسية.

ثانياً: البيئة الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثاً: البيئة الثقافية والفكرية.

البيئة السياسيّة

لم تكن الأحوال السياسيّة للعالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري بصورة عامة لتختلف اختلافاً كبيراً عمّا كانت عليه في القرن الرابع الهجري، فقد تنافس كل من الأمويين، والفاطميين والعباسيين على الخلافة الاسلاميّة التي لم تعد من حق العباسيين وحدهم، حيث قامت الدّولة الأموية في الأندلس، كما قامت الخلافة الفاطميّة في مصر، يقول ابن خلدون: "وصارت الدّولة العربيّة ثلاث دول: دولة بني العبّاس، ودولة بني أميّة بالأندلس، ودولة العبيديين بأفريقيّة ومصر والشام والحجاز"[1]. ولقد كانت الدّولة الصنهاجيّة التي نحن بصددها تابعةً اسمياً للدّولة الفاطميّة في مصر، وقد تمثلت هذه التبعيّة في ذكر الخليفة الفاطميّ في خُطب الجمعة، والدعاء له على أعواد المنابر، وتلقى التقليد منه، وفي نقش اسمه على السّكة[2]. وقد عُرِفت بهذا الاسم نسبةً الى قبيلة صِنهاجة البربريّة المعروفة بقوّتها وبأسها[3]، وكانت رئاسة هذه القبيلة لسيّدها زيري ابن مُناد[4]، الذي كان أول من ظهر منها وقاد الجيوش لصالح الفاطميين ضدّ اعدائهم حتى صار من أكبر أنصار الفاطميين ورجالهم المعدودين، ولقد ظلّ سيفاً مسلّطاً على الخارجين عن طاعة الفاطميين إلى أن توفيّ سنة ستين وثلاثمائة، فخلفه من بعده ابنه أبو الفتوح بُلُكين بن زيري بن مُناد[5]، الذي يعدّ بحق المؤسس الفعلي لهذه الدولة البربرية، وقد كان ذلك بعهد من الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين الله الذي أوصاه أنْ لا يرفع الجباية عن أهل البادية، والسّيف عن البربر، وأنْ لا يولّي أحداً من إخوته وأبناء عمّه بحجة أنهم يرون أنّهم أحقّ بهذا الأمر منه[6]، وبعد

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ٥١٨/١.

(2) البيان المغرب، ٢٧٩/١.

(3) وفيات الأعيان، ٢٦٥/١.

(4) وهو: زيري بن مناد الحميريّ الصّنهاجيّ جد المعزّ بن باديس، انظر ترجمته في وفيات الأعيان، ٣٤٣/٢.

(5) هو: أبو الفتوح بُلكين بن زيري بن مناد الحِميريّ الصّنهاجيّ، ويُسمى يوسف، لكنّ بُلكين أشهر، وهو الذي استخلفه المعزّ لدين الله الفاطميّ على أفريقيّة عند توجهه إلى الديار المصريّة. انظر وفيات الأعيان، ٢٨٦/١.

(6) وفيات الأعيان، ٢٨٦/١.

وفاته، خلفه ابنه المنصور وكان ذلك في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة للهجرة، وقد أظهر المنصور هذا دراية وعدلاً كبيراً مدّة استيلائه على الحكم إلى أنْ توفيّ فخلفه ابنه باديس[1] الذي تمتع بحق تعيين العمّال والولاة في البلاد التي تخضع لحكمه، فولّى عمّه حمّاد ناحية أشير احدى مدائن المغرب، وسبب ذلك أن أمراء زناتة استضعفوا الأمير باديس لصغر سنه، فخالفوا عليه وحاربوه، فبعث إليهم عمّه حماد على رأس جيش ليعيد زناتة إلى الطّاعة، وجعل له مُلك ما يفتحه[2]، فانقسم بذلك المغرب إلى قسمين: دولة في الشرق من أفريقيّة وقاعدتها القيروان، ودولة في المغرب من أفريقيّة وقاعدتها قلعة بني حمّاد الحصينة، قال ابن خلدون: ((... وافترق مُلك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بُلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حمّاد ابن بُلكين اصحاب القلعة.))[3]، وكان ذلك في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة للهجرة[4]، وبهذا يكون باديس قد فرّط بوصيّة المعزّ لدين الله الفاطميّ التي أوصى بها لجدّه، فيقيم حمّاد لنفسه مُلكاً داخل مُلك ابن أخيه باديس، يتمتع فيه بكثير من مظاهر الاستقلال لكنّه مع ذلك ظلّ يعترف لابن أخيه بالتبعيّة.

وعلى ما يبدو أنّ باديس قد ندِم على هذه الفعلة لا سيّما عندما رأى عظمة ملك حمّاد، ورأى فيه منافساً له على السلطة فأخذ يطالبه بالتنازل عن ملكه له إلاّ أنّ حمّاد أبى أنْ يفعل ذلك، فوقعت بينهما معارك كثيرة، كان النصر فيها حليف باديس[5] الذي توفيّ في سنة ست واربعمائة[6]، فتولّى بعده ابنه المعز[7] الذي لم يكن يتجاوز التاسعة من عمره على ما ذكرته المصادر[8]، فباشر الحكم تحت وصاية جدّته، وبعض رجال الدّولة على ما أورده ابن دينار حيث يقول: " ... ولمّا وصل الخبر بموت باديس، خرج عامل القيروان، ومعه الفقهاء والشيّوخ من أهل البلد، وأكابر صنهاجة، فوصلوا إلى المهديّة، وعزّوا المعزّ في والده، وكانت جدّته تباشر

---

(1) وفيات الأعيان، ١/٢٦٥-٢٦٦.

(2) اتحاف أهل الزمان، ١/١٣٤.

(3) تاريخ ابن خلدون، ٦/٣٢٤، وتاريخ المغرب، ٣/٧٥-٧٦، وغيرهما.

(4) المؤنس، ص: ٨٠.

(5) البيان المغرب، ١/٢٦٩، والمؤنس، ص: ٨١، والحلل السُندسيّة، ق٤ج١/٩٣٩، والبساط، ص:٦٦.

(6) وفيات الأعيان، ١/٢٦٥.

(7) المصدر نفسه، ٥/٢٣٣-٢٣٤.

(8) الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٧، والبيان المغرب، ١/٢٦٧، وصبح الأعشى، ٥/١٢٤، وتاريخ المغرب، ٣/٧٣، والحلل السُندسيّة، ق٤ج١/٩٤٠، وغيرهم.

الأمور، وتصرّف الأحوال من رأيها، فأحسنت لأهل القيروان."[1] هذا ولما رأى قوّاد المعزّ طمع الطامعين في صغر سن الملك الجديد، عملوا على توحيد صفوفهم، واتجهوا إلى أعداء المملكة الطامعين بها، وعلى رأسهم حمّاد عم والده الذي كان يحاول دائماً أن يغتصب مُلكه ليستولي على النصف الثاني من أفريقيّة، إلاّ أنّ محاولاته قد باءت بالفشل فعاد إلى قلعته مهزوماً[2].

وبعد فترة من الزمن أخذ المعزّ يشارك بنفسه في مقاومة المخالفين والطّامعين، غير أنّه لما رأى قوة حمّاد، وعجزه عن استعادة ملكه مال إلى مصالحته، لينصرف إلى شؤون دولته العمرانيّة والإقتصاديّة، وغيرهما، لا سيّما عندما علم أنّ حمّاد قد مال إلى ذلك، وأحبّ الصلح معه، قال ابن الأثير: " ... وورد رسولٌ من حمّاد إليه يعتذر، ويقرّ بالخطأ، ويسأل العفو، فأجابه المعزّ: إنْ كنت على ما قلت: فأرسل ولدك القائد إلينا"[3]، ففعل حمّاد ذلك، وأرسل ولده إلى المعزّ فأكرمه وأحسن وفادته، وعاد إلى أبيه، ورضي الصلح، وبذلك فقد استقرت الأمور بينهما وتصاهرا فزوّج المعز اخته بعبدالله بن حمّاد، فازدادوا إتفاقاً وامناً[4].

وبعد هذه المعاهدة يتسنّى لعهد المعزّ أن يكون عهد صلح واتفاق بينه وبين عمّ والده حمّاد من ناحية، وبين الذين خالفوا عليه من صنهاجة من ناحية أخرى، فهيأ له ذلك أن يتجه إلى المخالفين عليه من قبائل البربر الثائرة، فيعيدها إلى الطّاعة وبخاصة قبيلة زناتة التي كانت مصدر قلق وازعاج وشغب في دولته لكثرة ما كانت تقوم به من ثورات وفتن، حيثُ كانت تثور ما بين الفينة والفينة إلاّ أنّ التصر عليها كان يقف إلى جانب المعزّ بن باديس[5]، الأمر الذي دفع بهذه القبيلة إلى مصالحته[6]، غير أن هذا الصلح لم يدم إلاّ لفترة غير طويلة، فقد عاودت زناتة الخلاف، وأعلنت الثورة على المعزّ من جديد[7].

---

(1) المؤنس، ص: ٨١.

(2) الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٧-٢٥٨.

(3) الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٨، وتاريخ ابن خلدون، ٦/٣٢٤.

(4) الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٨-٢٥٩.

(5) المصدر نفسه، ٦/٣٢٥، ٩/٣٤٠.

(6) المصدر نفسه، ٩/٣٥٥.

(7) المصدر نفسه، ٩/٣٧٧، ٩/٤٥٠، والبيان المغرب، ١/٢٧٥.

وبهذا الصلح يكون المعزّ قد جمع حبّات العقد الصنهاجيّ الذي تناثر باستقلال حمّاد في قلعته الحصينة، وبما قام به من ثورات وفِتن قبل الصلح، كما التمّ الشمل الصنهاجيّ بقدوم زاوي ابن زيري بن مُناد عمّ والد المعزّ من الأندلس، وقدم معه أهله وحشمه، فأكرمهم المعزّ وأقاموا عنده[1]، الأمر الذي جعل ابن خلّكان يصف المعزّ بن باديس بأنّه واسطة عقد بيته[2]، ذلك لأنه استطاع أن يؤمّن النفوس، وأن يجمع أفراد البيت الصنهاجيّ من حوله، فتهيأ له بذلك أن ينشر الاتفاق والوئام بين أهله من جانب، وبين القبائل البربرية من جانب آخر[3].

ومن الأحداث الكبرى التي كان لها أثر في سياسة هذه الدّولة، ذلك الصراع الذي اشتدّ ما بين أنصار المذهب الشيعي الذي عمل الفاطميون على نشره في بلاد المغرب قبل رحيلهم عنها إلى مصر، وما بين أنصار المذهب السنّي المالكي في هذه الفترة الذين كانوا يشكلون الأغلبية العظمى من السكان على ما ذكره ابن خلدون الذي يقول: ((... وأما مالك -رحمه الله تعالى- فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم إلاّ أنّهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل، .... وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه الله.))[4].

ففي بداية حُكم المعزّ بن باديس، وفي نفس اليوم الذي وصل به إلى القيروان، بعد وفاة والده ومباشرته الحكم[5]، قُتِلَ الشيعة في كلّ مكان، وتبعتهم العامة إلى البادية، وقُتِلوا في المساجد أيضاً، وكان ذلك في سنة سبع وأربعمائة للهجرة[6].

ولقد ذهب المؤرخون في تعليلهم لأسباب وقوع هذه الفتنة مذاهب شتى، فمنهم من ذهَب إلى القول: إنّ عامل القيروان كان يحقد على المعزّ بن باديس، ويريد أن يوقع بينه وبين الفاطميين، ويحاول أن يُظهِرَ هذا الأمير بمظهر المتقاعس عن نصرة الدعوة الفاطمية، وحماية أرواح الشيعة، وعلى رأس هؤلاء ابن الأثير حيث يقول: ((... وأغراهم عامل القيروان، وحرّضهم، وسبب ذلك أنه كان قد اصلح أمور البلد، فبلغه أنّ المعزّ بن باديس يريد عزلَه، فأراد فساده، فقَتَل من الشيعة خلقٌ كثير، وأحرقوا

---

(1) الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٨-٢٥٩، وتاريخ ابن خلدون، ٦/٣٢٤.

(2) وفيات الأعيان، ٥/٢٣٣، ومرآة الجنان، ٣/٧٥، والحلل السُندسية ق٤ج١/٩٤٠، وغيرهم.

(3) انظر: الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٩.

(4) تاريخ ابن خلدون، ١/٨٠٥-٨٠٦.

(5) انظر: ترتيب المدارك، ٤/٦٢٥، الكامل في التاريخ، ٩/٢٩٥، والمعالم، ٣/١٥٣.

(6) انظر المصادر السابقة نفسها، والصفحات نفسها.

بالنار.))[1]، ومنهم من يرى أن فقهاء المالكيّة هم السبب في وقوع هذه الفتنة، لأنهم عملوا على تحريض المعزّ بن باديس ضدّ مذهب الشيعة ودلّوه على مذهب السّنّة والجماعة، وعلى رأس هؤلاء ابن عِذاري الذي يقول: ((... وكانت أفريقيّة كلّها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السّنّة والجماعة من وقت تملك عُبيدالله المهديّ لها، فحرّض ابن أبي الرّجّال[2] المعزّ بن باديس وأدّبه، ودلّه على مذهب مالك وعلى السّنّة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان، فخرج المعزّ في بعض الأعياد إلى المصلّى في زينته وحشوده، وهو غلام فكبا به فرسه، فقال: ((أبا بكر وعمر)) فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله، ومن يكتم السّنّة من أهل القيروان، ووُضِع السيف في الشيعة.))[3]، ونحن نرى أنّ الرواية الثانية رواية ابن عِذاري تحظى بالقبول لدينا، ذلك لأن النّاس في هذا القطر كانوا يحسّون أنّ المذهب الشيعيّ كان مفروضاً عليهم فرضاً، فكانوا يتحينون الفرصة المناسبة للتخلص منه، ولكنّهم كانوا يكتمون ذلك خوفاً من السلطة، غير أنّهم استطاعوا أن يتنفسوا الصُعداء من خلال تلك الذريعة التي وقعت مع المعزّ، ليعبروا عن سخطهم وكرههم لهذا المذهب الدخيل عليهم، فقتلوا الشيعة لا سيّما عندما أحسّوا أنّ المعزّ يقف إلى جانبهم، وأنّه راضٍ عن مذهبهم ولو من بعيد، إلاّ أن المعزّ لم يقف من هذه الفتنة موقف المتفرج، بل حاول أن يقضي عليها، وأن يعمل على حماية الشيعة، فنسب هذه الفتنة إلى العامّة[4]، ودبّر قضية قتل زعيم السّنّة، وشيخ هذه الدعوة ابن خلدون[5]، ليثبت لخليفة مصر الفاطميّ أن الأمر لم يخرج من يديه، وأنه ما زال مسيطراً على الموقف.

ولكنّ أهل السنّة لم يستسلموا لقتل شيخهم وزعيمهم، بل حاولوا أن يعبرّوا عن غيظهم وغضبهم، وقاموا بنهب الحوانيت وإحراق الأسواق، الأمر الذي دفع بالمعزّ إلى محاولة استرضاء

---

[1] الكامل في التاريخ، ٩/٢٩٤.

[2] وهو: أبو الحسن علي بن أبي الرجّال الشيبانيّ، رئيس ديوان الإنشاء بدولة المعزّ بن باديس، وهو مربيه ووزيره، وكاتم سرّه، العمدة، ١١/١٥، إعتاب الكتّاب، ص: ٢١٤.

[3] البيان المغرب ١/٢٧٣-٢٧٤، والكامل في التاريخ، ٩/٢٩٤.

[4] أنظر: المؤنس، ص٨٢، وتاريخ ابن خلدون، ٦/٢٩، والنجوم الزاهرة، ٢/١٦٤-١٦٥.

[5] وهو: أبو عليّ حسن بن خلدون البَلَويّ، كان ركناً من أركان أهل السنّة مع فقه كثير، قرأ على الشيخ أبي الحسن القابسيّ، كانت العامة تتبعه وتتعلق به، وكان شديداً على أهل البِدع والرّوافض مُغرياً بهم. انظر: ترجمته في ترتيب المدارك، ٤/٦٢٦، والمعالم، ٣/١٥١.

العامة وكسب ودهم[١]. وأما خليفة مصر الفاطميّ فقد حاول أن يغضّ الطرف عن المعزّ بن باديس ويرسل له الخِلَع والهدايا من مصر على ما ذكره ابن الأثير حيث يقول: ((... وفي آخر ذي الحجة سيّر الحاكم الخِلَع من مصرَ إلى المعزّ، ولقبّه شرف الدّولة، ولم يذكر ما كان منه إلى الشيعة من القتل والإحراق))[٢]. ولقد كان ذلك في نفس السنة التي وقعت فيها فتنة الشيعة[٣]، إلاّ أن هذه الفتنة لم تقضِ على الدّعوة الشيعيّة في أفريقيّة قضاءً مبرماً، إنما ظلت الدولة الصِنهاجيّة تدين بالطاعة والولاء للفاطميين في مصر، ومن أجل ذلك فقد طلب الخليفة الفاطميّ إلى المعزّ أن يعمل على حماية هذه الطائفة، وأن يحافظ على وجودها وبقائها في القيروان[٤].

وعلى ما يبدو أن دولة المعزّ بن باديس كانت على علاقات طيبة مع الدّوَل المجاورة لها، ومع ملوكها الذين تبادلوا الهدايا مع المعزّ بن باديس، وعملوا على تحسين العلاقات فيما بينهم، قال ابن عِذاري: ((... ووَصَلت من ملك السودان إلى المعزّ بن باديس هدية جليلة، فيها: رقيق كثير، وزرافات وأنواع من الحيوانات غريبة))[٥]، كما اتته بعثة أخرى من ملك الروم، تحمل هدية جليلة قبلها المعزّ، وأرجعها بما يلائم المقام[٦]، وذكر لنا صاحب المؤنس هدية أخرى وصلت إليه من أحد الحكام فيها ثلاثمائة وخمسة وثلاثون برذوناً بالسروج المحلاّة، وعبيد وأشياء أخرى كثيرة[٧]، هذا بالإضافة إلى هدايا وأُعطيات صاحب مصر التي كانت تصل إليه بين الفينة والأخرى.

ولقد تمتع المعزّ بمُلكِه طيلة هذه الفترة، على الرُّغم من تلك الفتن التي كانت تُطّل برأسها بين الفترة والفترة، لا سيّما عندما تغيّر عليه أولاد حمّاد بعد وفاة والدهم، فثاروا عليه وخالفوا

---

(١) أنظر: ترتيب المدارك، ٦٢٦/٤.

(٢) الكامل في التاريخ، ٢٥٨/٩، ووفيات الأعيان، ٢٣٣/٥، والبيان المغرب، ٢٦٩/١، والنجوم الزاهرة، ٧١/٥، والحلل السُندسية ق٤ج٩٤٠/١، وإتحاف أهل الزمان، ١٣٧/١.

(٣) وفيات الأعيان، ٢٣٣/٥، والبيان المغرب، ١٦٩/١، والمصدر نفسه، ٢٧١/١-٢٧٢.

(٤) المؤنس، ص: ٨١.

(٥) البيان المغرب، ٢٧٥/١، والإتحاف، ١٣٧/١، والبساط، ص: ٦٩.

(٦) المرجع نفسه، ص: ٦٩.

(٧) المؤنس، ص: ٨٢-٨٣.

لكنه استطاع أن يعيدهم إلى الطّاعة[1] ولبث بملكه مسيطراً قوياً إلى أن تغيّر على الفاطميين وقطع دعوتهم من بلاد أفريقيّة، وخطب لبني العبّاس، ولقد أجمع المؤرخون على أنّ الدعوة للفاطميين قد قُطِعت من بلاد المغرب في سنة أربعين وأربعمائة للهجرة، وأقيمت بدلاً منها للعبّاسيين[2]، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلاّ القليل[3]، وصفوة القول في هذه القضية أن الدعوة الفاطميّة قد قُضي عليها في بلاد المغرب وأفريقيّة في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة للهجرة حين أمر المعزّ بلبس السواد شعار العبّاسيين، وصرّح بلعن الفاطميين على أعواد المنابر[4].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا الموقف الذي وقفه المعزّ بن باديس من الفاطميين قد لقي قبولاً وتشجيعاً من خليفة بغداد العبّاسيّ الذي بادر إلى تولية المعزّ جميع بلاد المغرب وأفريقيّة على ما ذكره ابن الأثير حيث يقول: ((... وفي هذه السنة أظهر المعزّ ببلاد أفريقيّة الدّعاء للدّولة العباسيّة، وخَطَب للإمام القائم بأمر أمير المؤمنين، وَوَرَدت عليه الخِلَع والتقليدات ببلاد أفريقيّة وجميع ما يفتحه، وفي أول الكتاب الذي مع الرُسل، من عبدالله ووليّه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام، وشرف الإمام، وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيّد سنّة رسول الله أبي تميم المعزّ بن باديس المنصور وليّ أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين، وأرسل إليه سيفٌ وفرسٌ وأعلامٌ على طريق القسطنطينيّة، فوصل ذلك يوم الجمعة، فَدُخِل به إلى الجامع والخطيب يخطب على المنبر، فقال: "هذا لواء الحمد يجمعكم، وهذا معزّ الدين يسمعكم، واستغفر الله لي ولكم"، وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت وأُحرقت أعلامهم))[5].

هذا ولِقطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب وأفريقيّة أسباب كثيرة تحدث عنها المؤرخون، فابن الأثير يرى أنّها قُطعت لأسباب شخصيّة كانت بين المعزّ بن باديس ووزير

---

(1) الكامل في التاريخ، ٤٩٣/٩، والبيان المغرب، ٢٧٥/١، وتاريخ ابن خلدون، ٣٢٤/٦.

(2) أنظر: الكامل في التاريخ، ٥٦٦/٩، ٢٧٧/١، والمعالم، ١٩٦/٣، وصبح الأعشى، ١٢٥/٥، والمؤنس، ص: ٨٣، ورحلة التجاني، ٣٢٨، وغيرهم.

(3) أنظر: وفيات الأعيان، ٢٢٩/٥، والمؤنس، ص: ٨٣، وتاريخ المغرب، ٧٤/٣.

(4) أنظر: البيان المغرب، ٢٨٠/١، وتاريخ الخلفاء، ص: ٢٧٨، ووفيات الأعيان، ٢٢٩/٥، والنجوم الزاهرة، ٢/٥، وغيرهم.

(5) الكامل في التاريخ، ٥٢٢/٩.

الفاطميين اليازوري[1]، وهذا واضح من قوله: ((... ثم إنّ المستنصر استوزَر الحسن بن علي اليازوريّ ولم يكن من أهل الوِزارة، إنما كان من أهل التبانة والفلاحة، فلم يخاطبه المعزّ كما كان يخاطب من قَبلَه من الوزراء، كان يخاطبهم بعبده فخاطب اليازوريّ بصنيعته فعظم ذلك عليه، فعاتبه فلم يُرجِع إليه ما يحبّ، فأكثر الوقيعة في المعزّ وأغرى به المستنصر.))[2].

ونحن وإن كنّا لا ننكر الدّور الذي لعبه اليازوريّ في تحريض المستنصر الفاطميّ ضدّ المعزّ بن باديس وإغرائه به، إلاّ أنّنا لا نستطيع أن ندّعي أنّ ما ذكره ابن الأثير يُعدّ من الأسباب المباشرة التي أدّت إلى قطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب وأفريقيّة، فالقضية في نظرنا ليست قضيّة عداء شخصي وحقد قديم كان بين المعزّ بن باديس ووزير الفاطميين اليازوريّ، إنّما هي قضية صراع اشتدّ ما بين مذهبين متناقضين أحدهما: شيعيّ مفروض على عامّة الناس في هذه البلاد فرضه عليهم الفاطميون، وثانيهما سنّيّ مالكيّ اعتنقه الناس عن قناعة، ولقد بلغ هذا الصراع ذِروَته لا سيّما عندما قاطع أهل القيروان صلاة الجمعة، تعبيراً عن عدم رضاهم، وعن كرههم لهذا المذهب الدّخيل الذي يتعارض مع مبادئهم، وهذا واضح من رواية ابن عِذاريّ التي يقول فيها: ((... لمّا رحل بنو عبيد إلى مصر، لم تزل ملوك صِنهاجة، يخطبون لهم بأفريقيّة، ويذكرون أسماءهم على المنابر، وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة، فراراً من دعوتهم، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد، قال سراً: "اللهم اشهد، اللهم اشهد."، ثم ينصرف، فيصلي ظهراً أربعاً إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد، فتعطلت الجمعة دهراً، وأقام ذلك إلى أن رأى المعزّ بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان سرور))[3].

على أنّنا لا نستطيع أن ننكر الدّور الذي قام به فقهاء المالكيّة في قطع هذه الدعوة باحتضانهم المعزّ بن باديس، وتربيتهم له، ذلك لأنّهم عملوا على إقناعه بقطع هذه الدعوة على ما

---

[1] وهو: الحسن بن علي بن عبدالرحمن أبو محمّد اليازوريّ، وزيرٌ من الدُهاة، ولِد في يازور بفلسطين وإليها نسبته، سكن الرملة وولي الحكم فيها، اتصل بالمستنصر الفاطميّ صاحب مصر سنة ٤٤٢هـ، وجعله قاضي القضاة ولُقّب بسيد الوزراء. أنظر: رحلة التجاني، ص: ٢٢، الحلل السُندسيّة، ق٤ج٩٤٦/١، الأعلام، ٢١٨/٢، وغيرهم.

[2] الكامل في التاريخ، ٥٦٦/٩، تاريخ ابن خلدون، ٢٩/٦.

[3] البيان المغرب، ٢٧٧/١.

ذكره القاضي عياض حيث يقول: ((... ولمّا انتقل بنو عبيد إلى مصر والمشرق، تركوا على أفريقيّة عمالهم أبناء زيريّ بن مُناد الصنهاجيّ الذين أقاموا ولايتهم بالمهدية، عمل فقهاء المالكية بأفريقيّة على استقلال بلادهم عن مركز الخلافة، وما أن جاء المعزّ الصنهاجيّ حتى أقنعوه بإعلان استقلاله عن هذا الخليفة الوهميّ، وأصبحت الدولة مالكيّة صرفة، وأنتقم أصحابها من بقية مَن كان يتهم بالتشيع للباطنيّة، وقُتل بكل سنّيّ باطنيّ.))[1].

أجل لقد سيطر فقهاء المالكيّة بالقيروان على أمور الدولة الصنهاجية في الوقت الذي شُغل به الفاطميون بالفِتَن والثورات الدّاخلية والمجاعات، لا سيّما إذا علمنا أن المعزّ بن باديس قد انصرف إلى تأييد أهل السنّة بتأثير استاذه ابن أبي الرجّال الذي حبب إليه عقائد المذهب السنّيّ وعرّفه إلى مذهب مالك، فغرس في نفسه كره المذهب الشيعيّ والخلفاء الفاطميين، فشب على ذلك منذ نعومة أظفاره، لكنه ظلّ يتمذهب بمذهب الشيعة[2]، ويُظهِرَ لهم الولاء، ويُبطِنَ العطف على أهل السنّة، ويميل إليهم، وهذا واضح من رواية الدباغ التي ذكر فيها على لسان المعزّ ابن باديس أنه قد أبقى على التبعيّة للفاطميين، مخافة إلحاق الأذى بالحجاج المغاربة، حيث يقول: ((... ما أبقيت السكّة والبنود إلاّ مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين، ثمّ قال السلطان: ألم أقتل المشارقة؟، ألم أفعل كذا؟، ألم أفعل كذا؟ فقال الشيخ أبو بكر[3]: فعلت وبقي عليك! أتأذن لي أن أتكلم؟، قال السلطان: لا.))[4].

فهذه الرواية تدلّ دلالة صريحة على أن المعزّ بن باديس كان يفكر فعلياً بقطع دعوة الفاطميين وبخاصة عندما اشتد عليه لوم الفقهاء، على إبقاء هذه الصلة التقليدية التي لم يعد لها لزوم، لأنّها تتعارض مع عقائدهم، إلاّ أنّه كان يتحين الفرصة المناسبة لذلك، وإلاّ لما استشار هؤلاء الفقهاء فيما يلبس من ثياب وعليه أسماء بني عُبيد على ما أورده الدبّاغ حيث يقول: ((... ما يقول الفقيه في هذا الطرز التي فيها أسماء بني عُبيد مثل: الظاهر، الحاكم، وغيرهما مما يلبس أيُصلّى فيها؟.))[5].

---

(1) ترتيب المدارك، ١٣/١، البيان المغرب، ٢٧٤/١.

(2) انظر: المؤنس، ص: ٨٢، الإتحاف، ١٣٨/١.

(3) وهو: أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولانيّ - ٤٣٢هـ، كان أحد الفقهاء المبرزين والحُفّاظ المعدودين، قرأ على الشيخ أبي سعيد، وابن أبي زيد ثم لزم أبا الحسن القابسيّ، وانقطع إليه. انظر: المعالم، ١٦٥/٣-١٦٨.

(4) المصدر نفسه، ١٦٧.

(5) معالم الايمان، ١٦٧/٣.

وعندما رأى خليفة مصر أن المعز بن باديس قد تغيّر عليه، وخرج على طاعته، حاول أن يحلّ الأمر حلاً سلمياً، وأن يصلح الأمور فيما بينهما إلاّ أنّ المعزّ ردّ عليه رداً عنيفاً وادّعى أنّ مُلك أفريقيّة حقّ من حقوقه وحقوق آبائه[1]. فكان لهذا الرد أثره في نفس الخليفة الفاطميّ إذ وقع في نفسه موقع النبال، ذلك لأن المعزّ وآباءه كانوا صنيعة الفاطميين، وما اختاروهم إلاّ ليكونوا لهم عوناً على من عاداهم لا أعداء لهم ومناهضين.

ولمّا أحسّ الخليفة الفاطميّ أنّ بلاد المغرب قد خرجت على طاعته، وفقد الأمل من عودتها مرة أخرى، بدأ يفكر بطريقة ينتقم بها من المعزّ بن باديس لا تكلّفه جهداً ومشقةً، فأشار عليه وزيره اليازوريّ مَشورةً تُحقّق له بُغيَته دونما عناء، وذلك أنّه كان بأرض مصر قبائل من الأعراب ينتسبون إلى بني هلال، وبني سليم وهم: رياح، وزغبة، وعُديّ والأثبج، وغيرهم، وكان هؤلاء الأعراب يقيمون جبراً في صعيد مصر ما بين البحر الأحمر والنيل، وقد أجبرهم على الإقامة بها الفاطميون بعد أن كَثُر ضررهم في بلاد الحجاز، فَسُمح لهم بمجاز النيل إلى بلاد المغرب، وكان ذلك محظوراً عليهم بعد أن أمدّهم بالمال والعتاد، وملّكهم مُلك المعزّ بن باديس وبلاد أفريقيّة على ما ذكره ابن خلدون حيث يقول: ((... وكان أحياء هلال من جُشَم، والأثبَج، وزُغبة، ورياح، وربيعة وعديّ في محلاتهم بالصعيد، وقد عمّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم، فأشار ابن اليازوريّ باصطناعهم، والتقدّم لمشايخهم وتوليتهم أعمال أفريقيّة وتقليدهم أمرها، ودفعهم إلى حرب صِنهاجة، ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة.))[2]، فجاز منهم خَلقٌ كثير إلى بلاد أفريقيّة، وانطلقوا إلى حاضرة ابن باديس انطلاق الجراد، واقتحموا البلاد فأحرقوا الأخضر واليابس، وعاثوا فيها تخريباً وفساداً[3].

وعندما رأى المعزّ بن باديس هذه الجحافل المتقدّمة إلى مملكته، حاول أن يستميلهم إلى جانبه، وأنْ يشغلهم بخدمته، ومن أجل ذلك فقد أغدَقَ عليهم نِعَمَه، وهم يتمرسون بجهاته، ويطّلعون على مقاتِله وعوراته إلى أن جاهروه العداوة وحاربوه[4]، فدارت بينهما حروب ووقائع كثيرةً كانت سجالاً بينهم

---

(1) أنظر: وفيات الأعيان، ٥/٢٣٣.

(2) تاريخ ابن خلدون، ٦/١٠، الكامل في التاريخ، ٩/٥٦٦، وورقات عن الحضارة، ١/٤٤٨.

(3) أنظر: البيان المغرب، ١/٢٨٨، المؤنس، ص: ٨٤، تاريخ ابن خلدون، ٦/٣٢٥، الحلل السُندسيّة، ق٤ج١/٩٤٠-٩٤١، وغيرهم.

(4) أنظر: رحلة التجاني، ص: ١٨.

حتى تمّت عليه الهزيمة ودارت الدائرة عليه، لتخلّي زناتة وصنهاجة عنه، ففرّ بنفسه وبخاصته إلى المهدية[1] وكان ذلك في سنة تسع واربعين واربعمائة للهجرة على ما ذكرته المصادر[2].

وقد أرغِم المعزّ على إباحة دخول القيروان للأعراب[3] بعد هذه الهزيمة، فألحقوا بها الخراب والدمار، وشرّدوا اهلها، فأصيبت القيروان بنكبة عُدّت من أكبر ما نُكِبَت به مدينة في التاريخ الإسلامي، وأندكت بهذه النكبة معالم مدينة من أزهى وأعظم مدن البلاد الافريقيّة في ذلك الوقت، ولقد أنطَقت هذه النكبة التي مُنِيَت بها القيروان ابن شرف، وابن رشيق، والحصريّ، وغيرهم من أبناء القيروان وأدباء هذا القُطر، حيث صوّروا لنا تلك النكبة تصويراً حزيناً باكياً، يفيض ألماً وحُرقةً على المصير الذي آلت إليه هذه المدينة الزاهرة، هذا إلى جانب ما نقلته لنا المصادر التاريخيّة التي صوّرت لنا بعض جوانب هذه النكبة[4]، الأمر الذي أدّى إلى إنجاح مكيدة اليازوريّ من جانب، وإضعاف مُلك صنهاجة وحصره في مدينة المهدية العاصمة الثانية لهذه الدولة بعد نكبة القيروان من جانب آخر.

وبهذا استطاع الخليفة الفاطميّ أن يتخلص من خَطَرين في آنٍ واحدٍ، إذ تخلص من المعزّ بن باديس الذي خرج على طاعته دون مشقّة وعناء، كما تخلص من خطر هؤلاء الأعراب الذين كانوا يحملون نفوساً مضطربة تغلي فيها الثورات والفِتَن لا سيّما بعد أن كَثُرَت مشاكلهم، واصبحوا يشكلون خطراً على الدولة، بما يسببونه فيها من إزعاج وشغب، قال ابن خلدون: ((... فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعزّ وصنهاجة، كانوا أولياء للدعوة وعمّالاً بتلك القاصية، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها، وأمرُ العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك.))[5].

---

(1) أنظر: الكامل في التاريخ، ٥٦٩/٩، تاريخ ابن خلدون، ٣٢/٦، المؤنس، ص: ٨٥، الحلل السُندسيّة، ق٤ج١/٩٤٠-٩٤١، الإتحاف، ١٣٩/١.

(2) أنظر: الكامل في التاريخ، ٥٦٩/٩، تاريخ ابن خلدون، ٣٢٦/٦، الإتحاف، ١٣٩/١.

(3) الكامل في التاريخ، ٥٦٩/٩، والبيان المغرب، ٢٩٣/١، وتاريخ ابن خلدون، ٣٤/٦-٣٥، المؤنس، ص: ٨٤، والإتحاف، ١٣٩/١.

(4) البيان المغرب، ٢٩١/١-٢٩٢.

(5) تاريخ ابن خلدون، ٣٠/٦.

ومهما يكن من أمر، فإن الخليفة الفاطميّ قد طَرِب لهزيمة المعزّ بن باديس، وعبّر عن فرحته بهذه الهزيمة في رسالته التي وجهها لعليّ بن محمّد الصليحيّ[1] صاحب اليمن وقد جاء فيها: ((... وأنّه خلّف ابن باديس محصوراً في منفاه من الأرض، محمولاً على شفا جُرفٍ من الأخذ والقبض، وقد فغر الردى له فيه، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه، وأمير المؤمنين يسأل الله جلّت عَظمتَه معونته على شكر نعمته التي هو عن القيام بواجبها أقلها محصور، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور، والحمد لله الذي اذهب عنّا الحزن، وإن ربّنا لغفور شكور، أعلمك أمير المؤمنين بهذه العارفة الطارفة، لتنشره على المنابر، وتذيعه في البوادي والحواضر -إن شاء الله تعالى- والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.))[2].

ولقد أقام المعزّ بالمهدية بعد خراب القيروان إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة[3]، فخلّفه إبنه تميم بعد أن رأى خراب مملكته، وتمردّت القبائل عليه، فعمّت الثورات في البلاد من جديد، وكَثُر عليه المخالفون والثائرون، وساءت العلاقة بينه وبين أبناء حمّاد الذين خلعوا طاعته، وخالفوا عليه، وقد استغل خليفة مصر هذه الأمور فعمل على إشعال نار العداوة والخصومة بين الطرفين بما كان يوحيه إلى هؤلاء الأعراب الذين كانوا يغيرون على المعزّ مرة، وعلى أولاد حمّاد مرة أخرى، كما خرجت على طاعته غالب البلاد، وكَثُر عليه المخالفون، فخالفت عليه سوسة وقفصة، وباجة، وجل البلاد المغربيّة[4]، ولكنه مع ذلك استطاع أن يحتفظ بالمهدية وأن يقيم فيها دولته.

---

[1] وهو: أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ الصّليحيّ، القائم باليمن، كان والده قاضياً بها، وهو سنّيّ المذهب. أنظر: ترجمته في: وفيات الأعيان، ٤١١/٣، وشذرات الذهب، ٣٤٦/٣.

[2] السجلات المستنصرية، ص: ٤٥.

[3] أنظر: وفيات الأعيان، ٢٣٥/٥، البيان المغرب، ٢٩٨/١، تاريخ المغرب، ٧٨/٣، المؤنس، ص: ٨٥، العِبَر، ٢٣٣/٣.

[4] أنظر: الكامل في التاريخ، ٤٤/١٠، المؤنس، ص: ٨٤، تاريخ ابن خلدون، ٣٢٦/٦.

البيئة الإجتماعية

لما كانت الحياة متداخلة مترابطة، لا يمكن أن تفصل بعضها عن بعض فإننا سنرى أن ما رأيناه من مظاهر في البيئة السياسية للدولة الصنهاجية، ينعكس أثره على المظاهر الأخرى بصفةٍ عامة، وعلى البيئة الاجتماعية بصفة خاصة في هذا العصر، ذلك لأن البيئة الاجتماعية تتلون بألوان البيئة السياسية السائدة وتتأثر بها، ولا يمكن أن تكون بمنأى عنها.

وبناء على ما تقدم فإننا نستطيع أن نقول: إن حياة الناس في هذا القطر، قد تأثرت تاثراً واضحاً وملموساً بالبيئة السياسية، التي كانت تزخر بالفتن والثورات الداخلية التي كانت تطل برأسها بين الفينة والفينة[1]، لا سيما عندما كانت تضطرب سياسة الدولة، وتختل الأمور، وفي هذه الحالة تختل الأوضاع الاجتماعية وتتغير أحوال الناس، وأما عندما تختفي الثورات والفتن وتزول أسباب الخوف، فإن حياة الناس تميل إلى الهدوء والإستقرار، فينصرفون إلى الإنشاء والتعمير، وهذا ما يستطيع الدارس أن يراه، عندما يتعرض لأمور الدولة الصنهاجية التي عاش في كنفها شاعرنا، وتفاعلَ مع أحداثها وحوادثها، وعبَّر عنها في ادبه وشِعره، ففي فترات الهدوء والإستقرار التي عاشتها هذه الدولة رأينا حضارة لا تقلّ عن مثيلتها في المشرق، فابن خلدون يرى أن مُلك المعزّ كان أضخم مُلكٍ عُرِف للبربر بأفريقيّة وأترفة وأبذخه[2].

وقد كان المجتمع الصِنهاجيّ في هذه الفترة يضم عناصر شتى من عرب وروم فبربر وفُرس وتُرك، وقد إنصهرت هذه العناصر المختلفة في بوتقة واحدة وكونت مجتمعاً واحداً، قال صاحب الأعلاق النفيسة: ((... وفي القيروان أخلاط من الناس: من قريش، ومن سائر بطون العرب، من مُضَر وربيعة وقحطان، وبها أصناف من العجم من أهل خرسان، ومن كان وردها من عمّال بني هاشم، وبها عجم البلد البربر والروم، واشباه ذلك.))[3].

---

[1] الكامل في التاريخ، ٩/٢٥٧، ٣٤٠، ٤٥٠، ٣٧٧، وغيرها، والبيان المغرب، ١/٢٧٥، والمؤنس، ص:٨٢، وإتحاف أهل الزمان، ١/١٣٧، وغيرهم

[2] انظر تاريخ تاريخ ابن خلدون، ٧/٣٢٤.

[3] الأعلاق النفيسة، ص: ٣٩٩.

فالمجتمع القيرواني لم يكن منعزلاً عن غيره من المجتمعات الاسلامية الموجودة في المشرق وفي الأندلس، وإنما كان على إتصال بالشعوب والأجناس التي يتكون منها العالم الإسلاميّ في طرفه الشرقيّ من: عرب، وفُرس، وروم، وقد كانت حركة الإختلاط بين العرب والبربر تسير جنباً إلى جنب مع حركة الفتوح الإسلامية التي عملت على توحيدهم[1].

ويجدر بنا أن نذكر أنّ المجتمع الصنهاجيّ في هذا العصر كان يتألف من طبقتين رئيسيتين هما: الخاصّة وهم: أصحاب السلطان وأقرباؤه ورجال الدولة كالأشراف والوزراء والقوّاد والكتّاب، والقضاة، والعلماء، والأدباء، والعامّة وهم: سواد الناس من أهل الحِرف والصنائع والفلاّحين والجُند والرقيق، وغيرهم من الفئات الإجتماعية الأخرى[2]. ولقد حفظ لنا المؤرخون كثيراً من مظاهر الترف والبذخ التي عاشتها الطبقة الخاصّة في هذا القُطر، لا سيّما الأمراء منهم الذين أحاطوا مُلكهم بهالة من الأبّهة والعظمة، فبدّدوا الأموال هنا وهناك، وتصرّفوا بأموال الرعية تصرّف المالك المطلق، وسخروها لشؤونهم الخاصّة، ولمآربهم الذاتيّة، وقد حدّثتنا المصادر عن تلك الأموال الطائلة التي أنفقها المعزّ في تجهيز جدّته، وعن تلك الولائم التي أقامها في حفلة زفافه وزفاف شقيقته[3]، ولقد ساعدهم على حياة البذخ والتَرف هذه عوامل متعددة منها: إزدهار التجارة في هذا القُطر، ونمو الصناعة، ووفرَة الغلاّت الزراعيّة، لذلك فقد بلغت الدولة الصنهاجيّة درجةً عاليةً من الرُقي في جميع نواحي الحياة، وتطورت الحياة الإجتماعيّة فيها تطوراً كبيراً.

وقد ازدهرت في عهد المعزّ بن باديس الصناعة والتجارة والزراعة، فوُجد في هذا القُطر الكثير من الصناعات مثل: صناعة البُسُط والمنسوجات الحريريّة والقطنيّة، وهذه الصناعة ازدهرت في مدينة سوسة على ما ذكره البكريّ حيث يقول: ((... والحياكة بسوسة كثيرة، ويُغزل بها غَزْل يباع زِنة المثقال منه بمثقالين من ذهب.))[4]، ومن الصناعات التي وُجدت في هذا القُطر صناعة الجلد لا سيّما تلك السّروج القيروانيّة المطرّزة باسلاك الفضة، هذا إلى جانب

---

[1] أنظر: حياة القيروان، ص: ٧٢.

[2] أنظر: البساط، ص: ٣١.

[3] أنظر: البيان المغرب، ١/٢٧٠، والمؤنس، ص: ٨٣، وتاريخ ابن خلدون، ٦/٣٢٥، والإتحاف، ١/١٣٨.

[4] المغرب، ص: ٣٦، والبساط، ص: ٣٤.

بعض الصناعات البسيطة الأخرى، كصياغة المجوهرات، وأدوات الحرب، وغيرها[1]، وقد أُعجب البكريّ بصناعة الفخّار والخزف في هذا القُطر، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً وذكر لنا بعض أسمائها، فقال: ((... ويُصنع بتونس آنية للماء من الخزف تُعرف بالريحيّة، شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف، ليس لها مثيل في جميع الأقطار وعامّة الأمصار.))[2].

وأمّا الحركة التجاريّة في هذا القُطر، فقد ازدهرت إزدهاراً كبيراً ما بين المغرب والمشرق عن طريق الإسكندريّة، وما بين المغرب وأوروبا بواسطة الأندلس وصقليّة، حيث كانت القوافل تسير ليلَ نهارَ محملة بالبضائع من مدينة الإسكندريّة إلى مدينة القيروان على ما ذكره المراكشيّ حيث يقول: ((وكانت العمارةُ متصلة من مدينة الإسكندريّة إلى مدينة القيروان، تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً، وكان فيما بين الإسكندريّة وطرابلس المغرب حصون متقاربة، فإذا ظهر في البحر عدوّ نوّر كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدوّ من طرابلس إلى الإسكندريّة، أو من الإسكندريّة إلى طرابلس.))[3]، كما كانت السفن تحمل البضائع من نهر إشبيلية وأنهار الأندلس إلى المغرب والإسكندريّة، قال ابن خلكان: ((... ونهر إشبيلية هذا نهر مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من برّ المغرب، وحاملة إليه.))[4].

فالحركة التجارية كما نرى كانت نشطة ومزدهرة في هذا القُطر، وقد ساعد على إزدهارها عوامل كثيرة كان من أهمّها: موقع البلاد المغربيّة ما بين المشرق والأندلس، وغزارة الإنتاج الصناعيّ والزراعيّ، وقلّة الضرائب المفروضة، الأمر الذي أدّى إلى إزدهار التجارة إزدهاراً كبيراً، وأمّا المواد التي كان الأفريقيّون يتاجرون بها، فهي: محصولات القُطر ومصنوعاته، ثم واردات البلاد المجاورة كطرابلس، والسودان، ومنه يُجلب الرقيق والعاج والتبر[5]، هذا بالإضافة إلى التجارة الداخليّة التي ازدهرت ما بين مدن القُطر، فكانت البضائع تُحمَل من مدن القُطر إلى القيروان حتى صارت قطميراً لخيرات البلاد الأفريقيّة، وسوقاً كبيراً لنتاجها الصناعيّ والزراعيّ، الأمر الذي دفع بالإدريسيّ إلى أن يصفها بأنّها أمُّ أمصار، فيقول:

---

(1) البساط، ص: ٣٥.

(2) المغرب، ص: ٤٠.

(3) المعجب، ص: ٤٣٢.

(4) وفيات الأعيان، ١١٩/٧.

(5) أنظر: البساط، ص: ٣٧.

((أمُّ أمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قُطراً، وأكثرها بَشَراً، وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناءً، وأنفسها هِمَماً، وأربحها تجارةً، وأكثرها جِباية، وأنفقها سلعةً، وأنماها ربحاً.))[1]. كما ازدهرت الزراعة في هذا القُطر إزدهاراً كبيراً والذي ساعد على ذلك: خِصب الأرض، وجودة التربة واعتدال الطقس حتى أنّ بعض الأراضي كانت تنبت في بعض الأحيان مائة ضعف مما يبذر فيها، قال البكريّ: ((... ومدينة القيروان في بساط من الأرض مديد، وسائر جوانبها أرضون طيبةً كريمةً، وأحسنها الجانب الغربيّ وهو المعروف بفحص الدرّارة، يصاب فيها في السنة الخِصبة للحبة مائة ضعف، وهواء هذا الجانب طيب.))[2].

ولقد حَفِظت لنا كتب الجغرافية الكثير من أسماء النباتات والأشجار والثِمار التي جادت بها أرض المغرب[3].

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا الخِصب، وهذا الثراء الواسع، كان سبباً من أهم أسباب الغِنى وكثرة الأموال، فازداد الترف والبذخ واللهو في هذا القُطر، فكان للأمراء والحكّام من ثروة البلاد أوفر نصيب، وللرعية ما فاض من قصورهم، ورُغم هذا فقد حدّثنا المؤرخون عن تلك المجاعات التي كانت تطل برأسها بين الحين والآخر[4]، وعلى الرُغم من ذلك فإنّ الغالب على أيّام هذه الدولة أنّها كانت تنعم بالرخاء، وبكثرة الأموال، ولقد حدثنا المؤرخون عن تلك الولائم والهِبات والهدايا، وعن توابيت الأمراء التي كانت تُتّخذ من العودِ الهنديّ، وتسمّر بمسامير الذهب[5].

وأمّا الفقهاء فقد احتلوا مكانةً مرموقة في عهد المعزّ بن باديس لما كان لهم من تأثير في العامّة، فكانت لهم الكلمة المسموعة والرأي المتبع[6]، ولقد تعلقت العامّة بهم تعلقاً كبيراً، فكانت تأتمر بأُمرتهم، وتفعل ما يريدون، الأمر الذي دفع بالمعزّ إلى مسايرتهم ومصانعتهم من ناحية،

---

(1) صفة المغرب، ص: ١١٠.

(2) المغرب، ص: ٢٣.

(3) أنظر: المصدر نفسه، ص: ١٧-٣٩، وصفة المغرب، ص: ١٠٤-١١٥، والمعجب، ص: ٤٣٤.

(4) أنظر: الكامل في التاريخ، ٣٢٩/٩، والبيان المغرب، ٢٧٥/١، وغيرهما.

(5) أنظر: البيان المغرب، ٢٧٠/١، والمؤنس، ص: ٨٣، وتاريخ ابن خلدون، ٣٢٥/٦، وإتحاف أهل الزمان، ١٣٨/١، وغيرهم.

(6) أنظر: المعالم، ١٥٤/٣.

وإلى الإذعان لرأي جمهورهم من ناحية أخرى، على الرُغم من عدم إقتناعه بما يريدون، وخير شاهد نسوقه على ما ذهبنا إليه هو موقف المعزّ من أبي إسحاق المعافريّ[1]، أحد فقهاء السنّة المعتدلين الذي أستُفتيَ بقضية طلاق ومراجعة، وكان على صواب، فخالفه جمهور الفقهاء، فانضمّ المعزّ إليهم، رُغم اقتناعه بصواب رأي أبي إسحاق، قال عياض: ((ولا امتراء عند كل مُنصِف أنّ الحق فيما قاله أبو إسحاق.))[2].

هذا ومن يقرأ موقف أبي عمران الفاسيّ من ابن عطاء اليهوديّ طبيب المعزّ الخاص الذي أُرسِل من قِبَل المعزّ ليستفتي الشيخ في مسألة[3]، يستطيع أن يتبيّن مدى تأثير الفقهاء في ذلك العصر، وقوة شخصيتهم، حتى إنّ المعزّ بن باديس عندما عَزَم على قطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب، اجتمع بالفقهاء، فقهاء المالكية وشاورهم بالأمر[4].

وأما المرأة في هذا العصر فلم يكن يتاح لها أن تختلط بالرجال، في الوقت الذي كانت به المرأة في الأندلس، تختلط بهم، وتجالسهم في مجالس اللهو والطرب، والغناء، والخمر، وفي مجالس العلم والأدب[5]، بل أن الحجاب كان مفروضاً على المرأة في ذلك العصر بالقيروان[6]، وعلى الرُغم من ذلك فقد حدثتنا المصادر عن مشاركة بعض النسوة من الأميرات في تدبير شؤون الدولة، وتصريف الأمور فيها[7].

وثمّة ظاهرة أخرى ينبغي لنا أنْ نشير إليها وهي أنّ المجالس الأدبية، ومجالس اللهو والطرب قد انتشرت إنتشاراً واسعاً في ذلك العصر، حتى أنّ المعزّ بن باديس نفسه كان يحضر هذه المجالس، ويطلب إلى شاعريّ حضرته أنْ يقولا شعراً في وصف نوع من الفاكهة أو نوع

---

(1) وهو: ابو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافريّ التونسيّ، ٤٤٣هـ، كان فقيهاً صالحاً موصوفاً بالفهم، مقدّماً في أجوبته، تفقّه على أبي عمران الفاسيّ، أنظر: المعالم، ١٧٧/٣، وترتيب المدارك، ٧٦٦/٤.

(2) المعالم، ١٧٩/٣.

(3) أنظر: المصدر نفسه، ١٦١/٣.

(4) المصدر نفسه، ١٦٧/٣.

(5) أنظر: الأدب الأندلسيّ، ص: ٤٦.

(6) أنظر: البساط، ص: ٤٣.

(7) أنظر: البيان المغرب، ٢٧٢/١، والمؤنس، ص: ٨١.

من الأطعمة، أو في وصف الشَعر الرقيق الذي ينبت على سيقان بعض النساء، والطريف في الأمر أنّ المعزّ كان يحدد الموضوع والقافية على ما ذكره ابن ظافر[1].

كما انتشرت ظاهرة الغَزَل بالغلمان في هذا العصر، فكان الشعراء يتغزّلون بهم وكأن الواحد منهم فتاةٌ جميلةٌ، يبث إليها الشاعر لواعج نفسه، ويعبّر عمّا يدور في نفسه من تعلق وهُيام، ومن يتصفّح ديوان ابن رشيق، وما وصل إلينا من شعر ابن شرف يستطيع أنْ يلمح هذه الظاهرة بوضوح.

ومهما يكن من أمر، فإن الحياة الإجتماعيّة والإقتصاديّة والثقافيّة ظلت مزدهرة في القيروان إلى أنْ داهمها الأعراب، فتغيّر الحال، واضطربت الأمور، فساءت الأحوال الإجتماعيّة والإقتصاديّة، وغيرهما من مرافق الحياة، فتفرق الناس، وتشتتوا في كل مكان[2]، بسبب الغزو الهلاليّ الذي عمل على تغيير معالم الحياة في هذا القُطر لا سيّما القيروان التي تحوّلت إلى ديار موحشة لا ساكن فيها[3]، فتغلغلت الفوضى في حياة الناس، واضطربت شؤونهم. فانعكس ذلك في أدبهم وشِعرهم، وعبّروا عن هذه الحياة المضطربة القلِقة تعبيراً صادقاً، وأكثروا من شكوى الزمان وتقلبه، وسوف نرى أصداء هذه النكبة في شعر شاعرنا الذي كان مِمّن خرجوا رُغماً عنهم من وطنهم مقهورين، فعبّر عن هذه النكبة تعبيراً صادقاً، وأكثر من ذمّ الزمان وتغيّره كغيره من شعراء القيروان الذين لذعتهم النكبة مثل ابن رشيق، والحصريّ، وغيرهما.

---

(1) أنظر: البدائع، ص: ٢٤٠-٢٤١.

(2) أنظر: المعجب، ص: ٤٤١.

(3) أنظر: البيان المغرب، ١/٢٩١، المعجب، ص: ٢٩٣.

البيئة الأدبيّة والفكريّة

ازدهرت الحياة الأدبيّة والفكريّة في هذا العصر إزدهاراً كبيراً، وقد ساعد على ازدهارها عوامل متعدّدة كان أهمّها: أنّ المعزّ ابن باديس الذي تولى الحكم في مطلع القرن الخامس الهجريّ بالقيروان، كان محباً للعلم والأدب، مُكرِماً للأدباء والشُعراء، فقرّبهم منه، وأغدق عليهم الأموال الهائلة، فنفّق هؤلاء لديه سوق الأدب حتى أصبح بلاطه محطاً لبني الآمال، ومنتدى للأدباء والشعراء، فاجتمع ببابه ما يزيد على مائة شاعر بليغ، قال ابن خلكان: ((... وكان مَلِكاً جليلاً عالي الهمّة محبّاً لأهل العلم، كثير العطاء، وكان واسطة عقد بيته، ومَدَحه الشعراء، وأنتجعه الأدباء، وكانت حضرته محطّ بني الآمال.))[1].

ومن هذه الرواية يتضح لنا أنّ ديوان المعزّ بن باديس كان من أزهى وأحفل الدوائر الملوكيّة في ذلك العصر، ولقد فاق بلاطه بلا ريب بلاط ملوك الطوائف المعاصرين له في الأندلس، حيث اجتمع ببابه من أفاضل الشعراء والأدباء ما لم يجتمع إلاّ بباب الصاحب بن

---

[1] وفيات الأعيان، ٢٣٣/٥، والكامل في التاريخ، ١٥/١٠-١٦، والبيان المغرب، ٢٩٧/١، ومرآة الجنان، ٧٥/٣، والحلل السُندسيّة، ق٤ج٩٤٠/١، وغيرهم.

عبّاد[1]. ومن اشهر هؤلاء الشعراء: ابن ابـي الرجّـال الشيبانيّ، وابـن رشيق[2]، والحصـريّ[3]، وابن شرف، وأبو الفضل الدّارميّ[4]، وابن الخازن[5]، وابن الاسفنجيّ[6]، وغيرهم.

يضاف إلى ما تقدّم أنّ المعزّ بن باديس، كان أديباً بارعاً، ينظُم الشعر، ويتذوّقه، هـذا إلـى جانب رعايته لأهل الأدب وعنايتـه بهم، قـال ابن خلكـان: ((... والمعزّ كـان أكـرم أهل بيته بالمال، وكان ديّناً يتجنب سفك الدماء إلاّ في حقّ، وكـان رقيـق القلـب، حديـد الذهـن، عارفـاً بعدة صنائع من الألحان والتوقيعات، وعلم الأحجـار، ولـه شـعرُ جيـد.))[7]. والأمثلـة علـى تـذوّق المعزّ للشّعر ونقده له كثيرة منها ما أخذه على ابن رشيق يوم أنشَده:

تَثبَّت لا يُخامِرِكَ اضطِرابُ   فقد خَضَعَتْ لعزَّتِكَ الرّقابُ[8]

وقد أخذ عليه قوله: ((تثبّت)) وأمر بتمزيق القصيدة وحرقها[9].

---

[1] أنظر: البساط، ص: ٨٢، وابن رشيق، ص: ٧، وظهر الإسلام، ١/٣٠٤، وغيرهم.

[2] وهو: أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ، أحد الأفاضل البُلغاء، صـاحب كتـاب "العمـدة فـي صناعـة الشعر ونقده" و "أنموذج الزمان في شعراء القيروان" و "الرسائل الفائقة" و "النظـم الجيّدة" – ٤٥٦هـ. أنظر: وفيات الأعيان، ٢/٨٥، ومعجم الأدبـاء، ٨/١١٠، وشـذرات الذهـب، ٣/٢٩٧، وإنبـاء الـرواة، ١/٢٩٨، وبغية الوعاة، ١/٥٠٤، وغيرهم.

[3] وهـو: أبـو إسـحاق إبراهيـم بـن علـيّ بـن تميـم الأنصـاريّ الحصـريّ –٤١٣هـ، أديـب نـاقد مـن أهـل القيروان، صاحب كتاب: "زهر الآداب وثمر الألباب" و "نور الطرْف ونور الظرْف"، و "المصون فـي الهوى المكنون" و "جُمَع الجواهر في المُلَح والنوادر"، له شعرٌ جيد فيه رقـة، أنظـر: وفيـات الأعيـان، ١/٥٤، ومعجم الأدباء، ٢/٩٤، والأعلام، ١/٤٤، والمنتخب، ص: ٦٠، وغيرهم.

[4] وهو: أبو الفضل محمّد بن عبدالواحد بن عبدالعزيز بن الحـارث بـن أسـد بـن سـليمان بـن الأسـود بـن سليمان التميميّ البغداديّ. أنظر: جذوة المقتبس، ص: ٧٣، والذخيرة، ق٤م١/٨٧، وغيرهما.

[5] وهو: إسماعيل بن إبراهيم بن الخـازن، شـاعرٌ حـاذقٌ كـابن رشيق وابـن شـرف، أنظـر: ترجمتـه فـي مسالك الأبصار، ق١ج١١/٣٦٣.

[6] وهو: إسماعيل بن محمّد اللخميّ، ابو إبراهيم، ناقد في ديـوان الإنشـاء، مشـهور بعمـل الشـعر، أنظـر: ترجمته في مسالك الأبصار، ق١/١١/٣٧٣.

[7] وفيات الأعيان، ٥/٢٣٤، والمؤنس، ص: ٨٣، ومرآة الجنان، ٣/٧٥، وغيرهم.

[8] الذخيرة ق٤م٢/٥٩٨، وديوان ابن رشيق، ص: ٢٤.

[9] أنظر: الذخيرة ق٤م١/٥٩٨، والمكتبة الصقليّة، ص: ٩٤٩، والبساط، ص: ٩١.

وقد كان لموقع البلاد المغربيّة بين مشرق الدولة الاسلاميّة ومغربها أثر واضح في نهضة العلوم والآداب فيها. إذ كانت بمثابة جسر تمر عليه حضارة المشرق إلى الأندلس، وحضارة الأندلس إلى المشرق، فالداخلون إلى المشرق من الأندلس، والعائدون من المشرق إلى الأندلس، كانوا يمرون به، وقد كان للأدب في المشرق والأندلس سوق نافقة، فتجاوبت أصداء هذه الثقافات المختلفة، وهذه النهضة في بلاد المغرب، فكانت بذلك حركة علميّة لا تقلّ عن مثيلتها في المشرق والأندلس، كما حدث إمتزاج حضاريّ وثقافيّ فيما بين المغرب والأندلس من ناحية، وبين المغرب والمشرق من ناحية أخرى، وفي هذا يقول القاضي عياض: ((وجدّدت القيروان عصرها في ربط صلتها بالمشرق والمغرب، وخرج طلاب العلم منها إلى المشرق والمغرب معلّمين ومتعلمين، وكثرت الرحلات العلميّة إلى بغداد، والشام، ومكّة، والمدينة من المغرب والأندلس، كما نزح بعض أهل المشرق إلى القيروان والأندلس.))[1].

ومن هذه العوامل ايضاً أنّ القيروان كانت دار العلم بالمغرب، وإليها كانت الرحلة في طلب العلم، فأمّها طلاب العلم من كل حَدبٍ وصوب، يغترفون من معارفها الزاخرة، فوجدوا عند اميرها الإكرام والتشجيع، فتسابقوا في تحصيل المعارف والعلوم، وأبرزوا نتاج أفكارهم، ودوّنوا كتبهم، فكانت بذلك حركة علميّة وأدبيّة مزدهرة إذ أُلّف في أخبار القيروان، وتراجم علمائها كتبٌ كثيرةٌ، قال المراكشيّ: ((... وكانت القيروان هذه في قديم الزمان -منذ الفتح إلى أن خرّبها الأعراب- دار العلم إليها يُنسب أكابر علمائه، وإليها كانت الرحلة في طلب العلم، وقد أَلّف الناس في أخبار القيروان ومناقبه، وذِكر علمائه، ومن كان به من الزهاد والصالحين والفقهاء المتبتلين كُتُباً مشهورة، فلمّا استولى عليها الخراب، وتفرّق أهلها في كل جهة فمنهم من قَصَد بلاد مصر، ومنهم من قَصَد صقليّة والأندلس، وقصدت طائفة عظيمة أقصى المغرب، فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها إلى اليوم.))[2]، فكانت القيروان بذلك مركز إشعاع حضاريّ وثقافيّ إلى أن خرّبها الغزاة.

ويرى بعض الدارسين أنّ ضيق رقعة البلاد واعتزاز المعزّ بالحكم، وزهوه بالاستقلال عن الفاطميين، ورغبته في أن يظهر أمامهم وقد استقل عنهم بمظهر المتفوق السبّاق في شتى مناحي الحياة، قد هيأ فرصة طيبةً وأرضاً خِصبة لحياةٍ أدبية نامية في هذه الفترة في تلك

---

[1] ترتيب المدارك، ١/١٣-١٤، وظهر الاسلام، ١/٣٠٤.

[2] المعجب، ص: ٤٤١.

البلاد[1]، ذلك لأن الانفصال عن مركز الخلافة قد يكون مصدر خير وبركة على الأدب والعلم، فالحاكم أو الوالي الذي يستقلّ عن مركز الخلافة، يجهد في أن ينافس أصلَه الذي انفصل عنه، فيسعى إلى تشجيع الحركة العلميّة والأدبيّة في وطنه ومقرّ حكمه ومُلكِه[2]، ويهيئ الفرصة لذلك، ويفتح ابواب قصره للشعراء والأدباء، والعلماء، ويخصّهم برعايته وكرمه، الأمر الذي هيأ للعلم والعلماء، وللشعر والشعراء وسائل النهوض وأسباب الحياة، فازدهرت العلوم والآداب في هذا القُطر إزدهاراً منقطع النظير.

ثم أن الحضارة قد تقدّمت، ونمت، فازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة، فعادت بالأرباح الطائلة على الدولة، فأُنشئت القصور، وأُقيمت المتنزهات والحدائق، هذا إلى جانب الطبيعة المغربيّة الجميلة التي ازدانت بالحدائق والبساتين[3]، فساعد ذلك العلماء والأدباء وشجّعهم على الإنتاج والإبداع في كل ميدان، وجادت قرائحهم بالأشعار الجميلة والصّور البديعة.

ولقد كانت المجالس الأدبيّة في هذا العصر مظهراً هاماً من مظاهر النشاط الأدبيّ، كما كانت مظهراً بارزاً من مظاهر الحياة الاجتماعيّة، والعقليّة في هذا العصر، يقول اليافعيّ: ((... وأخبار المعزّ بن باديس كثيرة، وسيرته شهيرة، وله شعرٌ قليل، وكان يوماً في مجلسه وعنده جماعة من الأدباء، وبين يديه أُترجة ذات أصابع، فأمرهم أن يصفوها، فقال ابن رشيق شعراً:

أُترجةٌ سبطةُ الأطباقِ ناعمةٌ ... تَلقى العُيونَ بِحُسنٍ غَيرِ منحوس

كأنّما بَسَطَت كفّاً لِخالِقِها ... تَدعو بِطولِ بَقاءٍ لابنِ باديس[4]

فاستحسن المعزّ منه ذلك، وفضّله على من حضر من الجماعة الأدباء.))[5]. ومن هذه الرواية نستطيع أن نلاحظ أنّ الشعر في مثل هذه المجالس كان يُرتَجل إرتجالاً، وأن الشعراء الذين كانوا يشهدونها يتّصفون بسرعة البديهة والخاطر، ولقد حدثنا ابن شرف نفسه عن تلك المجالس الأدبيّة التي كان يعقدها المعزّ بقصره، ويدعو إليها من يُحِب من شعراء حضرته، فيقول: ((... استدعاني المعزّ بن باديس يوماً، واستدعى أبا عليّ الحسن ابن رشيق الأزديّ -وكنا شاعريّ

---

(1) أنظر: ابن رشيق، ص: ٧٥.

(2) أنظر: الفن ومذاهبه في النثر، ص: ٣٢٥.

(3) أنظر: المجمل، ص: ١٠٤.

(4) ديوان ابن رشيق، ص:٩٢، والبساط، ص:٨٩

(5) مرآة الجنان، ٣/٧٥، وفيات الأعيان، ٥/٢٣٤، البساط، ص: ٨٩.

حضرته، وملازمي ديوانه- فقال: أحِبّ أن تصنعا بينَ يديّ قطعتين في صفة المَوزِ على قافية الغَين، فصنعنا حالاً من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر، فكان الذي صنعته:

يا حَبَّذا المَوزُ وإسعادُهُ ... مِنْ قَبلِ أنْ يمضغَهُ الماضِغُ
لانَ إلى أنْ لا مُجَسّ له ... فالفمُ مِلآنٌ به فارِغُ
سيّانَ قُلنا مأكلٌ طَيِّبٌ ... فيه وإلاّ مَشْرَبٌ سائِغُ

والذي صنعه ابن رشيق:

مَوزٌ سَريعٌ أكلُه ... مِن قَبلِ مَضْغِ الماضِغِ
فمَأكَلٌ لآكِلٍ ... ومَشْرَبٌ لِسائِغِ
فالفمُّ من ليِنٍ بِهِ ... مِلآنٌ مِثلَ فارِغِ
يُخالُ وَهوَ بالِغٌ ... لِلْحَلْقِ غَيرَ بالِغِ

قال فأمرنا للوقت أن نصنع على حرف الذال، فعملنا ولم يُرِ أحدنا صاحِبَه ما عمل، فكان الذي عملته:

هَلْ لَكَ في مَوزٍ إذا ... ذُقناه قُلْنا: حَبّذا
فيه شَرابٌ وغِذا ... يُريكَ كَالماءِ القَذى
لو ماتَ مَنْ تَلَذذا ... بِه لَقيلَ ذا بِذا

وما عمله ابن رشيق:

لِلّه مَوزٌ لَذِذٌ ... يُعيذه المُستَعيذُ
فَواكِه وَشَرابٌ ... بِه يُداوى الوَقِيذُ
تَرى القَذى العَين فيه ... كَما يَرِيها النَبِيذُ

قال ابن شرف: فأنت ترى هذا الإتفاق لما كانت القافية واحدة، والقصد واحداً، ولقد قالَ من حضر ذلك اليوم: فما ندري مِمّ نَعْجَب أمِن سُرعة البديهة!؟ أم مِن غرابة القافية!؟ أم مِن حُسن الإتفاق!؟))[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه المجالس كانت تُعقَدُ بِطَلَب من المعزّ بن باديس نَفْسه، خاصّة عندما ينتهي من مشاغل الدولة، وأمور الحكم، فكان يَتَخيّر لهذه المجالس من يُفَضّله من بين

---

[1] البدائع، ص: ٢٤٠-٢٤١، والمطرب، ص: ٧٤، ونهاية الأرب، ١٠٨/١١، والبساط، ص:٨٣.

خاصّته وكُتّابه وشُعرائه، ويطلب إليهم أن يقولوا في الغرض الذي يُريد بعد أن يُحدّد لهم الوزن والقافية التي يريد، وهنا يستطيع الدارس أن يلاحظ أنّ الموضوعات والأغراض التي كانت تُطرح في تلك المجالس، كانت تُفرَض فَرضاً على الأدباء، وربّما كان المعزّ بذلك يَهدفُ إلى امتحان شاعريّة شُعرائه، وإجبارهم على القول في غرضٍ محددٍ، وقافية مُعينة، ومن هنا فَقَد جاء التّعبيرُ عن مِثْلِ هذه الموضوعات من خارج النّفْس لا من داخلها.

ولكنّ الأمر لم يكن ليقتصر على مجالس العلم والأدب، بل كان يتعدى ذلك إلى مجالس اللهو والطرب التي كانت تُعقَدُ في قصور الأمراء، وكبار رجال الدولة بين الفينة والفينة، وقد تغنّى الشُعراء والأدباء في وصف هذه المجالس، قال أبو الفضل البغداديّ: حَضرتُ مجلس المعزّ يوماً وبالمجلس ساقٍ وسيمٌ، قد مسّكَ عِذاره وردُ خديه، وعَجزت الرّاح أن تفعل في النّدمان فِعل عَينيه، فأمر المعزّ بوَصفه، فقلت بديهاً:

ومُعَذّرٍ نَقَشَ الجَمالُ بمِسْكِه ... خَدّاً له بدَمِ القُلوب مُضَرّجا

لَمّا تَيَقّنَ أنّ سَيْفَ جُفونِه ... من نَرجسٍ جَعَلَ النّجادَ بَنَفْسَجا

فوصلني المعزّ بحلةٍ فاخرةٍ.))[1] .

ومن ذلك أيضاً ما حدّثنا به ابن رشيق عن مجلس لهوٍ أقيم، وقد حَضَره عبدالكريم النّهشليّ الذي أتلفَ ثِيابه النّفيسة بالخمرة عندما صفّق للرواقص وهو لا يدري، فيقول: ((... حدّثني من أثِقُ به قال: كنّا في مجلس شَرْبٍ والكأس في يدِ عبدالكريم، فَصَفّقنا والرّواقِص ترقص، فَصَفّق عبدالكريم، فأسقط الكأس في حِجرِه، وعليه ثياب نفيسة فأتلفها، فقلنا لَه: ما هذا؟ فقال: ما عَلِمتُ أنّ الكأس في يدي.))[2].

وقد عمل المعزّ بن باديس على إثارة التّنافس بين الأدباء والشُعراء، وذلك بتفضيله أحدهما على الآخر، فَنَتج عن ذلك تنافسٌ وتسابقٌ بينَ الشُعراء في إختراع المعاني والصور، وتوليد المبتكرات[3]، الأمر الذي أدّى إلى نهوض الأدب وازدهاره، كما أدّى بالتالي إلى قيام حركة فكريّة وأدبية نَشِطة في هذا القُطر.

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٩٥.

(2) مسالك الأبصار، ق١/ج١١/٢٩٢.

(3) أنظر: البساط، ص: ٨٤.

ومن أبرز مظاهر النشاط الأدبيّ في هذا العصر تلك الأعداد الكبيرة من الشعراء والأدباء والكتّاب الذين أنجبهم عصر المعزّ بن باديس وقد دارت أسماؤهم في مُعظم كُتب الأدب من مِثل: الذّخيرة، والخريدة، ومعجم الأدباء، والنفح، والقلائد، وغيرها، والذي يزيد في تصورنا لتلك الأعداد الهائلة من الشُعراء الذين عاشوا في هذه الفترة أن نذكر أن ابن رشيق قرين ابن شرف ومعاصره قد وجد في الشُعراء الذين عاشوا معه وعاصروه دون غيرهم من علماء اللغة والنحو، والفقه والتّفسير والحديث، وغيرهم من أهل العلم والأدب مادةً خِصبةً لكتاب اسماه: "أنموذج الزّمان في شُعراء القيروان"، على ما ذكرته المصادر[1]، غير أنّ هذا الكتاب ما زال مفقوداً، لكنّنا نستطيع أن نَجِد نقولاً متفرقةً منه مبثوثةً في بعض كتب الأدب مِنْ مثل: مسالك الأبصار[2]، وقد تَرجم فيه صاحبه لأكثر من سبعين شاعراً ذكرهم ابن رشيق في أنموذجه هذا.

فإذا أضفنا هذا إلى الرّوايات الأخرى التي ذكرت أكثر من مائة شاعرٍ بليغٍ مثل ابن رشيق وابن شرف، وغيرهما، قد اجتمعوا في بلاط المعزّ بن باديس وعملوا في ديوان المراسلات عنده[3]، استطعنا أن نُقيم دليلاً واضحاً على مدى ازدهار تلك النهضة الأدبيّة والعلميّة التي وُجِدَت في ذلك العصر.

وقد لقيت العناية بالكتب والمكتبات في هذه الفترة اهتماماً خاصاً لدى الأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء، فكانت مظهراً من أهمّ مظاهر النشاط الثقافيّ والأدبيّ في ذلك العصر، فأُنشئت المكتبات العامّة والخاصّة، ويكفينا للتّدليل على هذه الظاهرة أن نذكر أنّ المعزّ بن باديس أمير القيروان قد أهدى أبا بكر السوسيّ[4] أحد علماء القيروان تسعمائة مُجلّد من نفائس المصنّفات، أرسلها إليه عقِبَ مجلس علميّ استحسن فيه المعزّ آراء هذا العالم، من مكتبته الخاصّة، وأرسل معها هذه العبارة: ((... هذه الكتب في خزانتنا ضائعة، وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعاً، وأنت أولى باقتنائها.))[5].

---

(1) وفيات الأعيان، ٢/٨٥، معجم الأدباء، ٨/١١٠، وإنباه الرواة، ١/٢٩٨، والبساط، ص: ٨٤.

(2) مخطوط في مكتبة الجامعة الأردنيّة، برقم "٣٩٥" ميكروفيلم.

(3) أنظر: البساط، ص: ٤٧.

(4) وهو: أبو بكر عتيق السوسيّ من الفقهاء المبرّزين، والحُفّاظ المعدودين بالقيروان، كان حافظاً للفقه والحديث، عالماً بالنّحو واللغة مع دينٍ وورَع. أنظر: المعالم، ٣/١٨١.

(5) المعالم، ٣/١٨١.

كما أهدت جدّة المعزّ إلى المكتبة العامّة التي كانت في البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم بالقيروان مجموعةً من الكتب كان في جملتها مصحفٌ شريفٌ مخطوطٌ بيدها على الرّقّ الرّقيع المزوّق بالذّهب، وقد جعلته في صندوق من الخشب الثمين[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه الرّوايات إنْ دلّت على شيء إنّما تدلّ على عناية المعزّ وحبّه للعلم وتشجيعه للعلماء في دولته.

ونستطيع أن نلاحظ أنّ الشعر في هذا العصر كان يقال في أماكن متعدّدة، فكان يقال في قصور الأمراء، وفي مجالس الأدب، ومجالس اللهو والطرب. كما رأينا، في الحمّامات والدكاكين، قال ابن رشيق: ((... جلست يوماً في دكّان أبي لُقمان الصفّار، وكان يلعب مع الدركادو[2]، بالشطرنج، ونحن نضحك لِما يجري بينهما من غريب المهاترة، فقال الدركادو: أجزِيا أبا لُقْمان:

حيتانُ حُبّكَ في طِنْجيرِ بلوائي.

فقال أبو لُقمان:

وَفَحمُ وَجهِكَ في كانونِ أحشائي.))[3].

وعلى ما يبدو أنّ الشعر في هذا العصر كان يجري على كل لسان، حتى إنّ الولع بقرض الشعر ونظمه قد سرى بين الخاصّة والعامّة فأخذوايكتبون الأبيات الشعريّة على شواهد القبور، ومن ذلك ما كُتبَ على قبر الفقيه أبي جعفر عمر ابن محمّد العطّار[4]، وغيره.

كما نستطيع أن نلاحظ ظهور بعض الخصائص التي برزَت بوضوح في أدب هذه الفترة، فكانت سِمَةً واضحةً من سِمات أدبها ومؤلفاتها الأدبيّة والنقديّة من مثل: الإقتداء بشعراء المشرق في اساليبهم ومعانيهم، ولقد حدّثنا ابن بسّام عن محاولات ابن رشيق وابن شرف التي كانا يقومان بها لمعارضة المتنبي الذي كان مثلاً أعلى لهذين الشاعرين[5]، ولقد أحسّ المغاربة

---

(1) أنظر: البساط، ص: ٦٣.

(2) وهو: عبدالملك بن يحيى التميميّ، أنظر: مسالك الأبصار، ق١ج١١/٣٤١.

(3) البدائع، ٢٢٥، والبساط، ص: ٤١، والميمني، ص: ٢٩، وغيرهم.

(4) أنظر: المعالم، ٣/١٦٥.

(5) أنظر: الذخيرة، ق١م١/٢٤-٢٥.

والأندلسيون بذلك فهذا ابن بسّام يقول: ((... إنّ أهلَ هذا الأفق أبوا إلاّ متابعة أهلِ المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نَعَق بتلك الآفاق غُرابٌ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذبابٌ، لَجَثوا على هذه صنَماً، وتلَوا ذلك كِتاباً مُحكماً.))[1].

ومن هذه الخصائص ايضاً أنّ كثيراً من الأدباء في هذا العصر كانوا يجمعون ما بينَ كِتابة الشِعر وكِتابة النثر، إضافة إلى تذوقهم الأدب، ونقدهم له، ونحن نستطيع أنْ نلاحظ هذه الظاهرة بوضوح فيما وصل إلينا من أدب هذه الفترة ومؤلفاتها، ومن أشهر الذين جمعوا بين نَظمِ الشِعر، وكتابة النثر في هذا العصر، ابن رشيق، وابن شرف، والحصريّ، وابن غانم[2]، وابن الاسفنجيّ، وابن حُدَيْدَة[3]، والطارقيّ[4]، وابن زنجيّ الكاتب[5]، وابن حيّان الكاتب[6]، وغيرهم.

ومنها أنّ الأدباء في هذا العصر قد مالوا إلى استعمال المحسّنات اللفظيّة والبديعيّة، غير أنهم فُتِنوا بالسجع فأكثروا منْه في مؤلفاتهم التي جاءت زاخرة بهذا النوع من الزخرفة اللّفظيّة، ومن يقرأ العمدة لابن رشيق، وزهر الآداب للحصريّ، ورسائل الإنتقاد لابن شرف، يستطيع أن يرى هذه الظاهرة بوضوح.

ومن أبرز مظاهر النّشاط الفكريّ في القيروان في هذه الفترة شيوع الرحلة في طلب العلم حيثُ انطلق أبناء القيروان إلى المشرق والأندلس، لِينهلوا من علِميهما، وقد كانت هذه الرحلة على نوعين: داخليّة، وخارجيّة، أمّا الداخليّة فقد كانت إلى المراكز العلميّة المنتشرة في أنحاء البلاد وخاصّة إلى القيروان[7]، والمهديّة، وأمّا الرحلة الخارجيّة فغالباً ما تكون إلى المشرق والأندلس، وقد أورد لنا الدبّاغ أسماء كثيرين ممّن رحلوا إلى المشرق والأندلس مِن أبناء

---

(1) الذخيرة، ق١م١/٢.

(2) وهو: ابراهيم بن غانم بن عبدون، كاتبٌ، شاعرٌ. أنظر: المسالك، ق١ج١١/٣٣٨.

(3) وهو: أحمد بن القاسم بن أبي اللّيث اللّخميّ، المعروف بابي العبّاس، كان كاتباً في ديوان الرسائل، وكان فكّه منصرفاً عن المَدح، وعن الهجاء. المصدر نفسه، ٣٤٣-٣٤٥.

(4) وهو: عبدالعزيز بن محمّد القُرشيّ الطارقيّ، اشتهر بالنثر، وكان فيه فارس الفرسان، وواحد الزمان. المصدر نفسه، ص: ٣١٢.

(5) أنظر: ترجمته في المصدر نفسه، ٣١٨-٣١٩.

(6) أنظر: ترجمته في المسالك، ص: ٣٣١.

(7) أنظر: المعجب، ص: ٤٤١.

القيروان، طلباً للعلم[1]، وبذلك فقد استمر الاتصال الثقافيّ والفكريّ ما بين المغرب والمشرق، وما بين المغرب والأندلس، فساعد ذلك على الامتزاج الثقافيّ بين هذه الأنحاء.

وشَهِدَت العلومُ على اختلاف موضوعاتها وميادينها نهضةً واسعةً، وازدهاراً كبيراً في هذا العصر، لكننا لا نستطيع أن ندّعي أنّها كانت وليدة عصرٍ واحدٍ، بل كانت وليدة العصور المتتالية والحضارات المختلفةِ التي التقت في هذا القُطر، وتعاقبت عليه على مر العصور، لكنّها اكتملَت، ونَضَجت في عهد المعزّ، وأتت أكلها.

فمن العلوم التي ازدهرت في هذا القُطر، ولقيت إهتماماً كبيراً من العلماء والحكام في هذه الفترة: العلوم النقليّة من فقهٍ وحديثٍ وتفسيرٍ وقراءات، والعلوم اللغويّة من نحوٍ ولُغةٍ وبلاغةٍ وعروضٍ، وعلوم الأدب: من شِعرٍ ونثرٍ ونقدٍ، وعلوم العقل من طبٍ وحِسابٍ وهَندَسةٍ وتاريخ، وما إلى ذلك، ومن الطبيعيّ والحالة هذه أن يَكثُرَ التأليف ويزدهر في دولة بلغ فيها النشاط الفكريّ مدى بعيداً، لذلك فقد كَثُرت المصنّفات التي تَبحَثُ في مختلف العلوم والفنون، ونَبَغ في هذه الدولة علماء أفذاذٌ، ثقّفوا أنفسهم بِثقافات واسعةٍ ومتنوعة، فدَوّت شهرتهم في الآفاق، وبرعوا في ميادين تخصصهم، ودارت آراؤهم وأفكارهم في معظم كُتب الأدب والنّقد والفقه، ففي ميدان الشريعة والفقه نَبَغ عددٌ من الفقهاء والعلماء كان من اشهرهم: ابن القابسيّ[2]، صاحب الممهد، بلغ فيه ستين جزءاً، ومات ولم يكمله[3]، الفاسيّ[4]، اللبيديّ[5]، السيوريّ[6]، الخولانيّ[7]، والمعافريّ[8]، والبلويّ[9]،

---

[1] أنظر: المعالم، ١٣٢/٣، ١٣٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، وغيرها.

[2] وهو: عليّ بن محمّد بن خلف المعافريّ، المعروف بابن القابسيّ -٤٠٣هـ، سَمِع من أبي العبّاس الأبياني، وأبي محمّد التجيبيّ، وأبي عبدالله العسّال، وغيرهم، وله تواليف منها: "الممهد في الفقه" و "المُنقِذ من شبه التأويل"، و"الملخص" و "المعلمين والمتعلمين"، وغيرها. أنظر: المعالم، ١٣٤/٣-١٤٣، وترتيب المدارك، ٦١٦/٣، ووفيات الأعيان، ٣٠٢/٣، وشجرة النُور، ص: ١٠٥.

[3] أنظر: المعالم، ١٣٥/٣.

[4] وهو: موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجوميّ الفاسيّ -٤٣٠هـ، تفقّه على أبي الحسن القابسيّ، وعلى عليّ بن أحمد السوسيّ، رحل إلى قرطبة ثمّ إلى المشرق، وكان فقيهاً عالماً بفنون العلم ومنها: القرآن وعلومه، والحديث وعلله، والفقه البارع، استوطن القيروان، وحصلت له به رئاسة العلم. أنظر: ترتيب المدارك، ٧٠٢/٣، والمعالم، ١٥٩/٣، والصلة، ٦١١/٢.

وغيرهم. ويكفينا للتدليل على إزدهار علوم الشريعة والفقه في هذا القُطر أن نذكر أن الدبّاغ قد ترجم لأكثر من خمسين فقيهاً مالكياً عاشوا في هذه الفترة بالقيروان في عهد المعز بن باديس[1].

وفي علم الحديث والتّفسير والقراءات نَبَغ كلٌ من: الغافقيّ[2]، وابن سفيان[3]، والقَصْريّ[4]، وابن مُحرِز[5] ، وابن حمدون[6]، وابن أبي زيد[7] ، وغيرهم.

---

[5] وهو: عبدالرحمن بن محمّد المصريّ، المعروف باللبيديّ -٤٤٠هـ، كان فقيهاً فاضلاً، محبّاً للصالحين، سَمِع على أبي الحسن القابسيّ، وابن أبي زيد، وغيرهما. كان يُنشِد الشعر ويُحسِن القول فيه. أنظر: ترتيب المدارك، ٤/٧٧٣، والمعالم، ٣/١٧٥، وشجرة النّور، ص: ١٠٩، وغيرهم.

[6] وهو: عبدالخالق بن عبدالوارث التميميّ، المعروف بالسيّوريّ -٤٦٢هـ، سَمِع من أبي عمران الفاسيّ، وكانت له عناية بالحديث والقراءات، وقرأ النحو والكلام واصول الدين والفقه لكنّ الغالب عليه الفقه. أنظر: ترتيب المدارك، ٤/٧٧٠، والمعالم، ٣/١٨١، وغيرهما.

[7] وهو: أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخَولانيّ -٤٣٢هـ، لَزِم ابا الحسن القابسيّ وانقطع إليه، رَحَل إلى المشرق، وكان أحد الفقهاء المبرزين، والحُفّاظ المعدودين. أنظر: المعالم، ٣/١٦٥.

[8] وهو: إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافريّ التونسيّ -٤٤٣هـ، صاحب كتاب التعليقة، وهو من طلبة أبي بكر بن عبدالرحمن، كان فقيهاً صالحاً، رثاه ابن رشيق يومَ وفاتِه ومشى المعزّ في جنازته. أنظر: المعالم، ٣/١٧٧.

[9] وهو: أبو الطيب عبدالمنعم بن خلدون البلويّ الفقيه المفتي -٤٢١هـ، كانت له عناية بالفقه والدين، اشتهرت إمامته بالقيروان، وانتشر فضله وعنايته بالعلم، وأقواله معتبرة في مذهب مالك، وهو أحد أشياخ القيروان الفقهاء. أنظر: المعالم، ٣/١٥٨.

[1] أنظر: المعالم، ص: ١٣٢-١٩٧.

[2] وهو: أبو القاسم عبدالرحمن الغافقيّ -٤٠٧هـ، كان فقيهاً عالماً بالقراءات، أخذ ذلك عن أبي بكر الهواريّ، وأبي بكر بن الصوّاف، وسَمِع الحديث، وأخذ المدوّنة، وكان مشهوراً بالدين والورع والفضل. أنظر: المعالم، ٣/١٥١.

[3] وهو: أبو عبدالله محمّد بن سفيان المقّريّ -٤٠٨هـ، كان أوحد زمانه في القراءات، وألّف في ذلك كتابه "الهادي"، أخذ القراءات على أبي الطيّب المقريّ، وتفقّه على أبي الحسن القابسيّ، وأخذ عنه القراءات كثير من الناس، وكان حَسَنَ الصوت بالقرآن. أنظر: المعالم، ٣/١٥٦.

[4] وهو: أبو بكر محمّد بن عبدالله القصريّ -٤٣٦هـ، كان من أهل العلم والقرآن، وأتباع السنّة، وخدمة الصالحين، صَحِبَ الشيخ ابا الحسن القابسيّ. أنظر: المعالم، ٣/١٧١.

وفي ميدان اللغة والنحو برع عدد من العلماء في هذا العصر، عُرِفوا بهذا العلم واشتهروا به، وقد كان من أشهرهم: محمّد بن جعفر القزاز[1]، وعبدالله بن مسلم[2]، وعبدالرزاق القيروانيّ[3]، وعليّ بن عبدالجبّار الهُذليّ[4]، وإسماعيل بن إبراهيم الزُّويليّ[5]، وعبدالعزيز بن سهل الخُشَنيّ[6]، والتبان[7]، والقيسيّ[8]، والسوسيّ[9]، وابن رشيق وغيرهم.

=[5] وهو: ابو القاسم بن مُحرِز، كان معلوماً بالفقه والفهم والعناية بالحديث ورجاله، رحل إلى الشرق ولَقِي المشايخ الجلة، وأخذ عنهم الحديث. أنظر: المعالم، ٣/١٨٥.

=[6] وهو: أبو عليّ حسن بن حسن بن حمدون الجلوليّ المقريّ، كان من العلماء المعدودين عالماً بوجوه القراءات عن ابي عبدالله بن سُفيان، وكان إماماً فيها، وانتفع به خلقٌ كثيرٌ. أنظر: المعالم، ٣/١٨٦.

=[7] وهو: أبو حفص عمر بن الشيخ أبي محمّد ابن أبي زيد -٤٦-هـ، كان فقيهاً فاضلاً، سَمِع على أبي عبدالله محمّد بن العبّاس الأنصاريّ، له إعتناء بالعلم، وكان الغالب عليه حفظ الحديث، وكان كثير الكتب كلها بخطه، حافظاً لمذهب مالك وأصحابه. أنظر: المعالم، ٣/١٩٠.

[1] وهو: محمّد بن جعفر القزاز القيروانيّ، أبو عبدالله التميميّ النحويّ -٤١٢هـ، شيخُ اللغة بالمغرب، صنّف: "الجامع في اللغة" و "ضرائر الشعر" و "إعراب الدريديّة" و "الضاد والطاء" و "العشرات في اللغة" و "ما أخذ على المتنبيّ" و "التعريض والتصريح" و "أدب السلطان"، وغير ذلك. أنظر: المسالك، ق١ج١١/٣٧٦، وإنباه الرواة، ٣/٨٤، والبُغْية، ١/٧١.

[2] وهو: عبدالله بن مسلم القيروانيّ النحويّ، كانت له معرفة بالنحو واللغة، نُدِب إلى درسها بدار الكتب بمدرسة النظاميّة ببغداد، واستفاد منه قومٌ. أنظر: معجم الأدباء، ١٤/٨، وإنباه الرواة، ٢/١٤٧، والبُغية، ٢/٦٤.

[3] وهو: عبدالرزاق بن عليّ القيروانيّ النحويّ، شاعر مشهور، قادرٌ على طلب الطباق والتّجنيس طلباً شديداً بالتّصريف، وتبديل الحروف ويستعمل القوافي العويصة. أنظر: إنباه الرواة، ٢/١٧٤، والبُغية، ٢/٩٥، وغيرهما.

[4] وهو: عليّ بن عبدالجبّار سلامة بن عيذون الهُذليّ اللغويّ المعروف بأبي الحسن التونسيّ المغربيّ خرج إلى صقليّة وبها لَقِي ابن رشيق. أنظر: إنباه الرواة، ٢/٢٩٢، والبُغية، ٢/١٧٣.

[5] وهو: إسماعيل بن إبراهيم القيروانيّ اللغويّ الزُّوَيليّ، تقدّم في علم الغريب وطلبه، وبحث عن الشذوذ بحثاً شديداً، وإلى أمّلت كُتُبه ترجع جميع النّسخ وبها تُقابل وعليها، وطريقته في الشعر طريقة العلماء. أنظر: إنباه الرواة، ١/١٩٢.

[6] وهو: عبدالعزيز بن أبي سهل الخُشَنيّ النّحويّ اللغويّ القيروانيّ الضّرير، قال في حقّه ابن رشيق في الأنموذج: "كان مشهوراً باللغة والنّحو جدّاً، مفتقراً إليه فيهما، بصيراً بغيرهما من العلوم". أنظر: المسالك، ق١ج١١/٣١١، وإنباه الرواة، ٢/١٧٨، والبُغية، ٢/١٠٠، وظهر الاسلام، ١/٣٠٥.

[7] وهو: ابو محمّد عبدون بن الشيخ أبي محمّد التبان، كان من أهل العلم والرقّة والأدب. أنظر: المعالم، ٣/١٣٣.

ولكنّ الأمر لم يكن يقتصر على علوم اللغة والنّحو بل تعدّى ذلك إلى جوانب الأدب الأخرى كالنثر والنقد، وغيرهما، فقد برع في هذين الفنّين علماء متخصصون طبقت شهرتهم الآفاق وتردّدت آراؤهم النقدية في كتب النقد والأدب حتى يومنا هذا، ومن أشهر هؤلاء: عبدالكريم النهشلي، صاحب كتاب "الممتع"[1]، وابن رشيق، صاحب العمدة وقراضة الذهب، وابن شرف صاحب رسائل الإنتقاد، وغيرهم.

وأمّا في علم المناظرة والكلام، فقد بَرَع أبو القاسم بن محرز، حتى قال فيه ابن علاّق المصري: ((... ما رأيت من أهل المغرب من يُحسن طريق المناظرة مثل أبي القاسم بن محرز، وكان أبو الطاهر البسكريّ يفضّله على جميع من بالقيروان في طريق المناظرة والكلام على مسائل الخلاف.))[2]، كما برع في علم الطب ابن عطاء اليهوديّ، طبيب المعزّ الخاص[3].

وأمّا في علوم الحساب والهندسة، فقد نبغ الفقيه عبدالمنعم الكنديّ[4]، كما عني بعلم التاريخ والسّير والأخبار عددٌ من العلماء نجد منهم، ابا العرب بن تميم[5]، وعبدالرحمن بن رشيق[6]، وإبراهيم الرّقيق[7]، وغيرهم.

=[8] محمّد بن مختار القيسيّ اللغويّ النحويّ -٤٣٧هـ، له كتاب: "الهداية في التفسير" و "إعراب القرآن"، كان مقرئاً أديباً. أنظر: المعالم، ١٨١/٣.

=[9] وهو: أبو بكر عتيق السوسيّ، كان عالماً باللغة والنّحو. أنظر: المعالم، ١٣٣/٣.

[1] أنظر: المسالك، ق١ج٢٩٢/١١، والعمدة، ٩٣/١، والمنتخب، ص: ٥٤، والمجمل، ١١١.

[2] المعالم، ١٨٥/٣.

[3] المصدر نفسه، ١٦١/٣.

[4] وهو: أبو الطيب عبدالمنعم بن محمّد الكنديّ -٤٣٥هـ، كان فقيهاً عالماً بفنون من العلم منها: الفقه، والحديث، والنّحو، واللغة، والغريب، وعلم الكلام، والهندسة، قرأ القرآن على أبي عبدالله بن ابي سفيان، والفقه على ابي بكر بن عبدالرحمن، وكان عالماً باختلاف النّاس، وله تواليف عدّة في فنون العلم إلاّ أنّه مات ولم يهذّبها. أنظر: المعالم، ١٨٤/٣.

[5] وهو: محمّد بن تميم بن أبي العرب التميميّ الفقيه -٤١٧هـ، كان من أهل العلم والفضل والثقة، واسع الرّواية عارفاً بالتاريخ، صحيح النقل، كثير التّحرّي معروفاً بالصدق، يروي عن أبيه وغيره، رَحل إلى المشرق، ولَقي العلماء بمصر، والشام، والحجاز، ودخل الأندلس ثمّ عاد إلى القيروان. أنظر: المعالم، ١٥٨/٣.

[6] وهو: أبو القاسم عبدالرحمن بن محمّد بن رشيق الحافظ المؤرّخ، كان عالماً بالتاريخ، حافظاً للحديث وعلله، عارفاً بأسماء رجاله وثقاته، وله مشاركة في سائر العلوم، وتقدّم في معرفة الآثار والسّير =

ونحن إذا نظرنا في تراجم العلماء الذين عاشوا في هذه الفترة فإننا نجد أن الواحد منهم لم يكن يكتفي بتحصيل علم واحد ينقطع لـه دون غـيره من العلوم، بل كان يحـاول أن يثقّف نفسه بثقافات واسـعة مختلفة، ليكون على اتصال وثيـق بثقافة عصره، وبمعارفه الواسعة المتنوعة، فكان منهم من جَمَع علم الفقه إلى علم اللغة والنّحو والحديث كأبي بكـر السوسيّ[1] ، ومنهم من جَمَع علم الفقـه إلـى علم الحديث، إلـى علم اللغة والنّحو والغريب إلـى علم الكلام والحساب والهندسة كأبي الطيب عبدالمنعم الكنديّ[2] ، ومنهم من جمع الفقه إلى الحديث إلى الأدب إلى علم التاريخ والسِّير كأبي القاسم عبدالرحمن بن رشيق[3] ، وإبراهيم الرّقيق، وغيرهما، وقلّما وجدنا عالماً من علماء هذه الفترة قد شذّ عن هذه الظاهرة.

وقد ازدهرت حركة التأليف في هذا العصر أيّما ازدهار، وتسابق العلماء والأدباء في تدوين أفكارهم ومعارفهم المختلفة التي ألمّوا بها، فألّفت كتبٌ كثيرةٌ في هذه الفترة، غير أنّ يدَ الزمن قد امتدّت إلى بعضها فاختطفته، وأذِنت للبعض الآخر بالوصول إلينا، ولعلّ خير دليل نتّخذه للتدليل على ما ذهبنا إليه هو وصول بعض مؤلفات ابن رشيق وابن شرف، والحصريّ وضياع بعضها الآخر.

ويمكننا أن نردّ هذا إلى النّكبة الكبرى التي أُصيبت بها القيروان على يد الأعراب الذين أتوا على حضارتها الزاهرة، وعَملوا على تغيير معالمها وطمسها، ففوّتوا علينا بذلك فرصة الاتصال بنتاج ذلك العصر الثقافيّ، وحرمونا من التّعرف إليه بصورة كاملة.

والأخبار، حافظاً للقرآن، وله تواليف في الفقه منها: "المستوعب بالزيارات" و "مسائل المبسوط مما ليس في المدونة" وهو كثير المشايخ. أنظر: المعالم، ٣/١٨٦.

=[7] وهو: إبراهيم بن القاسم المعروف بالرّقيق، أصله من القيروان، له تصانيف كثيرة منها: "تاريخ أفريقيّة والقيروان" و "كتاب النساء" و "الرّوْح والإرتياح" و "كتاب: الأغاني"، وغيرهما. قال في حقّه ابن رشيق في الأنموذج: "شاعر، سهل الكلام، لطيفُ الطبع، غلب عليه رسم الكتابة، وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أحذق الناس.". أنظر: وفيات الأعيان، ١/٤١، ومعجم الأدباء، ١/٢١٦، والمجمل، ص: ١٢١، وغيرهم.

[1] أنظر: معالم الإيمان، ٣/١٨١.

[2] المصدر نفسه، ٣/١٨٤.

[3] المصدر نفسه، ٣/١٨٦.

وبعد فهذه هي أهمّ ملامح البيئة السياسيّة، والإجتماعيّة، والثقافيّة التي عاش فيها أديبنا، وتفاعل معها، فأثّرت فيه وتأثّر بها، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً في شِعرِه ونَثرِه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

حياته وثقافته

أولاً: اسمه ونسبه.

ثانياً: مولده ونشأته الأولى.

ثالثاً: شيوخه وتلاميذه.

رابعاً: تكوينه الثقافي.

خامساً: مصنفاته وآثاره.

سادساً: مجريات حياته.

سابعاً: شخصيته وأخلاقه.

ثامناً: وفاته.

حياة ابن شرف وثقافته

اسمه ونسبه:

ما وصل إلينا عن ابن شرف من أخبار وتراجم لا يكاد يتفق وشهرته الواسعة، سواءٌ في الشعر أم النثر أم النقد، فمعظم الذين تحدّثوا عن ابن شرف، وتعرّضوا لأخباره، وترجمة حياته، اكتفوا بذكر كُنيته، واسمه، واسم أبيه وجدّه، ونسبه، يضاف إلى هذا كله أن بعض المصادر وكُتب التراجم لم تتعرض لترجمته وأخباره، إنّما كانت تكتفي بذكره ذِكراً عابراً عندما كانت تتحدّث عن قرينه ومعاصره ابن رشيق فابن خلكان، والقفطيّ، والسّيوطيّ، وغيرهم لم يترجموا لابن شرف مثلما ترجموا لمعاصره ابن رشيق، بل أشاروا إليه إشارة عابرة.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا نستطيع أن نقول: إنّ معظم الذين ترجموا لابن شرف قد أجمعوا على أنّ اسمه محمّد، وأن كُنيته أبو عبدالله[1]، ولم يشك أحد منهم في ذلك، وأمّا الذين تعرضّوا لِذكر ابيه وجدّه، فقد اختلفوا فيما بينهم إختلافاً لا يدفعنا إلى الشك في نسبه، فَمنهم من يرى أنّه محمّد بن شَرَف، وعلى رأس هؤلاء ابن بسّام الذي يقول: ((ابو عبدالله محمّد بن شرف))[2]، ومنهم من يذهب إلى القول إنّه: محمّد بن سعيد ابن أحمد[3]، وثالث يرى أنّه محمد بن أبي سعيد

---

(1) أنظر: الذخيرة، ق١م١/١٦٩، الصلة، ٦٠٤/٢، والخريدة، ق٤ج٢/١١٠، ورايات المبرزين، ص: ١٤٢، ووفيات الأعيان، ٨٩/٢، والوافي بالوفيات، ٩٧/٣، ومسالك الأبصار، ق١ج١١/٢٣٨، وبُغية الوعاة، ١١٤/١، وإعتاب الكُتّاب، ص: ٢١٤، وأخبار وتراجم أندلسيّة، ص: ٣٥، والمطرب، ص: ٧٢، والنفح، ٣٩٥/٣، وشجرة النُّور، ص: ١١٠، والأعلام، ١٠/٧، وعنوان الأريب، ٥٦/١، ومعجم المطبوعات، ١٣٩/١، والمنتخب، ص: ٧٨، ورسائل البلغاء، ص: ٢٣٣.

(2) الذخيرة، ق٤م١/١٦٩، وأنظر: البدائع، ٢٤٠، ورايات المبرزين، ص: ١٤٢، ونهاية الأرب، ٨٣/١، وتزيين الأسواق، ١١٧/١، وإعتاب الكتّاب، ص: ٢١٤، وأخبار وتراجم، ص: ٣٥.

(3) أنظر: فوات الوفيات، ٤١٠/٢، وكشف الظنون، ٩٨٦/٢، وهدية العارفين، ٧٢/٢، وغيرهم.

أحمد، وفي هذا يقول ابن خلكان: ((أبو عبدالله محمّد بن أبي سعيد بن أحمد.))[1]. ويبدو لي أن الذين قالوا: إنّه محمّد بن شرف قد سمّوه باسم جدّه الأول شرف، وأسقطوا اسم أبيه أحمد المعروف بأبي سعيد، وأمّا الذين قالوا: إنّه محمّد بن سعيد ابن أحمد، فعلى ما يبدو أنّهم أسقطوا لفظة أبي، فجاءت ابن سعيد، وهي في الأصل ابن أبي سعيد على ما ذكرته المصادر.

وقد أضافت بعض المصادر إلى سلسلة نسبه لفظة الجذاميّ[2] فقالوا: محمّد ابن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجُذاميّ[3]، بينما ذهب الدبّاغ إلى القول إنّه: الأجذابيّ، حيث يقول: ((محمّد بن أبي سعيد بن شرف الأجذابيّ.))[4]، وهذه رواية انفرد بها الدبّاغ من بين الذين ترجموا لشاعرنا إذ لم يشر إليها غيره، والذي نراه نحن أنّها الجذاميّ نسبة إلى قبيلة جُذام العربيّة الصميمة كما أخبرنا بذلك ابن دحيّة حيث يقول في سلسلة نسبه: ((... أبو عبدالله محمّد بن سعيد بن شرف الجُذاميّ، من ولد جُذام بن عدي بن مرة بن أدد بن يشجب بن عُريب بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يَعرب بن قحطان.))[5]، كما أضافت بعض المصادر الأخرى لفظة القيروانيّ[6] نسبه إلى موطنه ومسقط رأسه القيروان، وقد اكتفى البعض الآخر بذكر كنيته،

---

[1] وفيات الأعيان، ٨٩/٢، وأنظر: معجم الأدباء، ٣٧/١٩، والوافي بالوفيات، ٩٧/٣، وبُغية الوعاة، ١١٤/١، والصلة، ٦٠٤/٢، وفوات الوفيات، ٤١٠/٢، والخريدة، ق٤ج١١٠/٢، والمطرب، ص: ٧٢، والمعالم، ١٩٣/٣.

[2] جذام: بطن من كهلان من القحطانيّة، وهم بنو جذام بن عديّ بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عُريب بن زيد بن كهلان. أنظر: الأنساب، ٢٢٤/٣، والجمهرة، ص: ٤٢٠-٤٢١، ومعجم قبائل العرب، ١٧٤/١.

[3] أنظر: الصلة ٦٠٤/٢، ومعجم الأدباء، ٣٧/١٩، والوافي بالوفيات، ٩٧/٣، وفوات الوفيات، ٤١٠/٢، وبُغية الوعاة، ١١٤/١، وكشف الظنون، ٩٨٦/٢، والنُتَف، ص: ٦١، وعنوان الأريب، ٥٦/١، والنّفح، ٣٩٥/٣.

[4] المعالم، ١٩٣/٣.

[5] المطرب، ص: ٧٢.

[6] أنظر: الصلة، ٦٠٤/٢، والخريدة، ق٤ج١١٠/٢، والبدائع، ص: ٢٤٠، ووفيات الأعيان، ٨٩/٢، ونهاية الأرب، ٨٣/١، والوافي بالوفيات، ٩٧/٣، وفوات الوفيات، ٤١٠/٢، وبُغية الوعاة، ١١٤/١، وديوان الصبابة، ١١٧/١، ومعجم الأدباء، ٣٧/١٧، وشفاء الغليل، ص: ٢١، والحلة السيراء، ٩٧/٢.

واسمه، واسم جدّه، فقالوا: أبو عبدالله محمّد بن شرف[1]، بينما اكتفى بعضهم بتسميته بابن شرف[2]، ونحن نستطيع أن نردّ ذلك إلى الشهرة الواسعة التي حَظيَ بها ابن شرف آنذاك، وإلى الاحتذاء بالمصادر السابقة التي ترجمت له.

وقد زعم الصفديّ أنّ شرف هو اسم جدّة شاعرنا وإليها نُسِب، وهذا واضح في قوله: ((... قيل: إنّ شرف اسم أمّ أحمد، فعلى هذا لا ينصرف، وقيل: اسم أبيه، فينصرف.))[3]. ويبدو لي أن الصفديّ في هذه الرواية قد اتكأ على قول ابن رشيق في بعض أبياته مخاطباً ابن شرف، حيث يقول:

بنو شرفٍ شرفٌ أمّكم وليست أباكم فلا تكذب[4]

على أنّنا نستطيع أن نقول: إن الصفديّ قد انفرد بهذه الرواية إذ لم يُشر إليها غيره ممّن سبقوه، وترجموا لشاعرنا، يضاف إلى هذا أنّ الصفديّ لم يكن متأكداً من صحّة ما يذكره، وهذا واضح من قوله: "قيل اسم أبيه ...".

وأمّا نحن فنستطيع أن نطمئنّ إلى أن اسم شاعرنا ونسبه كان كما يلي: أبو عبدالله محمّد بن ابي سعيد بن أحمد بن شرف الجُذاميّ القيروانيّ، وإلى أن نسبه ينتهي إلى قبيلة جُذام تلك القبيلة العربيّة التي جاءت إلى القيروان مع العرب الفاتحين، واستقرت بها، فشاعرنا إذن، عربيّ صلبية ويرجع نسبه إلى قبيلة عربيّة عريقة.

مولده ونشأته الأولى:

لم تُشر المصادر وكُتب التراجم والسّيَر التي بين ايدينا إلى زمن ولادة ابن شرف، بل أغفلت هذا الأمر إغفالاً تاماً، ولم تتعرض له من قريب أو بعيد، الأمر الذي حمل بعض الدّارسين

(1) أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٦٩، ورايات المبرزين، ص: ١٤٢، وشفاء الغليل، ص: ٢١، وديوان الصبابة، ١م١١٧، وإعتاب الكتّاب، ص: ٢١٤، وأخبار وتراجم، ص: ٣٥، والغيث، ٢/٢٢.

(2) انظر: البيان المغرب، ١/٢٩٥، وتاريخ ابن خلدون، ١/١٩١، والنفح، ٤/٦٧، والمعاهد، ١/٣٦٠، وطراز المجالس، ص: ١٣٢، والف باء، ١/٥٩، ونهاية الأرب، ١/٨٣، والحلة السيراء، ٢/٩٧.

(3) الوافي بالوفيات، ٣/١٩٧.

(4) الوافي بالوفيات، ٣/١٩٧.

إلى محاولة تقدير زمن ولادته، فذهب الأستاذ حسن حسني إلى أنّه قد وُلِد في سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة[1]، وذهب الأستاذ عبدالعزيز الميمنيّ إلى مثل هذا أو قريب منه حيث يقول: ((... تنفس صُبح الحياة في أواخر القرن الرابع للهجرة.))[2]. ومع أنّنا من خلال اتصالنا بتراجم شيوخه الذين تتلمذ عليهم، ومعاصريه الذين اتصل بهم، نستطيع أن نُرَجِّح أنّه قد وُلِد في أواخر القرن الرابع إلاّ أنّنا لا نستطيع أن ندّعي أنّنا قد ظَفِرنا ولو بمصدر قديم واحد، يلمح تلميحاً إلى السنة التي وُلِد فيها ابن شرف. وهذا ما يجعلنا نتحفّظ من قبول الزمن الذي حدّده الأستاذ حسن حسني عبدالوهّاب، ذلك لأنّه يفتقر إلى دليل واحد، أو مصدر واحد من القدماء يؤكّده.

وهكذا فإن المصادر القديمة التي عرضت لابن شرف -مع الأسف- لم تسعفنا بشيء ذي بال عن الزمن الذي وُلِد فيه، فقد سكتت جميع المصادر التي بين أيدينا عن هذا الأمر.

ومع أنّ المصادر القديمة وكُتُب التراجم والسِّير التي تعرضت لأخباره وترجمته لم تتحدّث عن مكان ولادته، إلاّ أنّنا نستطيع أن نطمئن إلى أنّه القيروان، ذلك لأن معظم الذين ترجموا له من القدماء، قد نسبوه إليها، فقالوا في عنوان ترجمتهم له: "محمّد بن شرف القيروانيّ".

نشأته الأولى:

إذا كنّا قد اتفقنا على أنّ ابن شرف قد وُلِد في أواخر القرن الرابع الهجريّ بالقيروان، وأنّه لم يغادرها إلاّ بعد نكبة وطنه على أيدي الأعراب في سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، فهذا يعني أنّه قد عاش بها الجزء الأكبر من حياته، وأنّه قد وصل إلى ما وصل إليه من مكانة وشهرة وهو فيها، وعلى الرُغم من تلك الشهرة الواسعة التي وصل إليها بها، بل بأفريقيّة كلّها، ومن مساهمته في الحياة الأدبيّة، ونتاجه الأدبيّ الغزير، فإن نشأته الأولى في ظل والديه، وحياته في خاصة نفسه وأهله يكتنفهما الكثير من الغموض، ذلك لأن الذين تصدّوا لأخباره وترجمته لم يتحدثوا عن هذا الجانب الهام من حياته، فالمصادر القديمة وكُتُب السِّيَر والتراجم التي عُنِيَت بترجمته وأخباره، لم تسعفنا بشيء ذي بال يفيدنا بدراسة هذه الجوانب من حياته.

---

(1) مجلّة المقتبس، م٦/٣٥١، ورسائل البُلغاء، ص: ١٢٣١.

(2) أعلام الكلام، ص: ١١.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ ابن شرف نفسه لم يتعرض لهذه الأمور في شِعره الذي بين ايدينا، فلم يحدّثنا عن حياته الخاصّة، ونشأته في كنف والديه، ولا عن علاقاته بهم وبإخوانه الذين نشأ بينهم، وهذا الأمر لافت للنظر؛ ذلك لأنّه كما نعلم، قد قال في معظم فنون الشّعر التي كانت شائعةً في عصره، وأنّه من غير الممكن أن يغفل هذا الجانب من حياته، ولا يتعرّض -ولو تلميحاً- للحديثِ عن علاقته بأقرب الناس إلى نفسه، إلاّ إذا كان قد تحدّث عن هذه الجوانب من حياته في شِعرِه الذي لم يصل إلينا.

عائلته:

وأمّا عائلته المكوّنة من زوجه وأولاده، فلم تلق عناية من كُتّاب التراجم والطبقات الذين ترجموا له. فلسنا نعرف شيئاً عَن زوْجِه، وتاريخ زواجه منها، ولا نعرف شيئاً عن الأسرة التي تزوّج مِنْها، فالمصادر التي بين أيدينا لم تُعْنَ بهذه الجوانب، ولم تكشف لنا عن أسماء أولاده وبناته الذين أنجبهم؛ ذلك لأنّ أحداً من الذين تعرّضوا لترجمته وأخباره من القدماء لم يتعرّض لهذه الجوانب من حياته.

ولكنّنا -مع ذلك- استطعنا أن نلمح بعض معالم هذه العائلة من خلال شِعرِه الذي توافر لنا، فهي أسْرة مكونة من تسعة أشخاص بِمَن فيهم ابن شرف وزوجه، وهذا واضح في قوله:

كأنّي وافراخي إذا الليلُ جنّنا ... وبات الكرى يجفو جُفوناً ويطرُقُ
حَمائمُ أضللنَ الوُكورَ فَضمّها ... تجانُسُها حتى تراءى المُفرّقُ
إذا أفزَعتُهم نَبْوةٌ زاحموا لها ... ضُلوعي حتى وُدُّهُم لو تُفَتَّقُ
وَيَصغُر جِسمي عَن جَميع احتضانِهم ... فَيَثبُت ذا فيه وذا عَنْه يَزهَقُ
كأنهُمُ لم يَسكُنوا ظِل نِعمَة ... لَها بَهْجَةٌ مِلءُ العُيونِ ورَونَقُ
إلى أنْ غَدَوا في الفيافي فتارةً ... تُباع وَفي بَعض الأحايين تُعْتَقُ
وَطَوراً على مَوجِ البحارِ كأنّنا ... قذى قد وَثِقنا أنّنا لَيس نَغْرقُ
ونَحنُ نُفوسٌ تِسعَةٌ ليسَ بيننا ... وبَيْنَ الردى إلاّ عُوَيْدٌ مُلَفَّقُ[1]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٢.

ومن خلال هذه الأبيات، نستطيع أن نتبيّن أنّ ابن شرف كان قد تزوج، وأنجب بنين وبنات، وكانوا سبعة، غير أنّه لم يكشف لنا عن أسمائهم وصفاتهم، وإنّما اكتفى بالإشارة إلى عددهم، وإلى أنّهم قد رافقوه إلى بلاد الأندلس بعد نزوحه عن وطنه عندما داهمه الأعراب.

وإذا كنّا قد علمنا أنّ عدد أفراد أسرته الذين أنجبهم من البنين والبنات كان سبعة، فهذا يعني أنّه قد خلّف من الذكور اثنين، ومن الإناث خمسة، وهذا واضح في قوله:

أجشمَهم لَيْلَ القِفارِ وَظُلْمَةَ الـ ... بحارِ وكم رِيْعُوا وللسّيدِ إرخاءُ
ولي مِنْهُما سهمانِ هذا ابنُ أربعٍ ... وهذا ابن ستٍ كلّ ما كان إغفاءُ[1]

ويبدو لي أنه يشير هنا إلى ولده الأكبر عبدالله، وولده الأصغر جعفر، ولكنّ المصادر التي بين أيدينا لم تُشر إلى عبدالله، ولم تحدّثنا عنه، فعلى ما يبدو أنّه لم يكن مشهوراً، فَطُمس ذكره، ولم تصل إلينا أخباره.

وأمّا جعفر فهو: أبو الفضل جعفر بن محمّد بن أبي سعيد بن شرف الجُذاميّ القيروانيّ[2]، كان من جلّة الأدباء، وكبار الشعراء، اشتهر بمدح المعتصم بن صمادح، وقد غلبت على شِعره الحكمة، ومال إلى النزعة الفلسفيّة في شِعره، وفي حقّه يقول ابن بسّام: ((... ذو مرة لا تناقض، وعارضة لا تعارض، وطرأ أبوه على الأندلس من القيروان، وأبو الفضل هذا يومئذ لم يَصْبُ قَطْرُهُ، ولا خرج من الكمامَة زهره، ومن المرية دَرَج وطار، وباسم صاحبها أنجد ذكره وغار، ...))[3].

وقد تتلمذ ابو الفضل على والده، وعلى ابن المرابط، وأبي الوليد الوقشيّ، وأبي سعيد الورّاق، وفي هذا يقول ابن بشكوال: ((... وله رواية عن أبيه، أخذ عنه ديوان شِعره، وعن القاضي أبي عبدالله بن المرابط، وأبي الوليد الوقشيّ، وأبي الورّاق، وغيرهم.))[4].

---

(1) الذخيرة، ص: ٢١٩.

(2) أنظر: الذخيرة، ق٣م٢/٨٦٧، والصلة، ١/١٣٠، والخريدة، ق٤ج٢/٢٣، والمطرب، ص: ٧١، والقلائد، ص: ٢٥١، والبُغية، ص: ٢٥٩، وبُغية الوعاة، ١/٤٨٦، والبيان المغرب، ٢/٢٣٠، والنّفح، ٣/٣٩٥، وشجرة النّور، ص: ١٢٧، والأعلام، ٢/١٢٤، والمجمل، ص: ١٧٧.

(3) الذخيرة، ق٣م٢/٨٦٧.

(4) الصلة، ١/١٣٠، والبغية، ٢٥٩، والذخيرة، ق٤ج٢/٢٥.

وله مؤلفات كثيرة في الأمثال، والأخبار، والأشعار، ومنها: "سر البروزجره"[1] وقد تتلمذ عليه خلق كثير ومنهم: ابن بشكوال صاحب الصلة، واليسع بن عيسى بن اليسع الغافقيّ، وأبو بكر بن عبدالله بن طلحة بن عطيّة، وغيرهم[2] وقد توفي في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة للهجرة[3]، بعد أن خلّف ولداً شاعراً، حكيماً فيلسوفاً، أديباً أسماه محمّد على ما ذكره ابن سعيد[4]، وقد عاش في صدر دولة الموحدين[5].

شيوخه وتلاميذه:

لقد كانت البيئة التي عاش فيها ابن شرف بالقيروان بيئة علميّة زاخرة بالمعارف والعلوم، غاصة بالعلماء والأدباء الذين تثقّفوا أنفسهم بثقافات واسعة ومتنوعة، فأصبحت بذلك منتدى كبيراً للعلماء والأدباء في ذلك العصر، فعقدوا المجالس العلميّة والأدبية، وأخذوا يبثون علومهم ومعارفهم الزاخرة في أبناء ذلك العصر، بعد أن وجدوا لذلك تربة صالحة، الأمر الذي هيأ لشاعرنا أن يتصل بهم، وأن يجالسهم، ويأخذ عنهم أخذ مشافهة ومناقشة، وأن يسمع منهم، ويتتلمذ عليهم، ومن أشهر هؤلاء الشيوخ:

ابن القابسيّ[6]، وهو: أبو الحسن عليّ بن محمّد بن خلف المعافريّ، المعروف بابن القابسيّ، القيروانيّ على ما ذكره الدبّاغ حيث يقول: ((... ولم يكن قابسيّاً، وإنّما كان له عم يشدّ عمامته بشدّ قابس، فسميّ بذلك، وهو قيروانيّ الأصل.))[7]، كان واسع الرواية، عالماً بالحديث ورجاله، فقيهاً مالكياً، أصولياً متكلّماً، مؤلفاً، وفي ذلك يقول القاضي عياض: ((... وكان أبو الحسن فقيهاً عالماً محدّثاً وَرِعاً مُتَقَلّاً من الدنيا، لم أرَ أحداً مِمّن يُشار إليه بالقيروان بِعِلم إلاّ وقد

---

[1] انظر: القلائد، ص: ٢٥١، وأنظر: الصلة، ١/١٣٠.

[2] أنظر: الصلة، ١/١٣٠، والخريدة، ق٤ج٢/٢٥، وشجرة النُّور، ص: ١٢٧.

[3] أنظر: الصلة، ١/١٣٠، والبُغية، ٢٥٩.

[4] المغرب، ٢/٢٣٢.

[5] النّفح، ٧/٨.

[6] ترتيب المدارك، ٤/٦١٦، والمعالم ٣/١٣٤.

[7] ترتيب المدارك، ٤/٦١٦، والمعالم، ٣/١٣٤، ووفيات الأعيات، ١/٣٣٩، والعبر، ٣/٨٥، والشذرات، ٣/١٦٨، ظهر الاسلام، ١/٣٠٠.

جاء اسمه عنده، يعترف الجميع بحقّه، ولا ينكر فضله، متأخر في زمانه متقدم في شأنه العلم والعمل والدراية من ذوي الاجتهاد، عالماً بالأصول والفروع، والحديث وغير ذلك.))[1]، ويقول في حقّه ابن خلكان: ((... كان إماماً في علم الحديث ومتونه، وأسانيده وجميع ما يتعلق به، وكان للناس فيه اعتقاد كبير، وصنّف في الحديث كتاب "الملخّص"، جمع فيه ما اتّصل إسناده من حديث مالك بن أنس في كتاب الموطأ.))[2]، وقد حَفِظ لنا الدبّاغ بعض مؤلفاته من مثل كتاب: "الممهد" وكتاب: "المنبّه للفطن"، وكتاب: "المبعد من شبه التأويل"، وكتاب: "المناسك"، كما حفظ لنا بعض رسائله من مثل: رسالة الاعتقادات والرسالة الناصرة، ورسالة في الذكر والدّعاء، ورسالة أحمية الحصون، والرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين[3]، وكانت وفاته بالقيروان في سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة(٤٠٣هـ)، عن عمر يناهز الثمانين عاماً على ما ذكره الدباغ[4].

وابن القابسيّ هذا من أوائل شيوخ صاحبنا الذين تتلمذ عليهم، فقد أخذ عنه علوم الدين والفقه، وفي هذا يقول ابن بشكوال: ((... وله رواية عن أبي الحسن القابسيّ الفقيه، وأبي عمران الفاسيّ، وصحبهما.))[5]، ويقول الدبّاغ: ((... ولأبي عبدالله محمّد بن شرف رواية عن الشيخ أبي الحسن القابسيّ.))[6]. ويقول ياقوت: ((... روى عن ابي الحسن القابسي.))[7].

ومنهم ابن جعفر القزّاز، وهو أبو عبدالله محمّد بن جعفر القزّاز التميميّ القيروانيّ[8]، رحل إلى المشرق، وخدم العزيز بالله الفاطميّ صاحب مصر، وصنّف له كُتُباً، وعاد إلى القيروان، فتصدّر لتدريس العربيّة والآداب فيها إلى أن توفيّ في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة للهجرة، وقد قارب السبعين عاماً، وهو جامع كتاب "الجامع في اللغة" الذي يقارب كتاب "التهذيب"

---

[1] ترتيب المدارك، ٦١٨/٤-٦١٩.

[2] وفيات الاعيان، ٣٣٩/١.

[3] انظر: المعالم، ١٣٥/٣-١٣٦.

[4] المصدر نفسه، ١٤٢/٣.

[5] الصلة، ٦٠٤/٢.

[6] معالم الايمان، ١٩٤/٣.

[7] معجم الأدباء، ٣٧/١٩.

[8] أنظر: وفيات الأعيان، ٣٧٤/٤، والوافي بالوفيات، ٣٠٤/٢، ومعجم الأدباء، ١٠٥/١٨، وإنباه الرواة، ٨٤/٣، وبُغية الوعاة، ٧١/١، والمسالك، جـ٣٧٦/١١، وظهر الاسلام، ٣٠٥/١، والأعلام، ٢٩٩/٦.

لأبي منصور الثعالبيّ، وقد رتبّه على حروف المعجم[1] وفي ابن جعفر القزّاز يقول ابن رشيق: "فَضَح المتقدمين، وقطع ألسنة المتأخرين، وكان مهيباً عند الملوك والعلماء، وخاصّة الناس، محبوباً عند العامّة، قليل الخوض إلاّ في علم دين أو دنيا، يملك لسانه مُلكاً شديداً، له شِعرٌ مطبوع مصنوع ربّما جاء به مفاكهةً، وممالحةً من غير تَحفّز، ولا تحفّل، وكانت وفاته بالحضرة سنة ٤١٢هـ، وقد قارب السبعين."[2]، ولقد كان ابن القزّاز هذا شيخ اللغة بالمغرب على ما ذكره الصفديّ حيث يقول: ((... شيخ اللغة بالمغرب، وكان لغوياً، نحوياً، بارعاً، مهيباً عند الملوك، صنّف كتاب: "الجامع في اللغة".))[3]، ويقول في حقّه ياقوت: ((... كان إماماً علامة قيماً بعلوم العربيّة، وهو جامع كتاب: "الجامع في اللغة"، وكتاب: "ما يجوز للشاعر استعماله في ضَرورة الشِعر"، وكتاب: "أدب السلطان والتأدّب"، وكتاب: "التعريض والتصريح"، وكتاب: "ما أُخذَ على المتنبيّ من اللحن والغلط"، وكتاب: الصاد والطاء" وغير ذلك.))[4].

وقد تتلمذ ابن شرف على هذا الشيخ الأديب العالم، فأخذ عنه الأدب، والنّحو على ما ذكره ياقوت حيث يقول: ((... وقرأ النّحو على أبي عبدالله محمّد بن جعفر القزّاز.))[5].

ومنهم الحصريّ وهو: أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ بن تميم الحصريّ القيروانيّ[6]، ذكره ابن رشيق في الأنموذج، فقال: ((... كان شاعراً عالماً بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام، يحبّ المجانسة تشبّهاً بابي تمّام في أشعاره، وتتبّعاً لآثاره، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيّته لجرى جرية الماء، ورقّ رقّة الهوى.))[7]، وهو من أولئك العلماء الذين عقدوا المجالس والحلقات، وأخذوا يبثون علومهم ومعارفهم في أبناء ذلك العصر، وهذا ما عبّر عنه ابن رشيق بقوله: ((... كان شبّان القيروان يجتمعون عنده، ويأخذون عنه، ورأس عندهم، وشَرَف

---

[1] أنظر: معجم الأدباء، ١٠٥/١٨، والأعلام، ٢٩٩/٦.

[2] وفيات الأعيان، ٣٧٤/٤، والمسالك، جـ٣٧٦/١١-٣٧٧، ومعجم الأدباء، ١٠٥/١٨.

[3] الوافي بالوفيات، ٣٠٤/٢.

[4] معجم الأدباء، ١٠٩/١٨.

[5] معجم الأدباء، ٣٧/١٩.

[6] انظر: الذخيرة، ق٤م٥٨٤/٢، والمسالك، جـ٣٠٩/١١، ومعجم الأدباء، ٩٤/٢، ووفيات الأعيان، ٥٤/١، وظهر الاسلام، ٣٠٥/١، وعُنوان الأريب، ٤٣/١.

[7] المسالك، جـ٣١٠/١١، وأنظر معجم الأدباء، ٩٤/٢.

لديهم، وسارت تأليفاته، وانثالت عليه الصلات من الجهات.))[1]، وإلى مثل هذا ذهب ابن بسّام حيث يقول: ((... ونظر في النحو والعروض، ولزمه شبّان القيروان، وأخذ في تأليف الأخبار والأشعار، فرأس عندهم، وشَرُف لديهم، ووصلت تأليفاته صقليّة وغيرها، وانهالت عليه الصلات، وله شِعر كثير.))[2].

ونحن لا نستطيع أن ننكر أنّ ابن شرف لم يكن من بين هؤلاء الشبّان الذين كانوا يجتمعون عند هذا العالم الفذّ، ليأخذ من نَبْعِه الأصيل، والذي يؤكد ما ذهبنا إليه رواية ياقوت التي يقول فيها: ((... وأخذ العلوم الأدبيّة عن أبي إسحاق الحصريّ.))[3].

وقد كان الحصريّ جاحظ المغرب، إذ عارضه في بعض مؤلّفاته، وهذا واضح في قول ابن بسّام: ((... عارض ابا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بـ "زهر الآداب وثمر الألباب"، فلعمري ما قَصُرَ مداه، ولا قَصُرَت خطاه، ولولا أنّه شغل أكثر أجزائه وأنحائه بكلام أهل العصر دون كلام العرب لكان كتاب الأدب الذي لا ينازعه ذلك إلاّ من ضاق عنه الأمد، وأعمى بصيرته الحسد، ثمّ أخذ بعد ذلك في إنشاء التواليف الرّائعة، والتّصانيف الفائقة ككتاب: "النّور والنّور" و كتاب: "المصون في الدواوين".))[4].

ومنهم الفاسيّ، وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجوميّ الفاسيّ يقول فيه الدبّاغ: ((... كان فقيهاً عالماً بفنون العلم منها: القرآن وعلومه، والحديث وعلله، ورجاله، والفقه البارع عارفاً بأصول الدين، وكان أبو بكر الباقلاني يعجبه حفظه، ويقول: ((لو اجتمعت في مدرسة أنت وعبدالوهّاب بن نصر لاجتمع فيكما علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره، لو رآكما مالك لَسُرّ بكما!))[5]، ويقول ابن بشكوال: ((... رحل إلى المشرق، وحجّ حِججاً، وأخذ القراءة عن أبي الحسن عليّ بن عمر المقريّ، وغيره، وسَمع بمكة ومصر، والقيروان، وتوجّه إلى بغداد سنة (٣٧٩هـ)،

---

(١) وفيات الأعيان، ٥٤/١.

(٢) الذخيرة، ق٤م٥٩٣/٢.

(٣) معجم الأدباء، ٣٧/١٩.

(٤) انظر: ترتيب المدارك، ٧٠٢/٤، والمعالم، ١٥٩/٣، والصلة، ٦١٢/٢، والشذرات، ٢٤٧/٣، شجرة النّور، ص: ١٠٦.

(٥) المعالم، ١٦٠/٣.

وأقرأ بها القرآن أشهراً، ثمّ انصرف إلى القيروان، وأقرأ النّاس بها مدة، ثمّ ترك الإقراء، ودارس الفقه، وأسمع الحديث بها، وذكره أبو القاسم حاتم بن محمّد، وقال: لقيته بالقيروان في رحلتي سنة (٤٠٢هـ)، وكان من أحفظ النّاس، وأعلمهم، وكان قد جمع حفظ المذهب المالكيّ، وحفظ حديث النبيّ والمعرفة بمعانيه، وكان يقرئ القرآن بالسبعة، ويجوّدها، مع المعرفة بالرّجال: المعدلين منهم والمجرحين، ورحل إلى بغداد وحجّ حججاً، ... وقد توفيّ في سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة.))[١].

وقد أخذ ابن شرف عنه علوم الدين والفقه وهذا ما اشار إليه ياقوت بقوله: ((... وروى عن أبي عمران الفاسيّ.))[٢]، ويقول ابن بشكوال: ((... وله رواية عن أبي عمران الفاسيّ الفقيه.))[٣]، ويقول الدبّاغ: ((... وله رواية عن أبي عمران الفاسيّ.))[٤].

وثمّة شيخ آخر أعتقد أن ابن شرف كان قد تتلمذ عليه، وأفاد منه فائدة كبيرة ألا وهو ابن أبي الرّجّال، أبو الحسن عليّ بن ابي الرّجال الشيبانيّ[٥]، رئيس ديوان الإنشاء في دولة المعزّ بن باديس، وهو مربّي المعزّ بن باديس، وكان شهماً كريماً يحرّض الكتّاب والشعراء بالعطايا الجزيلة، قال ابن رشيق: ((... رجل الخطب، وفارس الكتب، زعيم الكرم، وواحد الفهم، الذي نال الرياسة، وحاز السياسة، وانفرد بالبسط والقبض، واتحد في الإبرام والنقض، عن سعي مشكور، وفضل مشهور، وعلم بالموارد والمصادر، ونظر في الأوائل والأواخر، وتتبع لآثار من سلف، من أهل القدر والشرف وتقلب في مجالس الحكم، بين ذوي الأقدار والهمم، إلى أن صار نسيج وحده، وقريع دهره، غير مدافع عن ذلك، ولا منازع فيه.))[٦].

---

(١) الصلة، ٦١٢/٢.

(٢) معجم الأدباء، ٣٧/١٩.

(٣) الصلة، ٦٠٤/٢.

(٤) المعالم، ١٩٤/٣.

(٥) أنظر: العمدة، ١٥/١، وإعتاب الكتّاب، ص: ٢١٤، والمجمل، ص: ١٢٩.

(٦) العمدة، ١٥/١.

ويبدولي أن ابن شرف يشير إليه حين يقول: ((... وكان شيخاً هِماً في اللسان، وبدراً تِماً في البيان، وقد بقي احقاباً، ولقي أعقاباً، ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات، وأوردته علينا العزمات، فامتحنا من علمه بحراً جارياً، وقدمنا من فهمه زنداً وارياً، وأدرنا من برّه طرفاً وأجتنينا من ثمره طرفاً، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل، وغفلة الزمان تهتبل.))[1].

فهؤلاء هم شيوخ ابن شرف الذين استطعنا أن نعرف بعض أخبارهم، واتضح لنا أنه قد أخذ عنهم، وتتلمذ عليهم، واتصل بهم فكان لهم أثر كبير في رسم معالم ثقافته من جانب وتنوّعها من جانب آخر.

وأمّا تلاميذه، فإنّنا نجد منهم ابن عُرَيف وهو: أبو الحسن راشد بن سليمان بن موسى بن عُرَيف اللخميّ الطليطليّ[2]، أديب، شاعر، كاتب، وهو من كتّاب المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، وقد تتلمذ على أديبنا أبي عبدالله بن شرف وروى عنه كتابه المعروف بـ "أعلام الكلام" أثناء إقامته بطُلَيطِلة على ما ذكره ابن الأبّار حيث يقول: ((... وروى عن أبي عبدالله بن شرف القيروانيّ، أخذ عنه كتابه: "أعلام الكلام" من تأليفه، وسَمِعه منه في رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة للهجرة، وكان أديباً، شاعراً، كاتباً بليغاً وشِعره مدوّن، وهو أحد كتّاب المأمون يحيى بن ذي النّون.))[3].

ومنهم أيضاً ابنه جعفر بن شرف الذي تتلمذ على والده، وروى عنه ديوان شعره[4] كما روى عنه كتاب العمدة على ما ذكره العماد حيث يقول: ((... وذكر لي الفقيه اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقيّ الأندلسيّ بمصر، أنّ أبا الفضل جعفر بن محمّد بن شرف شيخه، وهو يروي عنه، وقال: أدركته سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقد بلغ خمساً وتسعين سنة، وتوفيّ سنة احدى وثلاثين وخمسمائة، وقد أناف على المائة، وكان يروي العمدة لابن رشيق عنه بالإجازة، وأجاز لي روايتها عنه بالإجازة عن ابن شرف عن ابن رشيق.))[5].

---

[1] المقتبس م٦/٣٥٩، ورسائل البلغاء، ص: ٢٤١، وأعلام الكلام، ص: ١٣.

[2] أنظر: التكملة، ١/٣٢٤، والخريدة، ق٤ج٢/٧، والنفح، ٣/٤٢٠، والمُغرب، ٢/٣٢.

[3] التكملة، ١/٣٢٤، وانظر: الخريدة، ق٤ج٢/٧.

[4] أنظر: الصلة، ١/١٣٠، والبُغية، ١/٤٨٦، وشجرة النّور، ص: ١٢٧.

[5] الخريدة، ق٤ج٢/٢٥.

تكوينه الثقافي:

يشير ابن رشيق في كتابه "العمدة" إلى ما يجب على الشاعر أن يأخذ بـه نفسـه مـن أدوات قبل أن يقحمها في عالم الشعر والشعراء، فيقول: ((... والشّاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرمة، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل من: نحوٍ، ولغةٍ، وفقهٍ، وخبرٍ، وحسابٍ، وفريضةٍ، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته، وهو مكتفٍ بذاته مستغنٍ عمّا سواه، ولأنه قيد للأخبار، وتجديد للآثار.))[1].

وقد تسلح ابن شرف بهذه الأدوات، وغيرها قبل أن يقوم برحلته القصيرة مع الشعر والأدب، فمن خلال تتبعنا لأخبار شيوخه الذين اتصل بهم وتتلمذ عليهم نستطيع أن نقول: إنّه قد عمل على تثقيف نفسه بثقافات مختلفة ومتنوعة ما بين دينيّة، ولغويّة، ونحويّة، فنستطيع أن نجدَ الثقافة الدينيّة في قوله:

إنّي ومَجدِكَ صيّرتُ الورى نَهَرا ... وقُلْتُ ما قاله طالوتُ في النّهَرِ
فأنت عِندي مِنهُمُ غَرفَةٌ بِيَدي ... حلّت وَحرّمَ باقي النّهرِ في الزُّبُرِ[2]

وفي قوله:

ما فلانٌ إلاّ كَجيفةِ كلبٍ ... والضّروراتُ ألجأتنا إليه
فَمَن اضطرّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ ... فلا إثمَ في الكتاب عليه[3]

ونستطيع أن نَجِدَ الثقافة اللغوية والنّحوية في قوله:

أضمُمُهما والليلُ داجٍ كأنّما ... هُما نُقطتا ياءٍ وجسمي هو الياء[4]

وفي قوله:

فالماجِدُ السيّدُ الحرُّ الكريمُ له ... كالنّعتِ والعَطفِ والتوكيدِ والبدل[5]

---

[1] العمدة، ١٩٦/١.
[2] الذخيرة، ق٤م٢/٢٢٣.
[3] المسالك، جـ١١/٢٤٣.
[4] الذخيرة، ق٤م٢/٢١٩.
[5] المصدر نفسه، ص: ٢٢٢.

ونجد الثقافة العروضيّة في قوله:

فإنْ أفحَمَتــــنا هَيبــةٌ عُمريّـــــةٌ لَديكَ لـَها في الشّعرِ كَسْرٌ وإقـواءُ[1]

وفي قوله:

فكأنّما الأجسامُ بَعْدَ رؤوسِــــــــها أبــياتُ شِـــــعرٍ مالَهُنَّ قـــوافِ[2]

هذا بالإضافة إلى ثقافته النقدية الواسعة التي كشفت لنا عنها رسالته النقديّة المعروفة برسائل الإنتقاد إذ تعرّض فيها بالنقد لأكثر من ستين شاعراً من شعراء الجاهلية والإسلام في المشرق والمغرب ممن سبقوه أو عاصروه، وإليك بعض الأمثلة على هذا حيث يقول في نقده لبشار: ((... وأمّا بشّار فأول المولّدين، وآخر المخضرمين، وممن لَحِق الدولتين، عاشق سمع، وشاعر جمع، وشعره ينفق عند ربّات الحجال، وعند فحول الرجال، فهو يلين حتى يستعطف، ويقوى حتى يستكثف، وقد طال عمره، وكثُر شعره، وطما بحره، وبقي في البلاد ذكره.))[3]، ويقول في نقده لابن الرومي: ((... وأمّا ابن الرّوميّ فشجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله في الهجاء ما ليس في الاطراء، فتح فيه أبواباً، ووصل منه أسباباً، وخلع منه أثواباً، وطوّق به رقاباً، يبقين أعماراً، وأحقاباً يطول عليها حسابه، ويمحق بها ثوابه، ولقد كان واسع العطن، لطيف الفطن، إلاّ أنّ الغالب عليه ضعف المريرة، وقوة المرة.))[4].

وقد كان ابن شرف على معرفة بأحوال العرب وأخبارهم وأمثالهم، فعبّر عن هذه الأمور التي انعكست في نتاجه الأدبيّ والشعريّ تعبيراً صادقاً، فجاء أدبه وشعره صورة واضحة لثقافة عصره المتنوعة التي كانت تتطلب من الأديب أو الشاعر أن يُلِمّ بعدّة علوم، وأن يُثَقّف نفسه بثقافات مختلفة، ومن ذلك قوله: ((... أوضَح من جبال تهامة، لعينيّ زرقاء اليمامة ...))[5]، وكما في قوله: ((...

---

(1) الذخيـــــرة، ص: ٢١٩.

(2) المصدر نفسه، ص: ٢٢١.

(3) أعلام الكـــلام، ص: ٢٢.

(4) المصدر نفسه، ص: ٢٥.

(5) الذخيـــرة، ق٤م١/١٨٣.

أخفى من السوسة في العود ...))[1]، وكما في قوله: ((... كتبت وشوقي إلى شرف لُقياه، وشيم سُقياه، شوق القارظين إلى سكون وسكنى ...))[2]، وكما في قوله:

وما بُلـوغُ الأمانـي في مواعدِهـا ... إلاّ كأشْعَبَ يَرجو وَعْدَ عُرقـوب[3]

وقد كان لهذه الثقافة المتنوعة التي ألمّ بها شاعرنا مقومات عديدة ومنها: أنّ القيروان التي عاش فيها ابن شرف كانت وجهة للعلماء والأدباء، وداراً للعلماء بالمغرب، فإليها كانت الرحلة في طلب العلم[4]، إذ قصدها العلماء والأدباء من كل مكان لما سمعوه عن إكرام المعزّ للعلماء، وعنايته بهم، وإغداقه الأموال الطائلة عليهم، وعن حُبّه للعلم والعلوم.

فكانت القيروان بذلك مسرحاً كبيراً التقت فيه أعداد كثيرة من العلماء والأدباء الذين شغلوا مجالس العلم والأدب فيها، وأخذوا يتسابقون في تدوين علومهم وأفكارهم، وفي بثّ علومهم المختلفة الواسعة في أبناء ذلك العصر، الأمر الذي هيأ لشاعرنا ولغيره من أبناء القيروان أن يتصلوا بهؤلاء الشيوخ، ويختلفوا إلى حلقاتهم ومجالسهم، ويتتلمذوا عليهم، وينهلوا من معارفهم الزاخرة.

وقد كان لشيوخه الذين تتلمذ عليهم، واتصل بهم أثر كبير في تنوع ثقافته وسِعتها، إذ كان هؤلاء الشيوخ كما رأينا من ذوي الاتجاهات المختلفة الواسعة: فمنهم من غَلَبَ عليه الفقه، ومنهم من اشتهر باللغة والأدب، ومنهم من عُرِف بالنّحو، واشتهر به، فجاءت ثقافة ابن شرف متنوعة واسعة، وقد شَهِد له بذلك ابن بسّام حيث يقول: ((... ولابن شرف أصالة منزعة، وجلالة مقطعة، ومتانة لفظة، وسعة حفظه.))[5].

ثمّ إن الازدهار العلميّ والثقافيّ الذي شهدته القيروان في ذلك العصر بحكم موقعها بين طَرَفيّ الدولة الاسلاميّة، قد عمل على إحداث نهضة علميّة وفكرية فيها، كما ساعد أبناء القيروان

---

(1) الذخيرة، ص: ١٨٤.

(2) المصدر نفسه، ص: ١٩٣.

(3) المصدر نفسه، ص: ٢٢٥.

(4) أنظر: ترتيب المدارك، ١٣/١-١٥، والمعجب، ص: ٤٤١، ومعجم الأدباء، ٣٧/١٩.

(5) الذخيرة، ق٤م٢/١٧٠، وأنظر: الصلة، ٦٠٤/٢، المعالم، ١٩٤/٣.

على الاتصال بثقافات المشرق والأندلس، والاطلاع عليها. ففي أدب شاعرنا ونقده ما يدل على ذلك[1].

ومنها: عمله في ديوان المراسلات بدولة المعزّ بن باديس، إذ هيأ له ذلك الديوان الذي كان يضمّ أكثر من مائة كاتبٍ بليغٍ، أن يتصل ببعض هؤلاء الأدباء والشعراء، فعمل ذلك على توسيع مداركه، ونمو ثقافته، وفي هذا يقول صاحب البساط: ((... وكان هذا الديوان في دولة المعزّ منتصباً بمدينة صبرة بمقربة من منزل الملك، وهو يحتوي على أكثر من مائة كاتب بليغ منتخب كابن رشيق وابن شرف الشاعرين المشهورين، ويرأسهم أبو الحسن عليّ بن أبي الرّجال الشيباني مربّي المعزّ وكاتب سره.))[2].

ومنها رحلته وتنقله ما بين المغرب وصقليّة من ناحية، وما بين مدن الأندلس وحواضرها من ناحية أخرى، فتسنّى له بذلك أن يتعرّف إلى عادات مختلفة، وشعوب متنوعة، إذ أكسبه ذلك خبرة ودراية بأحوال الناس، وعاداتهم وتقاليدهم، فعبّر عنه في أدبه وشعره تعبيراً صادقاً، ومن ذلك قوله:

إنْ تَرْمِكَ الغُربَةُ في مَعْشَرٍ ... قَد جُبِلَ الطَبعُ على بُغْضِهم
فَدارِهم ما دُمتَ في دارِهم ... وأرْضِهم ما دُمتَ في أرضِهم[3]

وكما في قوله:

يا خائفاً مِن مَعشَرٍ ... لا يُصطلَى بِنارِهِم
فَما بَقيتَ جارَهم ... فَفي هَواهُم جارِهِم[4]

ومن هذه المقومات أيضاً إطلاعه على الأدب العربيّ القديم، وتعمّقه في دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين الذين سبقوه أو عاصروه في المشرق والمغرب، ولكن الأمر لم يكن ليقتصر على الاطلاع فحسب، بل أنّ شاعرنا قد تصدّى لنقد هؤلاء الشعراء في رسالة نقديّة كشفت لنا عن سعة ثقافته، وعن تعمّقه في دواوين الشعر العربيّ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك،

---

[1] أنظر: أعلام الكلام، ص: ١٣-١٤.

[2] البساط، ص: ٥٤، ووفيات الأعيان، ٣٩/٢.

[3] الذخيرة، ق٤م١٧٢/١.

[4] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

حيث يقول في نقده لابن عبد ربّه: ((... وأمّا ابن عبد ربّه الأندلسيّ وإن بَعُدَت عنّا دياره، فقد صافنتنا أشعاره، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة، وتكفيرات توبته الصدوقة، ومدائحه المروانيّة، ومطاعنه العبّاسيّة، فوجدناه في ذلك فارساً ممارساً، وطاعناً مداعساً، واطلعنا في أشعاره على مادة علم واسع، ومادة فهم مضيء ناصع))[1]. ويقول في نقده لابن دراج القسطليّ: ((... وأمّا ابن دراج القسطليّ فشاعر ماهر، عالم بما يقول، تشهد له العقول، بأنه المؤخَّر في العصر، المقدّم في الشعر، مَن تصفّح أشعاره دلّته على أنّه عالم بالأخبار، والأنساب، والآثار والأحساب، حاذق يضع الكلام في مواضعه لا سيّما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة، وشكا ما دهاه في أيام المحنة، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه في أبعد الزمان وأقربه.))[2].

ومما تقدّم نستطيع أن نلاحظ أنّ ابن شرف كان قد اطلع على ديواني هذين الشاعرين، وتوقّف عندهما وقفةً متأنيّةً ناقدةً، تكشف لنا عن سعة اطلاع وتعمق.

فهذه هي أهمّ المقومات التي عملت على تكوين ابن شرف الثقافيّ، وساهمت في نمو ثقافته وصقلها.

وقد بدا لنا ابن شرف من خلال ما وصل الينا من نتاجه الأدبيّ والنقديّ صاحب شخصية واسعة الاطلاع، متنوعة الثقافة، غنيّة بالعلوم والمعارف العامّة المختلفة، إذ جمع في حوزته عدة علوم: الشعر إلى الكتابة إلى النقد، وفي هذا يقول ابن بسام: ((... كان ابو عبدالله بن شرف بالقيروان من فرسان هذا الشأن وأحد من نَظم قلائد الآداب، وجَمَع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون، تلاعب الرياح بأعطاف الغصون.))[3]، ويقول الدبّاغ: ((... ذكره الشيخ ابو الوليد الباجيّ، وأثنى عليه، ووصفه بالعلم والذكاء، وأن علم الأدب من بعض علومه.))[4]، فهذه الرواية تدلّ دلالة واضحة على أنّ ابن شرف كان صاحب ثقافة واسعة متنوّعة حتى أنّ علم الأدب كان من بعض علومه الكثيرة المتنوعة التي ألمّ بها، وعبّر عنها تعبيراً واضحاً فيما ألّفه أو قاله.

---

(1) أعلام الكلام، ص: ٢٦.

(2) المصدر نفسه، ص: ٢٦.

(3) الذخيرة، ق٤م٢/١٦٠-١٧٠.

(4) المعالم، ١٩٤/٣، والصلة، ٦٠٤/٢.

مصنفاته:

يرى بعض الدارسين أن العصر الذي عاش فيه ابن شرف كان يتطلب من الأديب أو الكاتب أن يدوّن ما يتلقاه عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم، أو ما تجود به قريحته من أفكار جديدة في رسالة أو كتاب، ليحفظه من الضياع[1]، ومن أجل هذا فقد نَشَطت حركة التأليف في هذا العصر، وازدهرت إزدهاراً كبيراً، فكان من الطبيعيّ وهذه الحال أن نجد ابن شرف قد ساهم في هذه الحركة، إذ دوّن ما جادت به قريحته من أفكار، وما حصّله من علوم ومعارف في مصنفات عديدة، أشار إليها معظم الذين ترجموا له، وتصدّوا لأخباره وأدبه فابن بسّام يقول: ((... ولأبي عبدالله عدّة تواليف أفاضها بحاراً، وأطلَعَها شُموساً، وأقماراً منها كتابه الموسوم بـ "أعلام الكلام"، وكتاب "أبكار الأفكار"[2]، ويقول ابن بشكوال: ((... كان من جلّة الأدباء، وفحول الشعراء، وله كُتبٌ مصنّفة بمعنى ذلك كلّه.))[3]، ويقول ياقوت: ((... ولابن شرف القيروانيّ من التصانيف: أبكار الأفكار، وأعلام الكلام، ورسالة الانتقاد.))[4]، ويقول ابن دحيّة: ((... ولابن شرف مصنّفات عديدة، وأوضاع مفيدة منها: أبكار الأفكار.))[5]، ويقول ابن شاكر: ((... وله تصانيف منها: أبكار الأفكار.))[6].

ومن هذه الإشارات يتضح لنا أن ابن شرف قد صنّف كُتباً عديدة، ومؤلّفات كثيرة، جَسّد لنا فيها ثقافته الواسعة التي ألمّ بها، إلاّ أن يد الزمن قد امتدت إليها، فخطفتها فيما خطفت من تراثنا العربيّ، وذلك بسبب الفِتَن والنّكبات التي تعرّضت لها هذه البقعة من الوطن الاسلامي الكبير، ومن أجل هذا لم يصل الينا من مصنّفات ابن شرف الكثيرة التي تحدّث عنها المترجمون إلاّ أسماء مجرّدة لتلك المؤلفات التي كان من أشهرها:

---

(1) أنظر: البساط، ص: ١٢٩.

(2) الذخيرة، ق٤م٢/١٧١.

(3) الصلة، ٦٠٤/٢، وأنظر: بُغية الوعاة، ١١٤/١.

(4) معجم الأدباء، ٤٣/١٩.

(5) المطرب، ص: ٧٢.

(6) فوات الوفيات، ٤١٠/٢، وأنظر: الوافي بالوفيات، ١٩٧/٣، والشعور بالعور، ص: ٦٠.

أبكار الأفكار:

وهو كتاب في الأدب يشتمل على ما اختاره من نظمه ونثره، وقد حدّثنا ابن شرف نفسه عن موضوع هذا الكتاب، فقال: ((... وقد كنت حاولت منه ما لم أسبق إليه، ولم أجعل سِوى ناظري معينيّ عليه، فصنّفت الكتاب الملقّب بـ "أبكار الأفكار"، يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال، وحكايات قصار وطوال، ممّا عزوتها إلى من لم يحكِها، وأضفت نسبها إلى من لم يحكها، وقد طرّزت بلمح الجد والهزل، وحسنت بمقابلة الضد للمثل.))[1]، ويشير ابن شرف إلى أنّ الكتاب من تأليفه هو، وأنّه لم يعتمد في تأليفه على أحد ممّن سبقوه أو عاصروه، فيقول: ((... ليس في ذلك كله رواية رَوَيتها عن قديم ولا جديد، ولا حُدّثت بها عن قريب أو بعيد.))[2]، ويشير إلى أنّه قد اتبّع في هذا الكتاب أسلوب السّجع فيما كتبه، فيقول: ((... وقد قدحت زَندَ الفِكر فأورى شرراً، وامتحنت قليب القلب فأجرى نهراً، فرقمت في هذا المجموع من الكلام المنثور المسجّع الأوساط والأطراف، والمنظوم المكلل بتيجان القوافي مما استنبطته، من ذوات صدري، واستنتجته من بنات فكري، فِقَراً ابتدعتها، وسجعتها، ومعاني حكايات اخترعتها، تطرّزها الأقلام، وترقم بها أردية الكلام، وهي بنات مؤلفها، وأسجاع مصنّفها.))[3].

وقد حدّثنا عن موضوع هذا الكتاب معظم الذين ترجموا لابن شرف يقول ياقوت: ((... أبكار الأفكار، جمع فيه ما اختاره من شِعره ونثره.))[4]، ويقول ابن دحيّة: ((... أبكار الأفكار في سفرين اختراع كله في الحِكَم والأمثال والنظم والنثر.))[5]. ويقول ابن شاكر والصفديّ في هذا الكتاب وموضوعه: ((... وهو كتاب حسن في الأدب يشتمل على نظم ونثر من كلامه.))[6]، ويقول حاجي خليفة: ((... أبكار الأفكار لمحمّد بن شرف بن سعيد الجُذاميّ القيروانيّ، جمع فيه نظمه ونثره.))[7]، ويقول البغداديّ: ((... له أبكار الأفكار نظماً وشِعراً.))[8].

---

(1) الذخيرة، ق٤م٢/١٧٩-١٨٠.

(2) المصدر نفسه، ص: ١٨٠.

(3) المصدر نفسه، ق٤م٢/١٧٧-١٧٨.

(4) معجم الأدباء، ١٩/٤٣.

(5) المطرب، ص: ٧٢.

(6) فوات الوفيات، ٢/٤١٠، والوافي بالوفيات، ٣/١٩٧.

(7) كشف الظنون، ١/٤.

(8) هدية العارفين، ٢/٧٢، وأنظر الأعلام، ٧/١٠.

ومن هذه الإشارات البسيطة نستطيع أن نقول: أن شاعرنا قد جمع في هذا الكتاب ما اختاره من نظمه ونثره، فدوّن فيه عُصارة تجاربه الطويلة مع الحياة، والناس والزمن، وقد أهدى ابن شرف هذا المؤلّف النفيس إلى باديس بن حبّوس[1] صاحب غرناطة، كما أهداه إلى المعتضِد عبّاد[2]، صاحب إشبيلية على ما ذكره ابن بسّام حيث يقول: ((... وطرّز تأليفه "أبكار الأفكار" باسم عبّاد، وبعث به إليه على البعاد، وكان وَسَمه قبل باسم باديس بن حبّوس.))[3].

ويبدو لي أنّ الكتاب كان قد نال إعجاب بعض الأدباء والوزراء الذين اطلعوا عليه فهذا ابن عبد البر الكاتب[4]، وزير المعتضد بالله -عبّاد- صاحب إشبيليّة، يعبّر عن إعجابه بهذا الكتاب، فيقول مخاطباً ابن شرف في رسالة جاء فيها: ((... وَرَد كتابك الأثير، فاقتضيت من النثر البديع، والنظم الرفيع؛ ما يهزّ أعطاف الضمائر، ويسري في حواشي الخواطر، وتتلقاه النفوس تلقي ارتياح إلى بدائعه، وفتنة بمباديه ومقاطعه، ولا غرو، فإنّك علم العلم الذي لم يزل يحوي قصب السبق في ميادينه، ويهدي اليانع الغضّ من رياحينه.))[5].

وهذا يعني أن أبكار الأفكار كان من مؤلّفات ابن شرف التي دخلت معه إلى بلاد الأندلس، إلاّ أنّ يد الزمن قد امتدت إليه، فكان الضياع حليفه، وفُقِد فيما فُقِد من مؤلّفاته التي لم يُكتب لها الحياة.

---

(1) وهو: باديس بن حبّوس صاحب غرناطة، قال ابن سعيد: "كان من أبطال الحروب وشجعانها، يُضرب به المثل في شدّة القسوة، وسفك الدماء، وكان على ما فيه من قسوة مُنْصِفاً حتى من أقاربه. المغرب، ٢٦٤/٢.

(2) وهو: عبّاد بن إسماعيل بن عبّاد اللخميّ الملقب بالمعتضد بالله، وَلِيَ الأمر بعد وفاة أبيه في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. أنظر: البيان المغرب، ٢٠٤/٣، والمعجب، ص: ١٥١، والشذرات، ٣١٦/٣، والحلة السيراء، ٣٩/٢، وفوات الوفيات، ١٤٧/٢.

(3) الذخيرة، ق٤م١/١٨٠.

(4) وهو: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبد البر بن عاصم النمريّ القُرطبيّ، وزر للمعتضد بالله -عبّاد- صاحب إشبيليّة، وكان موجوداً عنده حتى سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة. أنظر: القلائد، ص: ١٨٠-١٨١، والشذرات، ٣١٤/٣، والعِبَر، ٢٥٥/٣.

(5) الذخيرة، ق٤م١/١٨٠.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الكتاب كان موجوداً حتى سنة أربع وستين وسبعمائة للهجرة، إذ اطلع عليه العماد المتوفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة، غير أنّه لم يُشر إلى المكان الذي اطلع فيه على هذا الكتاب، فقال: ((... طالعت مصنّف محمّد بن شرف الموسوم بـ "أبكار الأفكار"، ومن منثور كلامه فيه ...))[1]، كما اطلع عليه ابن ظافر الأزدي المتوفى سنة ثلاث عشرة وستمائة للهجرة، وابن شاكر المتوفى سنة أربع وستين وسبعمائة للهجرة، وأمّا الذين جاءوا بعد هؤلاء من الذين ترجموا لشاعرنا فقد اكتفوا بالنقل عنهم، ولم يُشِر واحد منهم على الأقل إلى أنّه قد اطلع على هذا الكتاب أو نقل عنه.

أعلام الكلام:

لم يصل الينا من هذا الكتاب إلاّ تلك المقدمة التي حفظها لنا ابن بسّام في ذخيرته، وقد جاء فيها: ((... قد أطلتُ الوقوف بالعكوف على غير ما تصنيف في شتى الأنواع، فلم أرها إلاّ ولداً عن والد صحيحة وطارفاً عن تالد، فلا تكاد تُريكَ غريبة ولا شاردة إلاّ منقولة: بـ "حدثني فلان، وسمعت عن فلان"، والمؤلّفون قُصّاص بأقلامهم، وإن لم يقصّوا بكلامهم، وقد تكررت تواليفهم على الأبصار والأسماع، والمكرر مملول بالإجماع، وللنّفس صبابة بالغرائب، وإن لم تكن من الأطايب، لانفرادها عما سئمته القلوب، وتجافت به الجنوب، إلاّ أن الابتداع والاختراع عليهما باب بينه وبين الاستطاعة حجاب.))[2]، والكتاب بصورة عامة يتخذ من النوادر، والفوائد والمِلَح موضوعاً له، وهذا ما أكده ياقوت بقوله: ((... وأعلام الكلام: مجموع فيه فوائد ولطائف ومُلَح منتخبة.))[3]. وهو من مؤلفات ابن شرف التي لم تصل الينا، ولكننا نستطيع أن نقول: إنّه من مؤلّفاته التي اصطحبها معه إلى بلاد الأندلس والذي يؤكّد ما ذهبنا إليه هو ما ذكره العماد الذي يقول: إنّ أحد كتّاب المأمون بن ذي النّون وهو راشد بن عُرَيف قد أخذ هذا الكتاب عن ابن شرف في طُلَيطلة، وقد كان ذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة للهجرة[4]، وهذا يعني أنّ أعلام الكلام كان موجوداً مع ابن شرف في طُلَيطلة قبل أن تمتد إليه يد الضياع.

---

(1) الخريدة، ق٤ج٢/١١٠.

(2) الذخيرة، ق٤م٢/١٧٩.

(3) معجم الأدباء، ١٩/٤٣.

(4) أنظر الخريدة، ق٤ج٢/٧، والتكملة، ١/٣٢٤.

رسالة الانتقاد:[1]

وهي مقامة نقدية كتبها ابن شرف على لسان شخص خيالي أسماه: "أبا الريّان"، وقد اتبع فيها أسلوب السجع، وأثقلها بالمحسنات اللفظية والمعنويّة، وقد جعلها في مقدّمة وثلاثة مجالس، فتحدّث في المقدمة عن الغرض الذي أُلّفت من أجله، وعن صفات بطلها العلميّة والخلقيّة، فيقول: ((... هذه أحاديث مختلفة الأنواع في الأسماع، عربيّات المواشم، غريبات التراجم، واختلقت فيها أخباراً فصيحات الكلام، بديعات النظام، لها مقاصد ظراف، وأسانيد طراف، يروق الصغير معناها، والكبير مغزاها.))[2] ويشير في هذه المقدّمة أيضاً إلى أنّه اقتدى في تأليفها بمن سبقوه، فيقول: ((... واحتذيت فيما ذهبت إليه، ووقع تعريضي عليه مِن بثّ هذه الأحاديث ما رأيت الأوائل قد وضعته في كتاب كليلة ودمنة، فأضافوا حكمةً إلى الطير الحوائم، ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم، تتعلق به شهوات الأحداث، وتستعذب بثمره ألفاظ الحدّاث ...))[3]، وأمّا في المجلس الأول منها، فإنّه يتصدّى فيه لنقد طائفة من الشعراء الجاهليين والإسلاميين ممّن سبقوه أو عاصروه في المشرق والمغرب، وهذا واضح في قوله: ((... وجاريتُ أبا الريّان في الشعر والشعراء، ومنازلهم في جاهليتهم وإسلامهم، واستكشفته عن مذهبه فيهم، ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم ...))[4]، وفي المجلس الثاني من هذه المقامة يتوقف عند نقد الشعر، وقواعده، وأصوله، فيعرض لنا بعض المبادىء التي يجب على الشاعر أو النّاقد أن يراعيها في شِعره ونقدِه، فيقول: ((... قلت لأبي الريّان في مجلس عَقِبَ هذا المجلس، يا أبا الريّان، لقد رأيت لك نقداً مصيباً، ومرمى عجيباً، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيباً ...))[5]، وأمّا المجلس الثالث فقد جعله لرواية ما كان يستحسنه من الشعر، فيطلب من بطله أبي الريّان أن يروي له من مستحسن

---

[1] نشرها الأستاذ حسن حسني في مجلة المقتبس، م٦ ص: ٢٥٠، باسم "رسائل الإنتقاد"، ونقلها عنه الأستاذ محمّد كرد عليّ في رسائل البلغاء، ونشرها بهذا الاسم، أنظر: ص: ٢٢١، كما نشرها الأستاذ الخانجيّ باسم: "أعلام الكلام"، في كتاب مطبوع سنة ١٩٢٦م، وهي في مكتبة الاسكوريال باسم مقامة عن الشعراء، وتحمل الرقم: (٥٢٦).

[2] أعلام الكلام، ص: ١٣.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٣.

[4] المصدر نفسه، ص: ١٤.

[5] المصدر نفسه، ص: ٢٦.

الأشعار عنده، فيقول: ((... وطلبتني نفسي بمعرفة مذهب أبي الريّان في اختيار الشعر، وأغتنمت جودَه بما أردته، ووجوده متى طلبته، ... قلت اقتراحي على فهمك، وكرمك، أن تنشدني ولا تمل، وتملي عليّ ولا تكل من مُستحسن الأشعار عندك، ما أجمع بين ميزك فيه، ونقدك على الاختيار ...))[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ الآراء التي يدلي بها أبو الريّان بطل هذه المقامة الخياليّ، إنّما هي آراء ابن شرف نفسه، وقد صاغها على هذه الصورة، لتكون أكثر قبولاً، وأبدع في الأداء والتصوير.

وقد خُيِّل لبعض الدارسين أن "رسالة الانتقاد" هذه، و"أعلام الكلام" هما اسمان لكتاب واحد، وأنّ كتاب "أعلام الكلام" هو عينه "رسالة الإنتقاد"، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الخانجيّ الذي ذهب إلى القول في مقدمة ما نشره تحت عنوان "أعلام الكلام": ((... أعلام الكلام، الذي ننشره اليوم بين يدي القارىء الكريم، وقد سبق لأحد الأفاضل التونسيين، وهو حسن حسني عبدالوهّاب أنْ نشره في مجلة المقتبس تحت اسم "رسائل الإنتقاد" وقد خُيِّل لحضرته أنّ "رسائل الإنتقاد" هذه هي غير "أعلام الكلام" كما أشار بذلك في مقدّمته.))[2] ويشير في موضع آخر إلى هذه القضية، فيقول: ((نجزت "مسائل الإنتقاد" بلطف الفهم والإفتقاد، وهو "أعلام الكلام" لابن شرف القيروانيّ على لسان أبي الريّان، الصلت بن السكن من سلامان.))[3]، وإلى مثل هذا أو قريب منه ذهب الأستاذ ياغي حيث يقول: ((... "أعلام الكلام"، نشرها الخانجيّ، وهيَ هيَ "رسائل الإنتقاد".))[4] .

وأمّا نحن فنستطيع أن نقول: إنّ "رسالة الإنتقاد"، هي غير "أعلام الكلام"، ولدينا ما يدل على ذلك. فالذين ترجموا لابن شرف، وأثبتوا له هذه الرسالة، أشاروا إلى أنّ موضوعها يدور حول نقد الشعر والشعراء، فابن بسّام يقول: ((... ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصبّ فيها على قالبه، منها مقامة فيها بعض طول، لكنّه غير مملول، آخذة بطرف

---

[1] أعلام الكلام ص: ٤٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٢.

[3] المصدر نفسه، ص: ٤٦.

[4] حياة القيروان، ص: ٢٠٥.

مستطرف من أخبار الأدباء، وذكر الشعر والشعراء.))[1]، ويقول ياقوت: ((... ورسالة الإنتقاد، وهي على طراز مقامة نَقَدَ فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والإسلام.))[2]. يضاف إلى هذا أن ابن بسّام قد حَفِظ لنا ما جاء في مقدّمة أعلام الكلام[3]، ولم يُشر إلى أنّه قد ألّف في نقد الشعر والشعراء، ولكنّه أشار إلى أن موضوع مقامته هذه يدور حول ذلك، والرسالة بين أيدينا وليس فيها شيء مما أورده ابن بسّام في مقدّمة أعلام الكلام، كما حدّثنا ياقوت عن موضوع أعلام الكلام فذكر أنّه مجموع فيه مُلَح وفوائد، ونوادر كما تقدّم، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنهما كتابان مختلفان لا إسمان لكتاب واحد؛ كما خيل لبعض الدارسين.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الرسالة تكاد تكون الأثر الوحيد الذي وصل الينا من مؤلفات ابن شرف.

مجريات حياته وصلاته:

مرّت حياة ابن شرف في طورين أساسيين: الأول منهما يبدأ بولادته، وينتهي بخروجه من وطنه القيروان إلى صقليّة وبلاد الأندلس، والثاني منهما يبدأ بخروجه من القيروان، وينتهي بوفاته، وسوف نتتبّع حياة هذا الأديب الشاعر منذ ولادته في أواخر القرن الرابع، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في سنة ستين وأربعمائة للهجرة.

حياته في القيروان والمهديّة:

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ حياة ابن شرف الأولى وطفولته يكتنفهما الكثير من الغموض، وذلك بسبب إهمال المؤرّخين وكتّاب التراجم الذين عنوا بترجمة حياته، ونقل أخباره وأشعاره، إذ لم يتعرض واحد منهم على الأقل لهذه الأمور الهامّة من حياة شاعرنا، إنّما اكتفى معظم الذين ترجموا له بذكر اسمه، ومؤلفاته، وبعض أخباره وأشعاره متناسين الإشارة إلى نشأته الأولى وطفولته، الأمر الذي جعلنا نعود إلى شعره بالقراءة والتحليل علّنا نستطيع أن نعثر على شيء ذي بال، يرشدنا إلى مثل هذه الأمور التي أغفلها شاعرنا نفسه أيضاً في شعره ونثره.

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٩٦-١٩٧.

[2] معجم الأدباء، ١٩/٤٣.

[3] الذخيرة، ق٤م١/١٧٩.

ومهما يكن من أمر، فإن ابن شرف قد وُلِد في أواخر القرن الرابع الهجريّ، والقيروان في أوج ازدهارها العلميّ والثقافيّ حيث كانت زاخرة بالمعارف والعلوم، ودار العلم والأدب في تلك الفترة، فأمّها العلماء والأدباء من كل مكان لما سمعوه عن تشجيع أميرها للعلم والعلماء، فكانت القيروان بذلك قبلة لطلاب العلم والأدب حتى زَهَت على مصر، وعلى بغداد، والتقى فيها الأفذاذ من الفقهاء والأدباء والعلماء، وفي هذا يقول ابن رشيق:

كانَت تُعَدُّ القَيروانُ بِهِم إذا ... عُدّ المَنابِرُ زَهرَةَ البُلدانِ

وَزَهَت على مِصرَ وَحُقّ لَها ... تَزهو بِهِم، وَعَدَت على بَغدانِ[1]

وقد عمل وجود هذه النخبة من العلماء، والأدباء، والفقهاء على إحداث نهضة علميّة وفكريّة في العصر الذي ولِد فيه شاعرنا، ونفّقوا سوق العلم والأدب فيه إذ تفتحت عينا شاعرنا على هذه النهضة العلميّة والفكريّة الغنيّة بالعلوم والمعارف المتنوعة التي بثّها أولئك العلماء الذين أتصل بهم، وحصّل عنهم معظم علومه من لُغةٍ، ونحوٍ، وأدبٍ، وفقهٍ، حيث كان هؤلاء العلماء يعقدون مجالس العلم والأدب، ويبثون علومهم ومعارفهم في أبناء العصر إذ كانوا يختلفون إليهم؛ ليأخذوا العلم من نبعه الأصيل.

وإذا كنّا قد علمنا أن شبّان القيروان في ذلك العصر كانوا يجتمعون عند الحُصريّ ويأخذون عنه على ما ذكره ابن خلكان[2]، فإنّنا لا نستطيع أن ننكر أنّ ابن شرف الذي كان يُعدّ نفسه لخوض غِمار الشعر والأدب، كان يتخلى عن حضور مثل هذه المجالس، ومثل هذه الإجتماعات التي كان يعقدها شيخه أبو إسحق المعروف بالحصريّ مثلما تقدّم.

ولم يكن الأمر ليقتصر على مجالس الحصريّ هذه، بل أن ابن شرف -وهو حَدَثٌ- كان يختلف إلى حلقات اللغة، والنّحو، والفقه التي كانت تُعقد في تلك الفترة وهذا ما أكده ياقوت بقوله: ((... روى عن أبي الحسن القابسيّ، وأبي عمران الفاسيّ، وقرأ النّحو على أبي عبدالله محمّد بن جعفر القزّاز، وأخذ العلوم الأدبيّة عن أبي إسحق الحُصريّ.))[3].

---

[1] ديوان ابن رشيق، ص: ٢٠٦-٢٠٧.

[2] أنظر: وفيات الأعيان، ١/٥٤.

[3] معجم الأدباء، ١٩/٣٧، وأنظر: المعالم، ٣/١٩٤، والصلة، ٢/٦٠٤.

ففي مثل هذه البيئة العلميّة النّشِطة، وفي مثل هذا الجو الحافل بالعلم والعلماء والمعارف المتنوعة وُلِدَ ابن شرف ونشأ، فأخذ يُعِدّ نفسه، ليشارك في هذه النهضة العلميّة، ويَصل إلى وظيفة تكفل له عَيشاً كريماً، ومكانةً مرموقةً في مجتمعه.

ولمّا أحسّ ابن شرف أنّ ثقافته قد نَضَجت، وأنّ شاعريته قد اكتملت أخذ يتطلع إلى عمل رسميّ يشغله في دولة المعزّ بن باديس، إذ خصّه بمديحة نالت إعجابه، فألحقه بديوان مراسلاته الذي كان يضمّ أكثر من مائة شاعر بليغ مثل ابن شرف وابن رشيق، ويرأسه ابن أبي الرّجال الشيبانيّ، وكانت القصيدة التي تقدّم بها ابن شرف للمعزّ فألحقه بديوانه هي:

قِفا فَتَنَسّما عِطرَ النّسيم ... بِرَسمِ الدّارِ مِنْ بَعْدِ الرّسيمْ

أنيخا النّاعِجَينِ ولا تَروما ... فَما السّلوانُ بالأمرِ العظيمْ[1]

ولم يزل ابن شرف يتقرّب من المعزّ بن باديس بأشعاره ومدائحه حتى ضمّه إلى حاشية بلاطه، فأصبح من شعرائه وخلطائه المحببين إلى نفسه، المقرّبين منه، قال ياقوت: ((... وكان ابن شرف، وابن رشيق متقدّمين عنده على سائر من في حضرته من الأفاضل الأدباء.))[2]، وإليه وجّه ابن شرف معظم مدائحه وأشعاره التي قالها في هذه الفترة من حياته، إلاّ أنّ الزمن قد أتى على هذه المدائح، فلم يصل الينا منها إلاّ القليل[3]، وهذا أمر يدعو إلى التساؤل، إذ لا يمكن أن يكون ابن شرف، قد خصّ المعزّ بن باديس وليّ نعمته بهذه المدائح القليلة من الأشعار والمقطّعات وهو الذي تعهده برعايته وقرّبه منه، فكان لسانه الناطق باسمه، إلاّ إذا كانت تلك الأشعار، وتلك المدائح التي رفعها شاعرنا إلى المعزّ قد ضاعت فيما ضاع من شعره، وذلك بسبب النكبة التي أصابت القيروان على أيدي الأعراب الذين أتوا على حضارتها وتراثها الزاهر، فعلى ما يبدو أن ابن شرف قد فرّ بنفسه وعياله من القيروان، تاركاً وراءه كل ما يتصل بالمعزّ وبغيره فيها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ابن شرف كان من الأدباء والشعراء الذين شاركوا في شؤون الدولة والحكم، فكثيراً ما كان ابن شرف يتدخل في عزل قاضٍ أو توليته لدى المعزّ بن باديس، فيأخذ برأيه، ويفضّله على سواه، قال الدبّاغ: ((... لمّا توفي القاضي ابن هاشم خلّف ولداً خَلَفاً،

---

(1) إنباه الرواة، ٣٠٢/١.

(2) معجم الأدباء، ٣٧/١٩.

(3) أنظر: البيان المغرب، ٢٩٥/١-٢٩٦، إنباه الرواة، ٣٠٢/١.

وكان له أشياخ أحبّوا ولايته وراثة لخطة أبيه، فأشاروا على السلطان بذلك، ومال السلطان إلى قولهم، وكان خواص الناس ممّن عرف حقيقة هذا الولد قد عَظُمَ الأمر عليه، وتصوّر سوء المآل فيه، وكان محمّد بن شرف أشدّ الناس إنكاراً لولايته؛ لتخلّف الرأيّ وسوء الغلط فيه، قال: استخرت الله -تعالى- وأفردت النيّة، لابتغاء وجهه، فجعلت شِعراً أمدح السلطان، وأغالطه فيما شاء من توليته، فلمّا كانت ليلة اجتماع الناس لحضور توليته استأذنت على السلطان في إنشاد ذلك، فأنشدته على خلوة منه:

لله مِنْ يَومٍ أغرَّ سعيدِ مُتَميّزٍ مِن عَصرِهِ مَعدودِ

قال محمد بن شرف: فأنشدته حتى بلغت إلى قولي:

كانَ القضاءُ إراثةً فَرددتَهُ شُورى، فَفازَ بِحقّهِ المردودِ
يا فَضلَها مِن سيرةٍ عُمَرِيّةٍ هِيَ لِلعِبادِ رِضىً ولِلمعبودِ

قال: فلمّا بلغت في الإنشاد إلى هذا الموضع أكبّ السلطان على يده، وقد قبضها كالمطرق والمفاجأ بأمر يحتاج إلى الفكرة فيه، وتماديت في الإنشاد، والسلطان لم يزل على حاله فيما أحسب حتى أتممت الشعر، ... ثمّ رفع رأسه وقال لي: أصرف الشعر وأعد به غداً، ثم قم فأنشده في آخر المجلس، وإيّاك أن يعلم أحد بما أوجبت لك به، فانصرفت والناس يتواعدون إلى البكور إلى السلطان لحضور تولية ابن هاشم في ظنّهم، فلمّا كان في غد ذلك المساء، حضر الناس، وتهيأ ابن هاشم في خلعة القضاء، وتأهب للولاية، فلمّا استوى المجلس، دعا السلطان بابن أبي زيد[1] فقدّمه للقضاء بغتةً فما علم أحد بالأمر حتى كان.))[2].

وهذه الرواية إن دلت على شيء، فإنّما تدلّ على المكانة التي حَظِيَ بها ابن شرف عند المعزّ بن باديس، وعلى منزلته منه، وتدل على أنّ ابن شرف لم يكن يعيش في معزل عمّا يدور في عصره، ومجتمعه، فهو من الأدباء الذين التزموا بقضايا أمّتهم ومجتمعهم، فعبّروا عنها خير تعبير في شعرهم ونثرهم الذي كان صورةً صادقةً عن مجتمعهم.

---

(١) وهو: أبو بكر أحمد بن أبي محمّد عبدالله بن أبي زيد، روى كتاب التهذيب عن مؤلّفه أبي القاسم البراذعيّ، تولى قضاء القيروان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة للهجرة. أنظر: المعالم، ١٨٧/٣.
(٢) المعالم، ١٨٧/٣-١٨٨.

وعلى أية حال فإنّ ابن شرف، قد لزم المعزّ بن باديس وخدمه، وسخّر له شعره وأدبه إلى أن هاجم الأعراب القيروان، وأجبروا ابن باديس على مغادرتها رُغماً عنه، فغادرها إلى المهديّة، وقد خرج معه إليها شعراء الحضرة وخاصته، ولقد كان شاعرنا من بين هؤلاء الشعراء الذين خرجوا مع المعزّ وصاحبوه حتى بعد ضياع مُلكه. قال ياقوت: ((... ولم يزل ابن شرف ملازماً لخدمة المعزّ إلى أن هاجم عرب الصعيد القيروان، اضطر المعزّ إلى الخروج منها إلى المهديّة، فخرج ابن شرف، وسائر الشعراء معه، واستقرّوا بها.))[1]، وذلك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة على ما ذكره المؤرخون[2].

وهكذا فقد شاءت الظروف لشاعرنا أن يترك وطنه، ومسقط رأسه القيروان، وأن يلتحق بالمعزّ بن باديس ويقيم معه بالمهديّة، ويستمر في خدمته، وخدمة ولده ووليّ عهده الأمير تميم بن المعزّ، إلى أن تغيّر المعزّ عليه، وعلى أقرانه من الشعراء الذين أخلصوا له، وظلوا أوفياء حتى بعد زوال مملكته وانتقاله إلى المهدية، إذ أصبح المعزّ فيها ضيّق الصدر بالشعر والشعراء، فلم يَعُد يحفل بهم ولا بتلك المجالس التي كان يقيمها بالقيروان، ويدعو إليها مَن يحبّ من الأدباء والشعراء والعلماء؛ ذلك لأنّ همومه ومصيبته قد أنسته مجالسة الشعراء واستمالتهم، لا سيّما بعد تلك النكبة الفادحة التي أطاحت بملكه. فلمّا رأى ابن شرف من المعزّ ذلك التّغيّر، وذلك الازورار عن الشعر والشعراء، حمل نفسه وشخص إلى صقليّة، قال ياقوت: ((... فأقام ابن شرف مدّة بالمهديّة ملازماً خدمة المعزّ وابنه تميم، ثُمّ خرج قاصداً إلى صقليّة.))[3].

ابن شرف وابن رشيق في بلاط المعزّ بن باديس:

لم يكن ابن شرف وابن رشيق على خلاف في الرأي قبل أن يضمّهما المعزّ إلى خاصته، إنّما كانا على علاقةٍ وثيقةٍ، وعلى صداقةٍ حميمةٍ، إذ كانت هذه العلاقة وهذه الصداقة تدفع بهما إلى التّراسل والتّزاور في كل يوم، يقول ابن رشيق: ((... ولقد شهدته مرات يكتب القصيدة في غير مسودّة كأنه يحفظها، ثُمّ يقوم فينشدها، وأمّا المقطعات فما أحصي ما يصنع منها كل يوم

---

[1] معجم الأدباء، ١٩/٣٧.

[2] أنظر: الكامل في التاريخ، ٩/٥٦٩، البيان المغرب، ١/٢٩٤، تاريخ ابن خلدون، ٦/٣٢٦، الإتحاف، ١/١٣٩، الحلل السُندسيّة، ق٤ج١/٩٤١.

[3] معجم الأدباء، ١٩/٣٨.

بحضرتي صاحياً كان أمْ سكراناً.))[1]، ويقول في موضع آخر: ((وكان بيننا قبل أن يجذبنا ابن باديس إلى محل حرمه، ويشركنا في سابغ نعمه مكاتبات ومجاوبات.))[2]، ومن هذا يتضح لنا أنّ الصلة كانت بينهما قويّةً وثيقةً، وأنّ الواحد منهما كان يكتب لصديقه ويجيبه عمّا يكتب إليه.

وقد كان ابن شرف وابن رشيق حين اجتمعا في بلاط المعزّ بن باديس من أقرب شعراء الحضرة إلى نفسه، إذ كان يستدعيهما، إلى مجلسه، ليستمع إلى نظمهما عندما يفرغ من مشاغله السياسيّة، وأعباء الحكم، ومن ذلك ما أورده ابن ظافر على لسان شاعرنا حيث يقول: ((... واستخلانا المعزّ يوماً، وقال لنا: أريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشّعر الرقيق الخفيف الذي يكون على ساقي بعض النساء، فإني استحسنه، وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به، وكلهن قارئات كاتبات، فأحبّ أن أريهنّ هذا، وأدّعي أنّه قديم لأحتج به على من عابه، وأسرّ به من عيب عليه، فأنفرد كل واحد منّا، وصنع في الوقت فكان الذي قلته:

وبلقيسيّةٍ زينت بِشَعْرٍ	يسيرِ مثلما يهبُ الشّحيحُ
رَقيقٍ في خَدَلّجةٍ رَداحٍ	خَفيف مِثلَ جِسمٍ فيه رُوحُ
حكى زَغَبَ الخُدودِ وكل خَدٍّ	بِه زَغَبٌ فَمَعشوقٌ مَليحُ
فإنْ يَكُ صَرّحُ بَلقيسٍ زُجاجاً	فَمِن حَدَقِ العيونِ لَها صُروحُ[3]

وكان الذي قاله ابن رشيق:

يَعيبونَ بَلقيسيّةً أنْ رأوا لَها	كما قَد رأى مِن تِلكَ مِنْ نَصَبَ الصَّرحا
وَقَد زادَها التّزغيب مُلحاً كمثلِ ما	يَزيدُ خدودَ الغيدِ تَزغيبها مُلْحا[4]

وليس هذا فحسب، بل أنّ المعزّ كان يقوم بدور الحَكَم في تلك المجالس، والمناظرات، فكثيراً ما كان يفضّل أحدهما على الآخر، ومن ذلك ما أخذه على ابن رشيق حينَ قال: ((يَعيبون)) وعلق قائلاً: ((... قد أوجدت لخصمها حُجّةً بأن بعض الناس عابه، وهذا نقدٌ ما كنت فطنت

---

[1] مسالك الأبصار، جـ١١/٢٤٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٤١.

[3] البدائع، ص: ٢٤١، وأنظر: المطرب، ص: ٧٤-٧٥.

[4] البدائع، ص: ٢٤١، وأنظر: المطرب، ص: ٧٥، وديوان ابن رشيق، ص: ٥٤.

له.))[1]، ومن أجل ذلك فقد دبّ التنافس والتسابق بينهما، فتنافسا، وتسابقا، ليثبت كل واحد منهما لسيدّه ومولاه أنّه أفضل وأجود من منافسه وقرينه، وعلى ما يبدو أنّ المعزّ بن باديس نفسه كان حريصاً كُل الحرص على أنْ يجمع الشعراء والأدباء مِن حوله، وأنْ يقرّبهم منه، ولكنّه لم يكن ليكتفي بهذا، بل كان يدفع بهم إلى التّسابق في الإجادة والمباراة في الإتقان فيما يقترحه عليهم من أغراض للقول مثلما كان يبعث فيهم روح التنافس والتّسابق، فكان يساجِلُ بعضهم بعضاً، ويناظره فيما يفرضه عليهم ويطلب إليهم القول فيه، ليعمل على شحذ القرائح، ومن أجل هذا فقد كان المعزّ يقرّب منه شاعرنا مرّة، ويقرّب ابن رشيق في مرّة أخرى، قال ياقوت: ((... كان المعزّ يقرّب هذا تارةً، ويُدني ذلك تارةً أخرى، فتنافسا، وتنافرا، ثمّ تهاجيا.))[2].

وهكذا فقد كان التنافس بين ابن شرف وابن رشيق في بلاط المعزّ بن باديس، إذ أذكاه المعزّ؛ لينعم بثماره ونتاجه تارةً، وتشعله الرغبة في التقدم، والسّبق تارةً أخرى، فكل واحد منهما يريد أن يتفوّق، وأن يصل إلى جانب السلطان، وأن يتقرّب منه بنظمه ونثره؛ لينال العطاء الجزيل، والهبات الطائلة.

وقد حاول كل واحد منهما أنْ يجسّد منافسته لقرينه فيما ألّفه من رسائل وأشعار، ليُظهِر براعته، وتفوّقه على خصمه. يقول حسن حسني عبدالوهّاب: ((... وقد خصّص المعزّ لصحبته من بين هؤلاء الزُعماء المتقدّمين ابن شرف هذا، وابن رشيق، فكان يلتفت تارةً إلى الأوّل، وأخرى إلى الثاني، وجرى بسبب ذلك بين هذين الأديبين مناقضات، ومهاجاة رسمها كل منهما في رسائل مستقلة، ومقامات متنوّعة، لم يصل إلينا منها شيء فيما نعلم.))[3]، ويقول ابن شاكر: ((... ولابن رشيق فيه عدّة رسائل يهجوه فيها، ويذكر فيها أغلاطه وقبائحه ومِنها: رسالة: "ساجور الكلب"، ورسالة: "قطع الأنفاس"، ورسالة: "نُجح الطلب"، ورسالة: "رفع الإشكال ودفع المحال"، وكتاب: "فسخ المُلَح، ونسخ اللّمح".))[4]. إلاّ أنّ هذه الرسائل التي كتبها ابن رشيق لم تصل إلينا، مثلما لم تصل الينا الأشعار التي كتبها ابن شرف في الردّ على ابن رشيق.

---

(1) البدائع، ص: ٢٤٢، وأنظر: المطرب، ص: ٧٥.

(2) معجم الأدباء، ١٩/٣٧.

(3) رسائل البُلغاء، ص: ٢٣٣، والمقتبس، م٦/٣٥٢.

(4) فوات الوفيات، ٢/٤١٠، وأنظر: الوافي بالوفيات، ٣/٩٧، والبساط، ص: ١٣٣.

وعلى أيّة حال، فإنّ الرسائل التي ألّفها ابن رشيق في الردّ على ابن شرف تصوّر لنا تلك المعاناة الشديدة التي كان ابن رشيق يجدها من قرينه ومنافسه ابن شرف في بلاط المعزّ بن باديس.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ابن شرف وابن رشيق لم يتغيّرا على بعضهما البعض، على الرُغم من تلك المناقضات والمساجلات التي أشار إليها القدماء[1]، والذي يؤكد ما ذهبنا إليه هو تلك الرسائل والخطابات التي تبادلها ابن رشيق وابن شرف عندما كان ابن شرف في صقليّة وقد تشوّق إلى ابن رشيق، وإلى تلك الأيام والذّكريات التي قضياها معاً بالقيروان قَبْلَ خرابها، حيثُ كان ابن رشيق بالمهديّة في هذه الأثناء، ومن ذلك تلك القصيدة التي بَعَث بها ابن شرف إلى قرينه ابن رشيق، وقد قدّمها القفطيّ بقوله: ((... وكان بين ابن رشيق وبين ابن شرف الشاعر مباينة بعد مواصلة، وذلك أنّهما كانا شاعري حضرته، ودخلا إليه، واتّصلا بخدمته في وقت واحد، وكان ابن شرف مِمّن لا ينكر حذقه ولا يدفع في هذا النوع صدقه، ولم يزل بينهما مكاتبات ومخاطبات، فَمِنْ شعر ابن شرف قصيدة كتب بها إلى ابن رشيق وهو بالمهديّة يتشوّقه أوّلها:

عَدِمْناكَ مِنْ بُعدٍ وإنْ زدتنا قُربا ... على أن فيما بيننا سبْسباً سَهْبا

وكتب إليه ابن رشيق قصيدته التي مطلعها:

عِتاباً عسى أنّ الزمان لَه عُتبى ... وَشَكوى فَكَم شكوى ألانَت لنا قَلبا
إذا لم يَكُن إلاّ إلى الدمعِ راحةٌ ... فَلا زال دَمعُ العَينِ مُنْهَملاً سَكبا))[2]

وهذه المراسلات والأشعار التي دارت بينهما إنْ دلت على شئ فإنّما تدل على أنّ العلاقة التي تربط بينهما كانت وطيدةً قويّةً لا تتأثر بما يحدث بينهما.

ثمّ إنّ ما حدث بين شاعرنا وقرينه ابن رشيق ما هو إلاّ نتيجة طبيعية لتلك الظروف، ولذلك الجو الذي جمعهما معاً في بلاطٍ واحدٍ حافلٍ بالتّنافس والتّسابق، حيث اجتمعا على هدف واحد، وغاية واحدة، فقادهما ذلك إلى التّنافس، وإلى الاختلاف في الرأي، ومع ذلك فقد ظلت العلاقة فيما بينهما حميمةً طيبةً، وهذا ما يؤكده ياقوت بقوله: ((... ولكن لم يتغيّر أحدهما على

---

[1] أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٧٠، ق٤م٢/٥٩٨، ومعجم الأدباء، ١١٢/٨، وفوات الوفيات، ٤١٠/٢، والوافي بالوفيات، ٩٧/٣.

[2] إنباه الرواة، ٣٠٢/١، وأنظر: ديوان ابن رشيق، ص: ٤٠.

الآخر بما جرى بينهما من المناقضات.))[1]، وقد ردّ ابن شاكر هذا الخلاف في الرأي إلى التعاصر، فقال: ((... وكان بينه وبين ابن رشيق مهاجاة ومعاداة جرى الزمان بها كعادته بين المتعاصرين.))[2].

ومما يدلل على طيب العلاقة التي كانت بينهما، أنّ ابن شرف عندما عزم الأمر على الرحيل إلى بلاد الأندلس، كان قد طلب من ابن رشيق أنْ يرافقه إليها، إلاّ أنّ ابن رشيق لم يجبه إلى طلبه واعتذر عن ذلك، لأن المقام بصقليّة قد طاب له، وفي هذا يقول ابن بسّام: ((... بلغني أنه استنهض صاحبه ابن رشيق في أنْ يجتمعا بالطريق، ويجوزا معاً إلى الأندلس، فأنشده ابن رشيق:

مِمّا يُبغِضُنِي في أرض أندلُسٍ ... سَماعُ مُقْتَدِرٍ فيها وَمُعتَضِد
ألقابُ مَملَكةٍ في غَيرِ مَوضِعِها ... كالهِرِّ يَحكي انتفاخاً صورَةَ الأسدِ

فأنشد ابن شرف:

إن تُرمِكَ الغُربَةُ في مَعْشَرٍ ... قَدْ جُبِلَ الطبعُ على بُغضِهِمْ
فَدارِهِم ما دُمتَ في دارِهِم ... وأرضِهِم ما دُمتَ في أرضِهِم.[3]

وكأنّي بابن شرف قد حاول أنْ ينسى كل ما حَصَل بينه وبين ابن رشيق بالقيروان مِن قَبلُ، فعلى ما يبدو أنّ الخلافات الشخصيّة التي كانت بين شاعرنا وقرينه ابن رشيق قد تضاءلت وعَصَفَت بها تلك الحالة من الخرابِ والدمار التي أصيب بها وطنهما، فَنَسيا كل ما بينهما من خلافات ومشاكل.

يضاف إلى ما تقدّم أنّ الهجاء في ذلك العصر كان يُتّخذ للهو، وقتل الفراغ، والتّندّر، ومن ذلك ما أورده ابن ظافر حيث يقول: ((... واجتمع أبو عبدالله بن شرف يوماً بأبي عليّ بن رشيق، فوصف له منزلاً ضيقاً كان فيه، ثُمّ صنع في صفته، فقال:

ومَنزِلٍ قَبّحَ من مَنزِلٍ ... النّتنُ والظلمةُ والضّيقُ

---

[1] معجم الأدباء، ٣٧/١٩.

[2] فوات الوفيات، ٤١٠/٢، وأنظر: الوافي بالوفيات، ٩٧/٣.

[3] الذخيرة، ق٤م١٧٢/١، وديوان ابن رشيق، ص: ٥٩-٦٠.

كأنّني فـــــي وَســطِهِ فيشَةُ ... ألوطـه والعَـرقُ الرّيـــــــقُ

وكان ابن شرف أعور أصلع فقال ابن رشيق:

وأنـت أيضاً أعـورٌ أصلــــــعٌ ... فوافَـقَ التّشبيــه تحقيـــــقُ[1]).

وليس هذا فحسب، بل إن الواحد منهم في ذلك العصر كان يهجو نفسه وأصدقاءه عندما لا يجد من لا يهجوه، ويتندّر عليه، قال الصفديّ: ((... قال أبـو علـيّ بـن رشـيق وكـان أحول فـي نفسه، وفي الطوسيّ الشاعر الأعمى، وفي محمّد بن شرف الأعور:

لا بدّ في العُورِ مِنْ تيه ومِن صَلَفِ ... لأنّهم يَنظـرون النـاسَ أنصافـــا

وكـلُّ أحـولَ يلفـى ذا مكارمـــةٍ ... لأنّهم ينظـرون النـاس أضعافـــا

والعُمْيُ أولى بحالِ العُورِ لو عَرفوا ... على القياس ولكنْ خافَ مَنْ خافا[2]

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه المناظرات، وهذه المساجلات والمنافسات التي كانت بين ابن رشيق وابن شرف، وبين العلماء والأدباء الذين عاشوا في ذلك العصـر، قد عملت على تشجيع الحركة العلمية والفكريّة فيه، فكان لها أثر كبير علـى العلم والأدب، إذ عـادت علـى أفريقيّـة فـي ذلك الوقت بأطيب النتائج والآثار، وهذا ما عبّر عنه الأستاذ حسن حسني بقوله: ((... وكثيراً مـا كان المعزّ يظهر الميل إلى أديب دون آخر، أو يُنشب بين شاعرين فيقع بينهما تنـافس أدبـيّ ينشـأ عنه تسابق في اختراع المعاني وتوليد المبتكرات، وحصل بسبب هذه المنافسات نهوض في سـوق الأدب، وظهرت حركة علميّة فكريّة اجتنت أفريقيّـة مـن ثمراتهـا اليانعـة، مـا يحـق لهـا الافتخـار به.))[3].

ابن شرف في صقليّة:

لمّا رأى ابن شرف تغيّر المعزّ على الشعراء والأدبـاء الذيـن لَحِقـوا بـه إلـى المهديّـة بعد خراب مملكته على يد الأعراب، وتـردّد عليـه فَلَقـي منـه إنقباضـا عـن الأدب والأدبـاء، وعزوفـاً

---

[1] بدائع البدائع، ص: ١٢١، والوافي بالوفيات، ٩٧/٣، وديوان ابن رشيق، ص: ١٢١.

[2] الغيث، ٣٨٨/٢، وأنظر: ديوان ابن رشيق، ص: ١١٦.

[3] البساط، ص: ٨٤–٨٥.

عنهم، قرّر أن يذهب إلى صقليّة حاضرة ابن منكود[1]، لا سيّما بعد ما سمعه عن هذا الأمير من إكرام للأدباء والشعراء، فَحَمَل نفسه وأهله، وانطلق إليها راكباً البحر، وهذا واضح من قوله:

وطَوراً على مَوْجِ البَحارِ كأنّنـــا   قَـذىً قد وَثِقنا أنّنا ليسَ نَغـرَقُ[2]

وهذا ما أكده لنا الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب حين قال: ((... وأقام ابن شرف بالمهديّة مع زُمْرَة شعراء الملك يخدم الأمير المعزّ وابنه تميماً إلى أن رحل عنها قاصداً جزيرة صقليّة، لمّا سمع عن كرم أميرها.))[3].

وعلى ما يبدو أنّ ابن شرف قد سبق ابن رشيق إلى صقليّة، إذ لم تُشِر المصادر إلى أنّهما خَرَجا من المهديّة إلى صقليّة معاً، يقول ابن بسّام: ((... وكان ابن شرف قد سبقه إليها، ووفد قبله عليها.))[4].

وهناك في صقليّة يتشوّق ابن شرف إلى رفيق صباه ونديم عمره ابن رشيق، ويخاطبه من صقليّة قائلا:

عَدِمْنـاكَ مِنْ بُعدٍ وإنْ زدتنـا قُرْبـاً   على أن فيمـا بيننـا سبَبَاً سَهْبـا

فيرد عليه ابن رشيق من المهديّة قائلاً:

عِتابـاً عسى أنّ الزّمـان لَـه عُتبى   وَشَكوى فَكَم شَكوى ألانَت لنا قَلبا[5]

ويلحق ابن رشيق ابن شرف إلى صقليّة، ولا سيّما عندما أمر المعزّ بتمزيق قصيدته، وحرقها، يقول ابن بسّام: ((... لمّا طلع نجم النحوس بِمُلك المعزّ بن باديس، وخرج إلى المهديّة بسماء كاسفة الأقمار ...، كان أبو عليّ مِمّن انحشر في زمرته المحروبة، وتحيّز إلى فئته المغلوبة المنكوبة، فأقام معه بها، أنفة من الجلاء، وإشفاقاً من فرقة الأحبّة والخلصاء، وغشي

---

(1) وهو: القائد أبو محمّد الحسن بن عمر بن منكود، الذي استقل بمآزر، وهو من ملوك الطوائف في صقليّة. أنظر: تاريخ ابن خلدون، ٤/٢١٠، والمكتبة الصقليّة، ص: ٥٩٦.

(2) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٢.

(3) رسائل البُلغاء، ص: ٢٣٥.

(4) الذخيرة، ق٤م٢/٥٩٨.

(5) أنظر: إنباه الرواة، ١/٣٠١.

المهديّة اسطول الرّوم ....، فدخل يومئذٍ على المعزّ حين وضح الفجر، وقد تمّ الذعر، وضاق الصدر، فوجده في مصلاه، والرّقاع ترد عليه، فقام على رأسه ينشده:

تَثَبّت لا يُخامِرك اضطـــــرابُ فقَـد خَضَعَت لِعِزّتك الرّقـــــاب

فقال له: مه، أحال عهدك أم تغيّر، أم قد أدبر بك الزّمان فيما أدبر؟ ويلك! متى عهدتني لا أتَثَبّت؟ إذا لم تَجئنا إلاّ بمثل هذا، فمالك لا تسكت عنّا؟، وأمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزّقت.))[1].

وعندما وصل ابن رشيق إلى صقليّة، وأقام بها، حاول مَن كانوا في بلاط ابن منكود من الخلطاء والجلساء أنْ يدفعوا ابن شرف وابن رشيق إلى التناظر والتّنافس فيما بينهما، حتى تقوم المناظرات والمساجلات بينهما، مثلما كانت عليه بالقيروان، ليعملوا على ترويج الأدب ويستمتعوا بما يصدر عنهما من نظم ونثر. ومن أجل هذا فقد حاولوا أنْ يوقعوا بينهما لولا مَن تدخل من أهل القيروان، وعمل على تهدئة الأوضاع بينهما، فحسم الخلاف الذي كاد أن يقع بينهما بفعل السعاة والمغرضين، يقول ابن بسّام: ((... فلمّا اجتمعا يومئذ بصقليّة تنمّر بعضهما لبعض، وتشوّق أعلام البلد لما كان بينهما من إبرام ونقض، وقصد ابن رشيقٍ بعض إخوانه، وقال له: أنتما علما الاحسان، وشيخا أهل القيروان، وقد أصبحتما بحال جلاء، وبين أعداء، والأشبه بكما ألاّ تفريا أديمكما، ولا تُطعما الأعداء لحومكما، فقد كان يحميكما السلطان، ويمحو كثيراً من مساويكما الأخوان.))[2].

وقد رضي ابن شرف بهذه الوساطة، فالتزم جانب الحياد، ولم يتعرّض لابن رشيق، بل جَنَح إلى السلم، وعاهد مَن توسّط بينهما على ذلك، يقول ابن بسّام: ((... فقال ابن رشيق: إيت ابن شرف فخذ عهده بذلك، فلست أنا أراجعك فيما هنالك، فأتاه وكان امرأ صدق، فوجده أجنح للسلم، وأدنى إلى الحلم، برئ إليه من صببه وصعده، وأعطاه على الوفاء بذلك صفقتي لسانه ويده.))[3]. وأمّا ابن رشيق فكثيراً ما كان يتعرّض لشاعرنا محاولاً بذلك إثارته، مستغلاً منزلته من ابن منكود، ولكنّ ابن شرف التزم بعهده الذي أخذه على نفسه، يقول ابن بسّام: ((... فكان

---

(1) الذخيرة، ق٤م٢/٥٩٨، وأنظر: المسالك، ج١١/٢٣٩، وديوان ابن رشيق، ص: ٢٤.

(2) الذخيرة، ق٤م٢/٥٩٩.

(3) الذخيرة، ق٤م٢/٥٩٩.

ابن رشيق بعد ذلك ربّما أعرض وعرّض، وتحلب إلى شيء من تلك الهنّات أو تلمظ، وأمّا ابن شرف فلم يحلّ ما عقد، ولا حال عمّا عهد.))[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ ابن رشيق في صقليّة قد نال حظوة كبيرة، ومكانة مرموقة عند أميرها ابن منكود، فكان الأقرب إلى نفسه من ابن شرف، حيث أصبح ابن رشيق من خاصّته المقرّبة، وقرأ عليه كتبه، يقول القفطيّ: ((... ونزل مازر إحدى مدنها على أميرها ابن منكود، فأكرمه، واختصّه، وقرأ عليه كتبه، ومن جُملة ما رأيته مِن قراءاته عليه كتاب العمدة في صنعة الشعر، وهو أجلّ كتبه وأكبرها، ورأيت خطّ ابن رشيق على نسخة منها، ولم يزل عنده إلى أن مات بمازر.))[2]، وأمّا ابن شرف فقد قرّر أنْ يغادر صقليّة إلى الأندلس، ولا سيّما عندما أحسّ أنّه لم يلق من الاهتمام بمؤلفاته وكتبه ما لقيه ابن رشيق عند أمير صقليّة، إلاّ أن وفاءه يأبى عليه أن يغادر صقليّة، وفيها رفيقه ابن رشيق[3] خاصة بعد أن تسامحا، وهدأت الأوضاع بينهما، وتصافيا، يقول حسن حسني عبدالوهاب: ((فلمّا اجتمعا بصقليّة تسامحا، وأقاما بها زمناً، ثُمّ استنهض يوماً ابن شرف رفيقه، على جواز الأندلس.))[4].

وعلى أيّة حال، فإنّ ابن رشيق قد طاب له المقام في صقليّة، واعتذر لابن شرف قائلاً:

مِمّا يُبغِضُني في أرض أندلسٍ سَماعُ مُقْتَدِرٍ فيها وَمُعتَضِدِ[5]

الأمر الذي دفع بابن شرف إلى الشخوص وحده إلى الأندلس، يقول ياقوت: ((... ثم شَخَص ابن شرف منفرداً إلى الأندلس، وسكن المريّة.))[6]، ويبدو لي أنّ ذلك كان في حدود سنة أربع وخمسين وأربعمائة للهجرة؛ لأنّ ابن رشيق فيما نعلم لَحِق به إلى صقليّة في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة للهجرة[7] واقاما فيها معاً قبل أن يشخص ابن شرف إلى الأندلس.

---

(1) إنباه الرواة، ١/٣٠٣.

(2) إنباه الرواة، ١/٣٠٣.

(3) أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٧١-١٧٢.

(4) رسائل البُلغاء، ص: ٢٣٥، والمقتبس م٦، ص: ٣٥٤.

(5) الذخيرة، ق٤م١/١٧٢.

(6) معجم الأدباء، ١٩/٣٨، أنظر: الصلة، ٢/٦٠٤، والمعالم، ٣/١٩٣.

(7) أنظر: البساط، ص: ٩١.

ابن شرف في الأندلس:

لمّا وصل ابن شرف إلى الأندلس حيث ملوك الطوائف، أخذ يتطلع إلى بلاط يأوي إليه، ويستقرّ فيه بعد تلك الرحلة الطويلة التي قام بها بعد خراب وطنه، وخروجه من صقليّة، فأخذ يفكر باديء ذي بدء ببلاط المعتضد بالله -عبّاد- صاحب إشبيليّة في ذلك الوقت، محاولاً أنْ يتصل به، فيخصّه ببعض أشعاره ومدائحه، ويبعث بها إليه مع الرسل إلى إشبيليّة مع رقعة من نثره بعث بها إلى وزيره ابن زيدون، يقول ابن بسّام: ((... وكان أول ما بعث إلى المعتضد بإشبيليّة خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون.))[1].

وفي الرّقعة التي أرفقها مع القصائد يحاول ابن شرف أن يعلل عدم قدومه إلى الحضرة بنفسه مع قصائده لسبب لا يكشف عنه، فيقول: ((... وقد كانت النيّة، لو تمّت الأمنيّة، حضوري بذاتي، فمنع من المُراد مانع، ودفع بيد الأقدار دافع.))[2].

ويلوح لي أنّ ابن شرف عندما أرسل هذه القصائد، وهذه الرّقعة لم يكن بإشبيليّة، ولذا فقد أرسلها مع رسول وكلّه بها، وهذا واضح في قوله: ((... ولمّا صار الفعل الماضي مستقبلاً، وبقيت للحاق مؤمّلاً، وكلّت بهنّ ذا محرمهنّ، وائتمنت عليهنّ الشيخ أبا فلان.))[3].

وقد حاول المعتضد أنْ يستحثّ ابن شرف على القدوم إلى إشبيليّة، إذ كلّف ابن عبد البرّ بذلك، بعد أن أرسل إليه ما يستعين به على الوصول إليه، وهذا واضح في قول ابن عبد البرّ مخاطباً ابن شرف: ((... فاقصد قصده، تحلّ بطائل الإفادة، وأمّه وحده، تحطّ بنائل الرفادة، ولا تبع في سوق الكساد، فالنّفاق أمامك، ولا تسم بضاعتك، فالسوق قدّامك ...، وقد خاطبك مستقدماً، وجدّ معتزماً، ووجّه نحوك شيئاً يكون من زادك إليه، ويعين على مؤنة طريقك في قدومك عليه، وذلك ثلاثون مثقالاً من ضرب السكة قبلة، ولم يُرِد منها غير ما أعلمك، حتى توافي -إنْ شاء الله- فتستوفي.))[4].

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/١٧٢.

(2) المصدر نفسه، ق٤م١/١٧٢.

(3) المصدر نفسه، ق٤م١/١٧٢.

(4) المصدر نفسه، ق٤م١/١٧٥.

ولكنّ ابن شرف يمتنع عن الذهاب إلى إشبيليّة، ويرفض أنْ يلبّي هذه الدعوة، إذ يكتفي بإهداء كتابه المعروف بـ "أبكار الأفكار" إلى المعتضد عبّاد، لينال عطاءه الجزيل، يقول ابن بسّام: ((... فتوقّف ابن شرف عن القدوم بقدمه، وكلّف ذلك سنّ قلمه، وطرّز تأليفه "أبكار الأفكار" باسم عبّاد وبعث به إليه على البعاد.))[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ المعتضد عبّاد لم يفقد الأمل في قدوم ابن شرف إلى حضرته، ولذا فقد أرسل إليه صلة أخرى مع الرسل عندما وصله كتابه، وقال له: إنّ الحسّاد والمغرضين هم الذين أقنعوه بعدم الاتصال به، وهذا واضح في قوله: ((... لولا من جلا لك الغشّ في بعض النصيحة إذ حسد، ولم يشك فيما ترد عليه من صلاح الحال، فلم يأل أنْ أفسد، ولا بدّ لعقارب الحسدة من دبيب، وما كل مؤت نصحه بلبيب، ولك مع توقفك لدي المحل الكريم.))[2].

ومع ذلك فإنّ شاعرنا لم يتصل به عن قرب، ولم يجتمع معه في مكان واحد، كما أنّه لم يزر إشبيليّة، ولم ينزل فيها، وهذا واضح في قوله:

لولا هُمُ لَحَجَجتُ أوّلَ حِجَّةٍ ... حَرَمَ الكِرام وَطالَ فيه طَوافِي
ولَزُرتُ حِمصَ[3] الغَربِ أغربَ زائرٍ ... بِغرائِبٍ كالحُلّة الأفوافِ[4]

وإلى مثل هذا ذهب ابن بسّام حيث يقول: ((... وكان ابن شرف هذا ممن فَهم منحاه، وصمّ عن رقاه، فلم يجتمع مع عبّاد في صعيد ولا أهدى له السّلام إلاّ من بعيد.))[5].

ونحن نستطيع أن نردّ التخوف الذي كان في نفس ابن شرف من عبّاد لما كان يسمعه عنه من غدر بمن يتصلون به من الخلطاء والندمان، وتنكيل بهم، فَخشي ابن شرف على نفسه أنْ يتورّط في علاقة مع عبّاد، فيطيح به، وينكل به، يقول ابن شاكر: ((... ولمّا وفد أبو عبدالله بن

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٧٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٨٠.

[3] حمص الغرب: إشبيليّة، يقول الحميري: ((... وإشبيليّة بالأندلس تسمّى حمص أيضاً.)) الروض المعطار، ص: ١٩٩، وأنظر: البيان المغرب، ١٩٣/٣.

[4] الذخيرة، ق٤م١/٢٢١.

[5] المصدر نفسه، ص: ١٧١.

شرف القيروانيّ على الأندلس، تطلعت إليه همّ ملوكها، ليعد صيته، فكان ممّن استدعاه المعتضد، وكان ابن شرف قد امتلأت مسامعه من أخبارِه الشنيعة، فجاوبه بقوله:

أإن تَصيّدتَ غَيري صَيْدَ طائِرةٍ أوْسَعتَها الحَبَّ حتى ضَمّها القَفَصُ
حَسِبتني فُرصَةً أخرى ظَفَرتَ بها هَيهاتَ ما كُلُّ حينٍ تُمكِنُ الفُرَصُ
وَظاهرٌ حَسَنٌ أيضاً لِقِصتِها لكنْ لَها باطِنٌ في طيّهِ قِصَصُ
لَكَ المَوائِدُ للقصّاد مُتْرَعَةٌ تُروي وتُشبِعُ لكنْ بَعدَها غُصَصُ
ولَستَ أعجَبُ مِنْ قَومٍ بها انتَشَبوا لكنّما عَجَبي مِنْ مَعشَرٍ خَلَصوا
ولَم يَطِب قَطّ لي مَنٌّ يَلَذُّ ولا سَلوى إذا كانَ في عُقباهُما مَغَصُ[1]

وقد عقّب ابن بسّام على هذه الأبيات بقوله: ((قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازورار ركنه، وخشونة حَزبِه، فأضرب عن ضربه، ولم يتعرّض للنشبة في حبائل نشبه؛ خوفاً أنْ يورّطه الهوى في هوان، ويَسقُط العشاء به على سرحان، ويطيح في جملة من طاح على يديه من الخلطاء والندمان.))[2]. ويقول ابن بسّام في عبّاد: ((وكانت لعبّاد همّة في اصطحاب الأحرار، واستجلاب ذوي الأخطار، ينصب لذلك الحبائل، ويعمل فيه الحق والباطل، حتى إذا عَشَوا إلى سرجه، وأغترّوا بزبرجه، سامهم ردّ قبيس على أبيه، وأخذهم بالسعاية بين الفرقد وأخيه، فمن أعياه منهم ركوب الصعاب، وعضه التقلّب بين المضايق والرّحاب، عزّه في الخِطاب، وأطاع به سلطان الإرتياب.))[3]، ومن أجل ذلك فقد تحاشاه ابن شرف، وامتنع عن الاتصال به، وعن الاجتماع به في مكان واحد.

ولمّا أيقن ابن شرف أنّ الذهاب إلى بلاط المعتضد عبّاد بإشبيليّة غير ممكن لما تقدّم، اتجه إلى غرناطة حاضرة بني زيريّ في تلك الفترة، وهذا واضح في قوله: ((... ثمّ سفر لي الدهر عن سفر إلى مغرب الدنيا ومشرق العليا، والبقعة المباركة الباديسيّة، والدولة المظفريّة، والمملكة الشامخة الحميريّة، والحضرة الشريفة المنيفة الغرناطيّة.))[4].

---

(1) فوات الوفيات، ١/١٤٧، وأنظر: الأبيات في الذخيرة، ق٤م١/١٨٢.
(2) الذخيرة، ق٤م١/١٨٢.
(3) المصدر نفسه، ص: ١٧٠-١٧١.
(4) المصدر نفسه، ص: ١٧٧.

وفي غرناطة يتصل بباديس بن حبّوس، ويهدي إليه كتابه المعروف بـ "أبكار الأفكار"[1]، وعلى ما يبدو أنّ مقامه بغرناطة لم يَطُل، إذ غادرها متجهاً إلى قرطبة حاضرة بني جهور، وهذا واضح في قوله:

وقُرطبةٌ ضَمّتْ إليها جَوانِحي ... كما ضَمَّ مِنْ عَفراءَ عروَةَ تَعنيقُ
نَزَلنا بِها لا نَبْتَغي السُّوقَ عِندَها ... فَما كانَ بُدٌّ أنْ أقيمَت لنا سوق[2]

وبقرطبة يتصل ابن شرف بمدبّر الحكم الجهوريّ ابن السقّاء[3]، ويخصّه ببعض مدائحه وأشعاره، ومن ذلك قوله:

وقُرطُبَةٌ أعيدَتْ قَيروانـاً ... لَنا لمّا دَهَتْ تِلكَ الفُتونُ
وكَيْفَ يَضيعُ مِثلي في مكانٍ ... يكونُ بِه أبو الحسنِ الأمينُ[4]

وإذا كنّا قد علمنا أنّ ابن السقّاء هذا قد قُتِل في سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة للهجرة[5]، فهذا يعني أنّ ابن شرف كان موجوداً في قرطبة في هذه الفترة أو فيما قبلها بقليل، وأنّه قد انطلق إلى طليطلة حاضرة ابن ذي النّون[6]، سنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة يوم أن أقام المأمون حفل ختان حفيده يحيى على ما ذكره ابن بسام[7]، وهناك بطليطلة يتصل ابن شرف بالمأمون بن ذي النون فيقرّبه منه، ويضمّه إلى حاشية قصره، فيصبح من جلسائه وندمائه، ويتهيّأ له بذلك أنْ يأوي إلى كنف ابن ذي النّون، وأنْ يستقرّ في طليطلة بعد طول تنقّل وتجوال، يقول ابن سعيد: ((... وتغيّرت الحال في عهد ابنه المأمون إذ ضَمّ بلاطه جماعة من الغرباء منهم: أبو عبدالله

---

(1) الذخيرة، ص: ١٧٧.

(2) المصدر نفسه، ص: ٣٣٦.

(3) وهو: أبو الحسن إبراهيم بن محمّد بن يحيى المعروف بابن السقّاء، مدبّر الحكم الجهوري بقرطبة، (٤٥٥هـ). أنظر: الذخيرة، ق٤م١/٢٣٨، والبيان المغرب، ٣/٢٣٢.

(4) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٨.

(5) أنظر: البيان المغرب، ٣/٢٣٢.

(6) وهو: المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النّون، صاحب طليطلة. أنظر: البيان المغرب، ٣/٢٢٧، والمغرب، ٢/١٢، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٦١، وتاريخ ابن الأثير، ٩/٢٨٨.

(7) أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٣٩.

بن شرف القيروانيّ، وابن خليفة المصريّ، وأبو الفضل البغداديّ، وكان لديه عدد من مشاهير الكتّاب.))[1].

على أنّنا نستطيع أن نقول: إنّ حياة ابن شرف في بلاد الأندلس قد اتسمت بعدم الاستقرار وبالتنقّل ما بين دول الطوائف إلى أنْ استقرّ في طليطلة وبقي فيها إلى أنْ لفظ أنفاسه الأخيرة فيها.

شخصيته وأخلاقه:

أشار الذين ترجموا لابن شرف من القدماء إلى أنّه كانَ أعور، فابن شاكر يقول في ترجمته له: ((... محمّد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيروانيّ الجُذاميّ أحد فحول شعراء الأندلس والمغرب، كان أعور.))[2]، وهذا ما يؤكده لنا الصفديّ حيث يقول: ((... أحد فحول شعراء المغرب، كان أعور.))[3].

ويضيف معاصره وقرينه ابن رشيق إلى هذه الصفة صفة أخرى وهي صفة الصَلَع، وهذا واضح في قوله مخاطباً ابن شرف:

وأنتَ أيضاً أعورٌ أصلَع ... فَوافَقَ التّشبيهَ تَحقيقُ[4]

ويشير ابن شرف نفسه إلى أنّه كان أشيب وهو في ريعان الشباب، فيقول:

كُسيتُ قِناع الشّيبِ قبلَ أوانِهِ ... وَجِسمي عليه للشباب وِشاح[5]

ويقول:

قالَت: أذو شَيبٍ فَقُلتُ مُخادِعاً ... لو جازَ عِنْدَ الغانياتِ خِداعي[6]

---

[1] المغرب، ٢/١٢.

[2] فوات الوفيات، ٢/٤١٠.

[3] الوافي بالوفيات، ٣/١٩٧، والشعور بالعور، ص: ٦٠، والغيث، ٢/٣٨٨.

[4] أنظر: البدائع، ص: ١٢١، وفوات الوفيات، ٢/٤١٠، والوافي بالوفيات، ٣/١٩٧، والغيث، ٢/٣٨٨.

[5] المسالك، ق١جـ١١/٢٤٢.

[6] المصدر نفسه، ٢٤٢.

وممّا تقدّم نستطيع أن نلاحظ أنّ ابن شرف من الناحية الجسميّة كان أعور، أصلع، أشيب، وأمّا من الناحية النفسيّة فقد أشارت المصادر التي تعرّضت لترجمته وأخباره إلى أنّه كان ذكيّاً، سريع البديهة، واسع الحفظ، وفي هذا يقول ابن بسّام: ((... وقد أثبت في هذا الفصل من كلام ابن شرف ما يشهد بذكائه، ويغني عن إطرائه.))[1]، ويقول ابن بشكوال: ((... وقد أثنى عليه أبو الوليد الباجيّ، ووصفه بالعلم والذكاء.))[2]، ويقول ابن رشيق: ((... شاعرٌ حاذق، متصرّف، كثير التوليد، جيّد المقطّعات والتقصيد، لا ينكر حذقه، ولا يدفع سبقه، أشعر أهل زمانه، ولقد شهدته مرّات يكتب القصيدة في غير مسودّة كأنّه يحفظها، ثم يقوم فينشدها ...))[3].

وهكذا فالمصادر التي تصدّت لترجمة ابن شرف وأخباره لم تزد على كونه: أعور أصلع، ذكيّاً، سريع البداهة والحفظ، الأمر الذي دفع بنا إلى استنطاق ما وصل الينا من شعره علّنا نستطيع أنْ نرسم معالم شخصيته في جوانبها المختلفة، فوجدنا أنّ شعره لم يسعفنا إلاّ بالقليل من خصائص تلك الشخصيّة الفذّة.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا استطعنا أنْ نلمح بعض معالم شخصية ابن شرف من خلال ما وصل الينا من شعره، ففيه الكثير من الدلائل التي تشير إلى أنّه كان حذراً، حريصاً، بل إنّ الحذر والحرص صفتان واضحتان في شخصية ابن شرف الذي لم يكن ينخدع بالكلام النّاعم المعسول الذي يتبعه ألم وندم فيما بعد، وهذا واضح في قوله:

ولَم يَطِب قَطُّ لـي مَـنٌّ يلـذّ ولا سلوى إذا كان في عُقباهما مَغَصُ[4]

وهاتان صفتان يستطيع أنْ يلاحظهما من يتصدّى لدراسة ابن شرف، ويتتبّع أخباره، لا سيّما عندما يتعرض لدراسة موقفه من المعتضد عبّاد صاحب إشبيليّة الذي تعامل معه ابن شرف بحرص وحذر شديدين[5].

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/١٧١.

(2) الصلة، ٢/٦٠٤، والمعالم، ٣/١٩٤.

(3) المسالك، ق١جـ١١/٢٤٠.

(4) الذخيرة، ق٤م١/١٨٢.

(5) أنظر: المصدر نفسه، ص: ١٧٢-١٨٢.

وقد كشف لنا شعره أيضاً عن روح قلقةٍ مضطربةٍ لا تعرف الاستقرار والهدوء، ولا سيّما بعد أن فارق وطنه ومسقط راسه إثر مداهمة الأعراب له، وهذا واضح في قوله:

فَقَد دارَت علَينا مِن رَحاهــــــا   طَحونٌ كلّما لاقَت زَبُـــــــونُ
فَــلا وَطَنٌ لــــنا إلاّ المَطايــــا   وإلاّ المـاءُ طَوراً والسفيــــــنُ[1]

وهذه صفة أحس بهـا ابن بسّام في شخصيّة ابن شـــرف، فعبّر عنها بقوله: ((... ولم يزل على ملوك الطوائف يومئذٍ يتطوّف، ويتنقل في الدول من منزل إلى منزل، ومن بلدٍ إلى بلد.))[2]، مثلما أحسّ بها الأستاذ إحسان عبّاس، حيث عدّه من الشعراء الجوّالين في هذه الفترة[3].

كما كشف لنا شعره عن شخصيّة واعية مجرّبة، عاركت الأيام، وعاركتها، فأذاقتها من حلوها، ومرّها، وأكسبتها خبرة ودراية بطبائع النّاس، وبعاداتهم وتقاليدهم، ونفسياتهم، إذ كان على علمٍ بسلوكهم؛ فقد عرف كيف يعاملهم، ويتعامل معهم بِحُسن سياسته، وإدارته، ولا سيّما عندما يكون غريباً عنهم وفي وطنهم.

وفي شعره ما يدل على أنّه لم يكن محظوظاً في علاقاته التي يقيمها مع الناس الذين كانوا يتنكرون له، ويغدرون به، على الرُغم من إخلاصه لهم، ووفائه لهم، وهذا واضح في قوله:

وأفقِدُ مـــا طَلَبتُ فَـلَم أجِــــدهُ   رَفيــقٌ فـي صَحابَتِــه رَفيــــقُ
فأصبَحَ وَهـــوَ للعَنقـاءِ ثــــانٍ   وَثاوٍ حَيثُ فَرّخـتِ الأنـــــوقُ
صَحِبت بِهذه الدنــيا أناســــــاً   إذا غـدروا فَغَدرُهُـم وَثيـــــقُ[4]

ومن الذين شهدوا لابن شرف بالوفاء، والتزام العهد ابن بسّام، حيث يقول: ((... فكان ابن رشيق بعد ذلك ربّما أعرض وعرّض ... وأمّا ابن شـرف فلم يحلّ ما عقد، ولا حال ممّا عهد.))[5].

---

[1] الذخيرة، ص: ٢٣٨.
[2] المصدر نفسه، ق٤م١/١٨١.
[3] أنظر: تاريخ الأدب الأندلسي، ص: ٨٤.
[4] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٤.
[5] المصدر نفسه، ق٤م٢/٥٩٩.

وقد أكثر ابن شرف من شكوى الزّمان وذمّه في شعره، فرأيناه ذامّاً له متبرّماً بـه. وهذا واضح في قوله:

سَلْ عن رِضايَ عنِ الزمانِ فإنّهُ ... كَرِضى الفَرَزْدَقِ عَن بَني يَربوعِ

للـه حالٌ قد تنَقّلَ عَهدُها ... بخِلافِ نَقلِ الدّهرِ حالَ صَريعِ

دارَت دراريّ الخُطوبِ قَواصِداً ... حَتى نَظَرْنَ إليَّ مِن تَرْبيعِ[1]

كما أكثر من عبارات الحزن والتوجّع والتلهف والرهبة، والخوف في شعره[2].

وثمة صفة أخرى نستطيع أنْ نثبتها لابن شرف ألا وهي الرّزانة، فعلى الرغم مـن أنّه عاش في عهد ملوك الطوائف بالأندلس، واتصل بمعظم حكامها وملوكها الذين كانوا على خلاف فيما بينهم إلاّ أنّه لم يقف إلى جانب أحدهم ضدّ آخر؛ لينال أعطياته الجزيلة، إنّما كان على علاقة طيّبة مع الجميع، ونحن نعلم أنّ الفترة التي عاشها بالأندلس، كانت فترة صراع وتناحر بين دول الطوائف وملوكها.

يضاف إلى هذا أنّ ابن شرف كان يثق بنفسه وبشاعريته، ويعتدّ بهما إعتداداً كبيراً، حتى إنّ هذه الثقة، قد سولّت له، وهو في بلاط ابن ذي النّون أنْ يرى نفسه أنّه أشعر من المتنبيّ نفسه. وهذا واضح في قول ابن بسّام: ((... وذكرت بهذا ما وصف عن أبي عبدالله بن شرف، وذلك أنّه قال للمأمون بن ذي النّون أيّام خدمته، واستشفافه صبابة عمره في ذراه، وقد أجروا ذكر أبي الطيّب فذهبوا في تأنيبه كل مذهب: ((إنْ رأى المأمون -لا فارق العزّة والعلاء- أنْ يشير إلى أيّ قصيدة شاء من شعر ابي الطّيب حتى أعارضه بقصيدة تنسي اسمه، وتعفي رسمه.))[3].

وفاته:

اتفق معظم الذين تحدّثوا عن زمن وفاة ابن شرف من القدماء والمحدثين على أنّها كانت في سنة ستين وأربعمائة للهجرة[4] ، ولم يشذّ عن اتفاقهم هذا غير الصفدي والسيوطي، أمّا

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٦، وشرح المقامات، ٨٨/٤.

(2) أنظر: الذخيرة، ق٤م١/٢١٥، ٢١٦، ١٢٧، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٩، وغيرها.

(3) المصدر نفسه، ق٤م١/٢٣-٢٤.

(4) أنظر: معجم الأدباء، ٣٨/١٩، وفوات الوفيات، ٤١٠/٢، وكشف الظنون، ٩٨٦/٢، وهدية العارفين، ٧٢/٢، وشجرة النور، ص: ١١٠، والأعلام، ١٠/٧، ورسائل البلغاء، ص: ٢٣٦، وأعلام الكلام، =

الصفدي فقد بدا لنا شاكاً في أنّ وفاة ابن شرف قد كانت في هذه السنة، فأورد لنا هذا الزمن بأسلوب الاحتمال، ولم يقطع القول في ذلك، وهذا واضح في قوله: ((... توفيّ سنة ستين وأربعمائة للهجرة أو فيما قبلها.))[1]، والذي يضعف هذه الرواية لدينا هو أنّها لم تحدد تحديداً دقيقاً، وأنّها رواية منفردة تحتاج لدليل آخر، وأمّا السيوطيّ، فيذهب إلى القول: إنّ وفاة ابن شرف كانت في سنة ثماني عشرة وخمسمائة للهجرة، ويزعم أنّ ابن بشكوال قد أورد ذلك في زوائده على الصلة، فيقول: ((... محمّد بن أبي سعيد بن شرف الجُذاميّ القيروانيّ، كان من جلّة الأدباء وفحول الشعراء، وله كتب مؤلفة، مات سنة ثماني عشرة وخمسمائة للهجرة، ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصلة.))[2]، وهذه الرواية أيضاً لا تحظى بالقبول لدينا لعدّة أمور ومنها: أنّنا عندما نعود إلى زوائد الصلة لابن بشكوال الذي ينقل عنه السيوطيّ، فإنّنا لن نجد ما أورده بخصوص زمن وفاة ابن شرف، إنّما نجد أنّ ابن بشكوال قد أغفل الحديث عن هذا الأمر إغفالاً تامّاً، ولم يُشر إليه من قريب أو بعيد، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنّ السيوطيّ قد وهم في تحديد زمن وفاة ابن شرف.

ومنهاأنّ ابن شرف لم يعمّر، ولم يتجاوز الثمانين من عمره، ولا سيّما إذا كنّا قد علمنا أنّه وُلِدَ في أواخر القرن الرابع الهجري، ورواية السيوطيّ هذه تفيد أنّه تجاوز المائة عام، فهي رواية تخالف الواقع؛ إذ أن ابن شرف لم يعمّر مائة وعشرين سنة، هذا بالاضافة إلى أنّ السيوطيّ ينفرد بهذه الرواية من بين المصادر التي ترجمت لابن شرف بمن فيهم ابن بشكوال الذي أخذ عنه، مما يجعلنا نتحرّج من قبول رواية السيوطيّ، ونطمئن إلى أنّ وفاة ابن شرف قد كانت في سنة ستين وأربعمائة للهجرة، لإجماع المصادر على هذه السنة.

وأمّا الذين تحدّثوا عن مكان وفاته، فقد اختلفوا فيما بينهم، فمنهم مَن يرى أنّها كانت بطليطلة حاضرة ابن ذي النّون، غير أنّهم لم يشيروا إلى ذلك إشارة صريحة، ومن هؤلاء ابن بسّام الذي يقول: ((... واستقرّ أخيراً عِندَ المأمون بن ذي النّون، فعليه خلع آخر لبوسه، ونثر

= ص: ١٢، والبساط، ص: ٧٩، وابن رشيق للميمني، ص: ٩١، والمقتبس م٦/ص: ٣٥٤، وأدب المغاربة، ص: ٨٦، والمجمل، ص: ١٥٠، والمنتخب، ٧٨.

[1] الوافي بالوفيات، ١٩٧/٣، والشعور بالعور، ص: ٦٠.

[2] بُغية الوعاة، ١١٤/١.

بقية كيسه.))[1]، ومنهم من يرى أنّ وفاته كانت بإشبيليّة وعلى رأس هؤلاء ياقوت الذي ذهب إلى القول: ((... سكن المريّة بعد مقارعة أهوال، ومقاومة خطوب، وتردد على ملوك الطوائف كآل عبّاد، وغيرهم، وتوفيّ بإشبيليّة.))[2]، وقد تبعه في ذلك عدد من الدّارسين[3]. ونحن لا نطمئن إلى هذه الرواية، رواية ياقوت لعدّة أمور منها: أنّ ابن شرف في أُخريات حياته كان موجوداً بطليطلة، بعد أنْ طوّف على ملوك الطوائف، وقد استقرّ فيها، وكان من حاشية ابن ذي النّون مثلما تقدّم، وهذا ما يؤكده لنا ابن بسّام حينَ يقول: ((... وأذِنَ لتلك الحلبة من شعراء الحضرة من طارئ، وقاطن، ... فدخلوا إليه على هيئتهم يقدّمهم شيخهم المقدّم من جماعتهم ذلك اليوم، محمّد بن شرف القيروانيّ، القريب عهده بالهجرة، بعد خبطه سمرات ملوك الأندلس بمحجنته، واعتصارهم بقصعته.))[4]، وذلك في سنة خمس وخمسين واربعمائة للهجرة[5] أي قبل وفاته بخمس سنين، يضاف إلى ما تقدّم أنّ ابن شرفٍ كان في طليطلة في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة على ما ذكره العماد في ترجمته لتلميذه راشد بن عُريف، حيث يقول: ((... وأخذ عنه كتابه "أعلام الكلام"، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.))[6]، أيّ قبل وفاته بسنتين، وهذا إن دل على شيء، فإنّما يدل على أنّ ابن شرف كان يقيم في طليطلة لا في إشبيليّة، في أواخر حياته.

ومنهاأنّ ابن شرف لم يزر إشبيليّة كما تقدّم، ولم تتصل أسبابه بالمعتضد عبّاد، صاحب إشبيليّة الذي ظل شاعرنا يخشاه، ويتحاشى القدوم إليه، قال ابن بسّام: ((... وكان ابن شرف هذا ممّن فهم منحاه، وصمّ عن رقاه، فلم يجتمع مع عبّاد في صعيد، ولا أهدى له السّلام إلاّ مِنْ بعيد.))[7]، وكثيراً ما كان ابن شرف يخاطبه، وينشده:

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٧٠، وأنظر: المسالك، جـ٢٣٨/١١.

[2] معجم الأدباء، ٣٨/١٩.

[3] أنظر: رسائل البغاء، ص: ٢٣٦، والمقتبس م٣٥٤/٦، وأعلام الكلام، ١٠/٧، وأدب المغاربة، ص: ٨٦.

[4] الذخيرة، ق٤م١/١٣٩.

[5] أنظر: المصد رنفسه، ص: ١٢٦.

[6] الخريدة، ق٤ج٧/٢، وأنظر: التكملة، ٣٢٤/١.

[7] الذخيرة، ق٤م١/١٧١.

أحِبُّكَ فــي البَتولِ وفــي أبيهـــــــا ولكــنّي أحِبُّكَ مِـــــن بَعيـــــدِ[1]

ومنها ايضاً أنّ ياقوتاً ينفرد بهذه الرواية من بين القدماء الذين ترجموا لابن شرف، إذ لم يُشِر غيره إلى أنّ وفاة ابن شرف كانت بإشبيليّة حاضرة بني عبّاد، الأمر الذي يجعلنا نطمئن إلى رواية ابن بسّام التي أشارت إلى أنّ وفاة ابن شرف كانت بطليطلة لا بإشبيليّة.

---

(1) الذخيرة، ص: ١٨١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

شعره

أولاً: جمعه وتدوينه.

ثانياً: أعراضه وموضوعاته.

ثالثاً: خصائصه الفنية.

شعره

جمعه وتدوينه:

لم يصل الينا شعر ابن شرف في ديوان مجموع، مع أنّ بعض الذين ترجموا له من القدماء أشاروا إلى أنّه قد خلّف ديواناً شعرياً، فابن بشكوال يقول في أثناء ترجمته لولده جعفر: ((... وله رواية عن أبيه، وأخذ عنه ديوان شعره.))[1]، ويقول ياقوت: ((... وديوان شعر وغير ذلك.))[2]، وأمّا بقيّة المصادر التي تعرضت لترجمته وأخباره، فلم تُشِر إلى أنّه قد خلّف ديواناً شعرياً غير كتابه المعروف بـ "أبكار الأفكار" الذي جمع فيه شعره ونثره[3]. ومن هذه الروايات يتضح لنا أنّ لابن شرف ديوان شعر غير ذلك الكتاب المعروف بأبكار الأفكار، إلاّ أنّ واحداً من هذين الكتابين لم يصل إلينا، ومعظم ما وصل الينا من شعر ابن شرف قد جاء على شكل مقطّعات قصيرة وجدناها مبثوثة في كتب الأدب من مثل: الذخيرة، والخريدة، ومسالك الأبصار، والمطرب، ومعجم الأدباء، ونهاية الأرب، وفوات الوفيّات، والوافي بالوفيّات ، ...، ولعلّ أفضل مصدر تصدّى لترجمة ابن شرف، وعُني بجمع أشعاره وأخباره هو كتاب الذخيرة لابن بسّام، إذ حفظ لنا نخبةً كبيرةً من شعره تنوف على الثلاثمئة بيت من الشعر، وهذه أكبر مجموعة استطعنا أنْ نعثُر عليها في مصدر من المصادر القديمة التي عُنيت بجمع شعره، غير أنّه لم يحفظ لنا قصيدة كاملة من قصائد ابن شرف المطولة التي أشار إليها في المديح، والنّسيب، والرثاء، وما إلى ذلك، وتكاد قصيدته اللاميّة التي رثا بها وطنه القيروان[4] تكون أطول قصيدة استطعنا أنْ نظفر بها فيما وصل الينا من شعره في هذا المصدر، وفي غيره من المصادر الأخرى التي

---

[1] الصلة، ١/١٣٠.

[2] معجم الأدباء، ١٩/٤٣.

[3] أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٧١، وفوات الوفيات، ٢/٤١٠، والوافي بالوفيات، ٣/٩٧، والخريدة، ق٤ج٢/١١٠، والمطرب، ص: ٧٢، وهدية العارفين، ٢/٧٢، وكشف الظنون، ٢/٩٨٦، والأعلام، ٧/١٠.

[4] أنظر هذه القصيدة في الذخيرة ق٤م١/٢٢٧.

ترجمت له، وهي قصيدة طويلة على ما ذكره ابن بسّام، حيث يقول في أثناء تقديمه لها: ((قال من قصيدة وصف بها إذلال أهل سوسة جالية القيروان، وهي طويلة، قطفت عيونها.))[١].

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما وصل الينا من شعر ابن شرف ما هو إلاّ جزءٌ يسيرٌ ممّا جادت به شاعريته الفذّة، ولدينا ما يدل على ذلك: فالذين ترجموا له من القدماء أجمعوا على أنّه كان أديباً شاعراً بل من فحول الشعراء بالمغرب والأندلس، فهذا ابن بسّام يبدأ ترجمته لابن شرف بقوله: ((الأديب الكامل أبو عبدالله محمّد بن شرف، أحد من نظم قلائد الآداب، وجمع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنظوم، والموزون، تلاعب الرياح بأعطاف الغصون.))[٢]، ويقول ياقوت: ((الأديب، الكاتب، الشاعر.))[٣]، ويقول ابن بشكوال في حقّه إنّه: ((كان من جلّة الأدباء، وفحول الشعراء.))[٤]، ويقول ابن شاكر: ((أحد فحول شعراء الأندلس والمغرب.))[٥]، ويقول ابن خلدون: ((لم يكن بأفريقيّة من مشاهير الشعراء إلاّ ابن رشيق وابن شرف.))[٦].

وممّا تقدّم نستطيع أن نلاحظ أنّ سمعة ابن شرف الشعريّة قد طبّقت الآفاق، وأنّه كان من الشعراء الأفذاذ المعروفين بفحولة شعرهم، وبكثرة أشعارهم ومقطّعاتهم. وهذا ما شهد له به معاصره وقرينه ابن رشيق حيث يقول: ((شاعر حاذق متصرف، كثير التوليد، جيّد المقطّعات والتقصيد، لا ينكر حذقه، ولا يدفع سبقه، أشعر أهل زمانه، وأحذقهم، ولقد شهدته مرّات يكتب القصيدة في غير مسودّة كأنّه يحفظها، ثم يقوم فينشدها، وأمّا المقطّعات، فما أحصي ما يصنع منها كل يوم بحضرتي صاحياً كان أم سكراناً، ويأتي بها بديعاً مخترعاً ...))[٧]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ ابن شرف كان من الشعراء، المعدودين المكثرين، وذلك ما يكشف لنا عن أسلوبه وأشعاره التي لا يمكن أنْ تكون لشاعر مبتدئ ليس له إلاّ مجموعة قليلة من القصائد والمقطّعات القصيرة التي نراها في كتب الأدب.

---

(١) أنظر: الذخيرة، ق٤م١/٢٢٧.

(٢) الذخيرة، ق٤م١/١٦٩-١٧٠، وأنظر: المعالم، ٣/١٩٣.

(٣) معجم الأدباء، ١٩/٣٧.

(٤) الصلة، ٢/٦٠٤، وأنظر: بُغية الوعاة، ١/١١٤.

(٥) فوات الوفيات، ٢/٤١٠، وأنظر: الوافي بالوفيات، ٣/١٩٧، الشعور بالعور، ص: ٦٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون، ١/١٠٩٠.

(٧) المسالك، ج١١/٢٤٠، وأنظر: الوافي بالوفيات، ٣/٩٨.

ثُمّ إنّ ما وصل الينا من شعر ابن شرف ما هو إلاّ مقطّعات قصيرة اقتطفت من قصائد كاملة مطوّلة، وهذا واضح من تقديم ابن بسّام لمقطّعاته، فكثيراً ما كان يردد عبارة، قال من قصيدة، وله من أخرى، ومنها[1] ...، وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ هذه المقطّعات مأخوذة من قصائد مطوّلة لم تصل إلينا فيما وصل الينا من شعر ابن شرف.

يضاف إلى ما تقدّم أنّ ما وصل الينا من شعر ابن شرف يتسم بِنَفَسٍ شعريّ طويل، وهذا أمر لا يتوافر إلاّ لشاعر له تجارب طويلة في قرض الشعر ونظمه، شاعر كان قد عانى وكابد في ميدان الشعر حتى وصل إلى ما وصل إليه من مكانة، وشهرة. ولكنّ هذا لا يعني في حال من الأحوال أنّ شعر ابن شرف يخلو من المقطّعات الشعرية القصيرة، فشعره حافل بالمقطّعات المتنوّعة التي كانت تُنظَم في مناسبات متعدّدة تبعاً لطبيعة الموضوعات التي كانت تقال فيها، ويمكننا أن نردّ هذه الظاهرة إلى كثرة المجالس التي كان ابن شرف يشهدها في مجلس المعزّ بن باديس، مثلما رأينا في وصف الشَعَر، والموز[2]، وإلى كثرة المجالس، مجالس اللهو والطّرب التي كانت تُعقَد في ذلك العصر، وكان الشعراء يتبارون في وصفها، وفي وصف ما يدور بها، وما تتضمنه من آلات اللهو والطرب، والمنازل التي كانت تقام فيها[3].

موضوعاته وأغراضه:

يمكننا القول: إنّ ابن شرف قد طرق معظم الأغراض الشعرية المعروفة في عهده من مدحٍ، وهجاءٍ، وحِكمةٍ، ووصفٍ، وغَزَلٍ، وخمرةٍ، ولكنّه أجاد أكثر ما أجاد في الرّثاء وفي تصوير تلك النكبة التي أصيبت بها مدينته، ومسقط رأسه القيروان، مثلما أجاد في بقيّة الأغراض الأخرى التي طرقها، غير أنّه لم يتخصص في موضوع واحد منها عُرِفَ به دون غيره من الموضوعات، إنّما قال في أكثر الأغراض الشعرية الشائعة في عصره.

وقد تخلّلت شعره ظاهرة الحديث عن ذاته، وعن وطنه المنكوب، فأكثر من شكوى الزمان وذمّه، مثلما أكثر من الحديث عن أولئك الذين عملوا على تخريب وطنه، وتشريد أهله، يقول ابن

---

(1) أنظر: الذخيرة، ق٤م١/٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٢، وغيرها.

(2) أنظر: البدائع، ص: ٢٤٠-٢٤١، والمطرب، ص: ٧٤-٧٥، والبساط، ص: ٧٦، ٨٣.

(3) أنظر: المعاهد، ٥٥/٢، والمطرب، ص: ٧٦، والوافي بالوفيات، ١٠٠/٣، وفوات الوفيات، ٤١٢/٢.

بسّام: ((... وقد انتحى منْحى القسطليّ في شكوى الزمن، والحديث عن الفِتَن.))[1]، ولذا فقد جاء شعره صدىً لحياته، إذ جاء رثاؤه مُعَبّراً عن تلك الفتنة التي حلّت بوطنه وبأهله كما جاءت حِكَمُهُ معبّرة عن تجاربه مع الحياة والناس والمجتمع وعلاقاته بهم جميعاً، فعبّر عمّا نظم فيه تعبيراً صادقاً، ومن أهمّ الأغراض التي عالجها ابن شرف في شعره:

المديح:

كان فنّ المديح من الفنون الهامّة التي عالجها ابن شرف في شعره الذي وصل الينا، ونستطيع أن نقول: إنّ هذا الفن قد مرّ في طورين رئيسيين: الأول منهما بالقيروان والمهديّة، والثاني منهما بالأندلس حيث ملوك الطوائف، أما الطور الأول الذي عاش فيه تحت كنف المعزّ بن باديس بالقيروان، فقد رفع فيه معظم مدائحه إلى المعزّ بن باديس، ولم تُشِر المصادر التي بين أيدينا إلى أنّ ابن شرف قد مدح غير المعز في هذه الفترة من حياته، فعلى ما يبدو أنّ المعزّ بن باديس قد خصّص له من المال ما يكفيه التطلع إلى غيره من الحكام والأمراء، وهذا واضح في قول ابن شرف مخاطباً المعزّ بن باديس:

أصلَحْتَ بَيني وبَينَ الدّهرِ بَعْدَ وَغىً ... شَمطاءَ فاصْطَلَحَتْ عَبْسٌ وذُبيانُ
وَصِرتُ في عُدّةٍ تُزري بِعُدّتِه ... وَصارَ حَولي للأقرانِ أقرانُ
حتى استَطَلْتَ عليه في مَهابَتِه ... كما استطالَ على النُعمانِ غسّانُ[2]

ومن أجل هذا فقد وجّه شاعرنا معظم أشعاره إلى هذا المعز دون غيره، إلاّ أنّ معظم هذه الأشعار، التي رفعها إليه لم تصل إلينا، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنّ الأشعار التي قالها ابن شرف في مدح المعزّ بن باديس قد فُقِدَت فيما فُقِد من شعره، وأنّ معظم ما وصل الينا من شعره، هو مانظمه بالأندلس، وذلك بسبب الفتنة التي مُنِيت بها القيروان.

وأمّا الطور الثاني من حياته الذي عاشه في بلاد الأندلس، فقد اتخذ من شعره وأدبه وسيلة للتكسّب والتعيّش، فجال على ملوك الطوائف بالأندلس، وانتجع كثيراً من الأمراء والحكام فيها، طَمَعاً في نيل أعطياتهم، وصلاتهم الطائلة، يقول ابن بسّام: ((... لم يزل على ملوك الطوائف

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٧٠.

[2] المسالك، ج١١/٢٤١.

يومئذٍ يتطوّف ويتنقل في الدول من منزل إلى منزل، ومن بلد إلى بلـد.))[1]، وهذا ما يعبّر عنه ابن شرف نفسُه حينَ يقول:

فلا وَطَنٌ لنا إلاّ المَطـــايـــا وإلاّ المــاءُ طــوراً والسّفيـنُ[2]

ومن أجل هذا فقد تنوّع مدح ابن شرف ما بين مدح الأمراء، ومدح الوزراء إلاّ أنّ الغالب على مدائحه أنّها كانت موجهة إلى الأمراء والحكام الذين عاشوا في هذه الفترة من حياته، وعاصروه، ومن أشهر الحكام الذين مدحهم ابن شرف في الأندلس: المعتضد عبّاد صاحب إشبيليّة، والمأمون بن ذي النّون صاحب طليطلة، والمنصور حفيد ابن ابي عامر[3] صاحب قرطبة، وابن طاهر[4] صاحب مرسيّة، والمظفر بن الأفطس[5] صاحب بطليوس، ومن الوزراء الذين مدحهم ابن شرف: ابن أبي الرجّال {الشيباني، وابن السقاء، إذ اتصل ابن شرف بهؤلاء الحكّام} ووجه إليهم بعض قصائده فأجزلوا له العطاء، وقد يعجبه المقام في بلاط بعضهم، فيستقرّ فيه ويلازمه، ولا سيّما عندما يُجري له صاحبه ما يكفل لـه حياة ميسورة، ويجعله من خاصته وندمائه، وهذا ما وجده ابن شرف في بلاط المأمون بن ذي النّون الذي جعله من خاصّة قصره، ومن شعرائه المقرّبين، فيتهيأ له أنْ يستقرّ بعد طول تنقل وتجوال، فيخصه بأشعاره ويلهج لسانه بذكره وشكره، ويبدو لي أن ابن شرف يشير إليه حين يقول:

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/١٨١.

(2) المصدر نفسه، ص: ٢٣٨.

(3) وهو: المنصور عبدالعزيز بن النّاصر بن أبي عامر، (...-٤٥٢هـ). أنظر: المغرب، ٢/٣٠٠، والكامل في التاريخ، ٩/٢٨٩.

(4) وهو: محمّد بن أحمد بن إسحق بن طاهر، أمير مرسيّة، أنظر: المغرب، ٢/٢٤٧، والقلائد، ص: ٥٦، والكامل في التاريخ، ٩/٢٩١، والذخيرة، ق٣م١/٤٤.

(5) وهو: أبو بكر، محمّد بن عبدالله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، كان أديباً عالماً حكم حتى سنة ٤٥٦هـ، أنظر: الذخيرة، ق٤م٢/٦٤٠، المعجب، ص: ١٢٧، المغرب، ١/٣٦٤، الكامل في التاريخ، ٩/٢٨٨، البيان المغرب، ٣/٢٣٦.

أتى الزمانُ على يأسٍ به لبنـي الدُّ نْيـا كَبُشـرى بِمَولـودٍ عـلى الكِبَر
إنّي ومَجدِك صَيّرتُ الورى نَهـراً وقُلتُ مـا قالَه طـالوتُ فـي النّهـرِ
فأنتَ عِندي مِنْهُمُ غَرْفَةٌ بِيـدي حلّت وَحُرِّمَ باقي النّهر في الزبّر[1]

إلاّ أنّ معظم المدائح والأشعار التي خصّ بها ابن شرف المأمون بن ذي النّون لم تصل إلينا، فلربّما ضاعت فيما ضاع من شِعر شاعرنا؛ وذلك بسبب الفِتَن والنّكبات التي تعرّضت لها بلاد الأندلس بصورة عامّة، وطليطلة حاضرة ابن ذي النّون بصورة خاصّة، إذ لا يمكن أن يُقيم ابن شرف كل هذه الفترة في كَنَف ابن ذي النّون الذي أجزل له العطاء، وقرّبه منه، ولا يخصّه إلاّ بهذه الأشعار القليلة، وهذا واضح من قوله:

يُعطي الجَزيلَ مِنَ التّنويل مُعتَـذِراً ورُبَّ مُعطٍ قليلاً غَيْرَ مُعْتَـذِرِ[2]

وعلى الرُغم ممّا وجده ابن شرف عند ابن ذي النّون إلاّ أنّه لم يكن قانعاً بما حظي به عنده، ولا بالمكانة التي وصل إليها في بلاطه، لذلك فقد رأيناه متطلعاً إلى مدح غيره من ملوك الطوائف بالأندلس، فيرسل لهم المدائح مع الرّسل، وهو في بلاط ابن ذي النّون في طليطلة فيجزلون له العطاء وينفذون له صلاتهم وأعطياتهم الطائلة، ومن ذلك ما فعله ابن شرف مع المظفّر بن الأفطس صاحب بطليوس، يوم ان أرسل له قصيدة من طليطلة يمدحه فيها، ويتغنّى بها بمآثره الحسنة، وصفاته الحميدة وفيها يقول:

يـا مالِكاً أمْسَت تُجَيْبُ بـه تَحْسِدُ قَحطانَ عَلَيهِ نِـزارْ
لَولاكَ لَمْ تَشْرَف مَعَدُّ بِهـا جلّ أبـو ذَرٍّ فَجَلّتْ غِفـارْ[3]

وقد علق ابن بسّام على هذه القصيدة بقوله: ((... وكان ابن شرف قد كتب بهذه القصيدة من طليطلة إليه، فوصله بها بمائة مثقال من ضرب السكةِ لديه.))[4]، وهذا ما فعله ابن شرف أيضاً مع المعتضد عبّاد صاحب إشبيليّة يوم أن دخل الأندلس إثر خراب وطنه القيروان، إذ أرسل إليه الأشعار والمدائح مع الرّسل على الرّغم من أنّه كان يخشاه، ويتحاشى القدوم إلى حضرته،

---

(١) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه، الورقة نفسها.
(٣) الذخيرة، ق٢م٢/٦٤٣، والمسالك، ج١١/٢٤٠، والحلة السّيراء، ٢/٩٧.
(٤) الذخيرة، ق٢م٢/٦٤٣.

ويتخوّف من الاتصال به، إلاّ أنّه قد عزّ عليه أنْ لا يحظى بجوائــزه السنية، وأعطياته الجزيلة، فيرسل إليه المعتضد الهبات والجوائز والأموال مع الرسل أيضاً[1].

وهكذا فعل ابن شرف مع ممدوحيه في الأندلس، فكان يزف إليهم القصائد والمدائح، طمعاً في نيل أعطياتهم وهباتهم، فيجزلون له العطاء، حتى وهو بعيد عنهم وفي بلاط غيرهم، وهـذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدل على المكانة التي تبوأها ابن شرف في ميدان الشعر، وعلى شهرته التي ملأت الأسماع وسبقته إلى الأندلس.

وفي الحقيقة أنّنا نلتمس لابن شرف العذر لتكسبه بشعره وأدبه فـي هذه الفترة من حياته بالأندلس، حيث كان في ديار غربة، وقد أجبرته الحياة الصعبة، والظروف القاسية التي عاشها بعد خروجه من وطنه على ذلك؛ ليضمن لنفسه وأسرته سبل العيش، ويضمن لنفسه ما يكفيه سؤال الناس وحاجتهم، وقد عاش في بحبوحة من العيش قبل ذلك، وهذا واضح في قوله:

مَحمودُ عَيْشٍ جادَ لي دَهري بِـــه ... ثُم! استردَّ فَكانَ فـــيه خَصيمي[2]

ومن قوله في وصف أطفاله:

كَأنّهُمُ لَمْ يَسكُنوا ظِلّ نِعْمَــــةٍ ... لَهــا بَهْجَةٌ مِلء العُيونِ ورَوَنَــقُ
إلى أنْ غدَوا فَيئَ الفَيافي فَتـــارة ... تُباع وَفي بعضِ الأحايينِ تُعْتَقُ[3]

ويضاف إلى ما تقدّم أنّ التكسّب بالشعر في هذه الفترة، فترة ملوك الطوائف بالأندلس كان أمراً عامّاً، وظاهرة شائعة، دعت إليها الحياة السياسية التي كانت سائدة آنذاك، إذ حرص كل ملك من ملوك الطوائف في تلك الفترة على أنْ يجمع في بلاطه أكبر عدد ممكن من الأدباء والشعراء، ويغدق عليهم الأموال الطائلة؛ حتى يكونوا ألسِنَة تلهج بذكره وشكره، وفي هذا يقول أحد الدّارسين: ((لقد كان هؤلاء الملوك في أول أمرهم، بحاجة إلى تقوية مراكزهم وتثبيتها، بنشر عبارات الحَمْدِ والثّناء وآيات التّعظيم والتفخيم التي كانت تذاع بواسطة مِن كان يَفِدُ عليهم من الشعراء.))[4]، فليس غريباً والحالة هذه أنْ نجد ابن شرف قد تكسّب بشعره في هذه الفترة، وهو

---

[1] أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٧٧و ١٨١.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢١٧.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢٣٢.

[4] رحلة الأندلس، ص: ١١٤، الشعر في ظل بني عبّاد، ص: ٧٩.

الذي تطلعت إليه هِمَمُ ملوك الأندلس عندما دخلها؛ لبعد صيته ولشهرته على ما ذكره ابن شاكر(١).

هذا ولقد أسبغ ابن شرف على ممدوحيه الكثير من الصفات والفضائل والقِيَم التقليديّة التي ردّدها الشعراء السابقون واسبغوها على ممدوحيهم مثل: الشجاعة، والكرم، والسّخاء، وسداد الرأي، وعراقة الأصل، والحلم، والسّماحة، وغيرها من معاني النبل والشرف التي أسبغوها على شخصيات ممدوحيهم على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم التي يحلّون فيها، حتى وإن لم يكونوا يتصفون بها؛ ذلك لأن ((الشاعر حينَ يمدَح لا يُعنى بوصف شخصية الممدوح، ولو كان هذا غرضه لوصف محاسنه ومساوئه، ولكنّه يحاول أن يرسم صورة شِعرية لِمَثَلٍ إنساني عالٍ تمليه عليه ظروفه الاجتماعية والطبقيّة، ومرحلته التاريخيّة، ثمّ يُعطي هذه الصورة بعد ذلك، رسم الممدوح أو يربطها بحوادث وقعت في حياته.))(٢).

ولمّا كان الغرض من وراء قصائد المديح في هذه الفترة من حياة شاعرنا هو التكسّب، فإن الممدوح بصفة السخاء والبذل الجزيل الذي لا طائل له من الصفات التي تستوقفه؛ ذلك لأنّ الصلة ما بين المدح بصفة الكرم والسّخاء، وما بين التكسّب بالشعر قويّة ومتينة، لذا فإن ممدوح ابن شرف كان يعطي العطاء الجزيل الذي لا طائل له، ومع ذلك فقد كان يقدّم العُذر مع هذا العطاء الكثير؛ لأنّه يحسّ أنّ هذا العطاء، وهذا السخاء لا يتناسب مع كرمه العظيم، ونفسه السّخيّة التي تجعله يحسّ بالتقصير مهما بذل، وهذا واضح من قوله:

يُعطي الجَزيلَ مِنَ التّنويلِ مُعْتَذِراً ... وربَّ مُعطٍ قَليلاً غَيْرِ مُعتَذِرِ(٣)

ومن الصفات التي أثبتها ابن شرف لممدوحه، واسبغها عليه: المجد، والرِّفعة، والسّيادة والكرم، فممدوحه شريف كريم خيّر صاحب فضل وسيادة، بل إنّ المجد، والسّيادة، والكرم تتبعه، وتتعلق به مثلما يتعلق التابع بالمتبوع ويتبعه، وليس هذا فحسب، بل إنّ الممدوح اسم على مسمّى، فهو عليّ في الاسم، وعليّ في المكانة والمجد، وهذا واضح من قوله:

إسمٌ حكاهُ المُسَمّى في الفَعالِ فَقَد ... حازَ العليّينِ مِنْ قَولٍ وَمِنْ عَمَلِ

---

(١) أنظر: فوات الوفيات، ١/١٤٧.

(٢) الشعر في ظل بني عبّاد، ص: ٩٤.

(٣) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٣.

فالماجدُ السّيّدُ الحرُّ الكريمُ لَـــــــهُ كالنّعـتِ والعَطفِ والتّوكيدِ والبَدَلِ[1]

وممدوحه هو الذي يجمّل العلا ويزينه، وهو بهذا بلا شَبَه في الناس الذين قصّروا عن إدراك فضائله، فشهرته قد طبّقت الآفاق، واسمه يجري على كل لسان، وسمعته الطيبة تطرق كل أُذن، فيقول:

زانَ العُـلا وسِـواهُ شـأنَها وكَـــذا للشّمسِ حالانِ في المِيْزانِ والحَمَلِ
وربّما عابَه مـا يَفخَرون بِـــــهِ يُشنا مِنَ الخَصرِ ما يُهوى مِنَ الكَفَلِ
سَل عَنْهُ وانطِق بِـه وأنظُرْ إليه تَجدِ مِلءَ المَسامِعِ والأفواهِ والمُقَــــلِ[2]

وكثيراً ما كان ابن شرف يصف ممدوحه بانّه صاحب العلياء الذي يرقى في عليائه فوق الشمس، وهذا واضح من قوله:

وبَلقيسـيّةٍ فـي المُلـكِ لَيـــــتَ كَمَـنْ أوهـــى سُـليمانٌ قَواهـــا
يَراهـا كـلُّ ذي بَصَــــرٍ فَيَعشُــوا لِبَهْجَتِهـــــا إلــــى أنْ لا يَراهـــا
إذا العَليـــا يُبـالِغُ ناســــبوها عَزَوْهـــا في السّمُوِّ إلــى عُلاهـا
ومُلْـكِ الأرضِ مِـنْ بَـرٍّ وبــحرٍ فَلَيسَ يَرومـه مَلِـكٌ سِــــواها
نُعـوتٌ كلّهـا غَـدَت نُعــوتــاً لِعبّـادٍ سِـوى نَعــتٍ عَـداهـــا
وذلـك أنهـا مهمـــا أقامَــــتْ بـأرضٍ أيْبَسَـت مِنْهـا ثَـراهــــا
وعَبّاد إذا ما حَلَّ أرضَــــــاً تَفَجّرَ يَبْسُ تُرْبَتِهـا مِياهـــــا[3]

وهكذا فممدوح ابن شرف في مكانتـه أعلـى من الشمس، وافضل منهـا؛ ذلك لأنّـه مصدر خير وبركة وعطاء، يبعث الخير في الناس، ويجزل لهم العطاء، فهو فوق الشمس في علوّه وفضله، هذا مع أنّ ابن شرف كان يتحاشى عبّاد، ويخشى جانبه مثلما تقدّم، ولكنّه مع ذلك يفضّله على الشمس، ويجعله بلا شَبَهٍ في الناس في مكانته وفضله؛ ذلك لأن الهدف من وراء هذه الأشعار، وهذه المدائح التي كان ابن شرف يزفها إلى عبّاد هذا وهو بعيد عنه، هدف ماديّ؛ ليجزل له العطاء، ويدرّ عليه الأموال الطائلة، وهذا ما يؤكد لنا أنّ ابن شرف كان قد تكسّب في شعره في هذه الفترة من حياته في بلاد الأندلس.

---

(١) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٢

(٢) المصدر نفسه، ٢٢٢.

(٣) الغيث، ٢/٢٦٢.

هذا ويشير ابن شرف في مدائحه إلى أنّ الإرادة الرّبانيّة هي التي منحت ممدوحه هذه المكانة العالية، وهذا الشرف الرّفيع الذي حلّ فيه، وخُصّ بهِ دون غيره مِنَ الناس، لذلك فهو محسود على ذلك فيقول:

يا حاسديهِ علَى عُلاً خُطّتْ لَـــهُ   سَبَقَ القَضا بالنّونِ بَعْدَ الكَافِ[1]

ويتغنّى ابن شرف في نسب ممدوحه، فيشير إليه أنّ القبائل الأخرى كانت تحسد قبيلته على وجوده فيها، فيقول:

يَا مَلِكاً أمْسَتْ تُجيبٌ بِـهِ   تَحسِدُ قَحْطانَ علَيـهِ نِزار[2]

وهذا يكشف لنا عن معرفة ابن شرف بأنساب ممدوحيه، وبالأصول التي يعودون إليها، كما يكشف لنا عن علمه بأنساب العرب، وعن معرفته باسماء القبائل العربيّة التي كانت موجودة بالأندلس في تلك الفترة.

وليس هذا فحسب، بل إنّ ممدوحه كان صاحب شرف قديم متأصّل، فهو قد ورث المجد والعلوّ، والمكانة الرفيعة، والشرف كابراً عن كابر، لا بل هو الشرف بعينه الذي يشرّف من يتصلون به، وهذا واضح من قوله:

هـو الشرف الذي نَسَبَ المَعالـي   إليه وهو ذو الشّرَفِ القَديـم[3]

وكثيراً ما كان ابن شرف يُضفي على ممدوحه صفة التّفرّد بين الناس، فيجعله بلا مثيل بينهم، وإنْ كان من جنسهم، ومِنْ مادة خلقهم إلاّ أنّه يختلف عنهم بما يتحلّى به من فضائل وصفات، ومن ذلك قوله:

أبناءُ جنسِكَ في الحُلى لا في العُلا   وأقولُ قَولاً لَيْسَ بالمَدْفوع
أبَداً تَرَى البَيْتَيْنِ يَختَلِفانِ في الـ   معنى وَيَتّفِقانِ في التَقْطيعِ[4]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٢١.
[2] المصدر نفسه، ق٢م٢/٦٤٣.
[3] إنباه الرواة، ١/٣٠٢.
[4] الوافي بالوفيات، ٣/٩٩.

والناس مهما بذلوا، وتكلّفوا الانفاق والعطاء، فإنّهم يظلون مقصّرين عنه شوطاً بعيداً، ولن يصلوا إلى ما وصل إليه؛ لأن ما يتصف به متعمق في نفسه وأصيل، وهذا واضح من قوله:

لَو كانَ خُلْقُكَ لليالي لَم يَزَلْ — جِسْمُ الثَّرى وَعلَيهِ ثَوبُ رَبيعِ
سَلَكَ الوَرى آثارَ فَضلِكَ فأنثَنى — مُتَكَلِّفٌ عَنْ مَسْلَكٍ مَطبوعِ[1]

ولما كان العصر الذي عاش فيه ابن شرف، عصر صراع وتناحر بين دول الطوائف وملوكها فإنّه لم ينسَ أنْ يتوقفَ عند شجاعة ممدوحه، وإقدامه، وقوّة بأسه، فهو شهاب الحرب، ومحرق كل شيطان رجيم، ومن ذلك قوله:

شِهابُ الحَربِ يُهلِكُ كُلَّ باغٍ — وَمُحرِقُ كُلِّ شَيطانٍ رَجيمِ
تُقَطِّعُ دُونَهُ البيض المَواضِي — وَتَجفِلُ عَنْهُ إجفالَ الظليمِ[2]

وهو مِجنّ في الحرب يحتمي به الناس من الرّماح والنّبال، وهذا واضح من قوله:

جَاوِرْ عليّاً ولا تَحفَل بِحادِثَةٍ — إذا أدّرَعْتَ فَلا تَسأل عَنِ الأسَلِ[3]

ومن الصفات الأخرى التي أسبغها ابن شرف على بعض ممدوحيه، القدرة على حلّ المشاكل، وتلبية حاجات مَن يقصدونه، فهو ملاذ السّائلين، ومحطّ رحالهم وكعبة آمالهم، يعمل على تلبية رغباتهم، وعلى تحقيق أمانيهم: فالفقير الذي يقصده يعود غنيّاً، والمذنب يعود بالصّفح والعفو، والخائف الذي يتصل به يحظى بالطمأنينة والأمن، وهذا واضح من قوله:

لِمُختَلِفي الحَاجَات جَمعٌ بِبابِهِ — فَهذا لَهُ فَنٌ وَهذا لَهُ فَنُّ
فَلِلخامِلِ العُليا، ولِلمُعدَمِ الغِنى — ولِلمُذنِبِ العُتبى ولِلخائِفِ الأمنُ[4]

وشاعر واسع الثقافة مثل ابن شرف عندما يريد أنْ يصوّر لنا هيبة ممدوحه وقوة شخصيته، هذا من ناحية، وحلمه، وسعة صدره وسماحته من ناحية أخرى، فإنّه يلتفت إلى هيبة

---

(1) الوافي بالوفيات، ٣/٩٩.
(2) الإنباه، ١/٣٠٢.
(3) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٢.
(4) المعاهد، ٢/٣١٠.

عمر بن الخطّاب، وإلى حلم عليّ بن ابي طالب وسعة صدره وانبساطه، ليشبّه ممدوحه بهما، فيقول:

فإن أفحَمَتْنا هَيْبَةٌ عُمَرِيّةٌ لَدَيكَ لَها في الشّعرِ كَسْرٌ وإقواءُ
بَذَلْتَ انبِساطاتٍ لَنا عَلَوِيّةً لَها بَعدَ موماتِ المَهامِه أفياءُ[1]

وكرم الأصل من الصّفات التي يفتخر بها العربيّ، وهذا أمر لا يغيب عن ذهن شاعرنا، فكثيراً ما كان يركّز على هذا الجانب في مدائحه، ويحاول أن يذكّر ممدوحه بأصله العريق الكريم الذي ينتمي إليه، وبحسبه ونسبه الذي ينتهي إليه، متطرقاً إلى سلسلة نسبه وأجداده، ومن ذلك قوله في مدح المعزّ بن باديس صاحب القيروان:

شَرَفُ الدولَةِ المعِزُّ ابنُ باديسِ النَّصيرُ المُظَفَّرُ المِقدامُ
مَنْ لَهُ في العُلا ثَلاثَةُ آبا ءِ نَصيرٌ وعُدّةٌ وَحُسامُ
وابنُ زيري أبو الفُتوح الذي أعـ ـدى أعاديهِ في الوَرى الاحْجامُ[2]

ومهما يكن من أمر، فإنّ التأكيد على هذه المعاني، وعلى هذه الأمور مِن قِبَلِ شاعرنا لم يأتِ مصادفةً، إنّما كان يتعمّد الإتيان به تَعمّداً؛ ذلك لأنّ الوضع السياسيّ السّائد في ذلك العصر، وتمزّق البلاد وانقسامها إلى دويلات صغيرة كان يتطلب التركيز على مثل هذه الأمور والتأكيد عليها.

ولمّا كانت طهارة العرض ونقاؤه، والسُّمعةُ الحسَنَةُ من الصّفات التي تشغل بال العربيّ وتؤرّقه، فإنّ ابن شرف لم يكن لينسى هذه الصفة في قصائده التي رفعها إلى ممدوحيه، ومن ذلك قوله في ابن طاهر:

فَتىً طَاهِريٌّ طاهِرُ الثّوبِ ذِكرُهُ مِنَ المِسكِ أذكى أوْ مِنَ الماءِ أطهَرُ[3]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢١٩.
[2] البيان المغرب، ١/٢٩٥.
[3] الذخيرة، ق٤م١/٢٢١.

حيث يشير هنا إلى أنّ ممدوحه قد جَمَع ما بين السخاء والكرم، وطيب الذكر والصيت الحسن، وإمعاناً منه في تأكيد هذه الصفة لممدوحه فقد ذهب إلى القول: إنّ عرضه وشرفه أطهر من الماء، وأطيب من المِسك.

وكثيراً ما كان ابن شرف يجعل الطبيعة تشاركه فرحته وسعادته بعصر ممدوحه وبِحُكمِه الذي يُدخِل البهجة والسرور في النفس؛ لما فيه من طيبِ عيشٍ، ومن مباهج، ومفاتن، فها هي الشمس تشاركه فرحه وسروره بِحُكم المنصور حفيد بن أبي عامر حيث يقول:

زَمَنُ المَنصور قَوَّى مِنَّتي ... وَسَرى هَمّي وأحيا جَذَلي
وَسُرورُ النَّفسِ مِنْ بَعدِ الصِّبا ... ناشِرٌ عَصرَ الصِّبا والغَزَلِ
فاستُطيبَ العَيشُ في بَلدَتِهِ ... فَكأنّ الناس في قُطرُ بَلَلِ
وكأنَّ الشمسَ مِنْ بَهْجَتِها ... أبَداً فيها بِبُرجِ الحَمَلِ[1]

وقد كان ابن شرف في مدحه يركّز على جمال ممدوحه الماديّ إلى جانب جماله المعنويّ، فممدوحه كانَ يَفوقُ القمر حُسناً وجمالاً هذا إلى جانب كونه شجاعاً مقداماً، ومن ذلك قوله:

شِهابُ الحَربِ يُهلِكُ كُلّ باغٍ ... وَمُحرِقُ كُلّ شَيطانٍ رَجيمِ
وَيَجلوا عَنهُ لَيلَ النَّقعِ وَجْهٌ ... كَبَدرِ التمِّ في الليلِ البَهيمِ[2]

وكثيراً ما كان في مدائحه يركّز على حُبّ ممدوحه للعلم والأدب، وينعته بذلك، وهذا يعود إلى تأثره بالحياة الثقافيّة والفكريّة السائدة في ذلك العصر، فَنتجَ عَن ذلك أنْ أخذ الشعراء يتغنّون بِحبّ ممدوحيهم للعلم وتعلقّهم به، ومن ذلك قوله في مدح المظفّر بن الأفطس، حيث يقول:

سيري فَلَمْ نَقْذِفكِ في مَجْهَلٍ ... ولا ضَرَبْنا بِكَ ضَربَ القِمارْ
حَيْثُ علوقُ العِلْمِ مِطلوبةٌ ... يُوافِقُ السّوقَ كِرامُ التجّارْ[3]

ويشير ابن شرف إلى أنّ ممدوحه لا ينادم إلاّ العلماء والأدباء، وأنّه بصير بالأدب ونقده، فهو صاحب نظر ثاقب، ورأي سديد، قادر على معرفة الغثّ من السمين، فيقول:

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢١٨.
(2) الإنباه، ١/٣٠٢.
(3) الإنباه، ١/٣٠٢.

أقَمْـتَ لِلعلـمِ مَنـاراً وَمـــــا | أظُنُّ فـي الدُنْيـا لِعِلمٍ مَنَــــارْ
فَمـا نُداماكَ سِـوى أهلِــــــهِ | وكلّهـم بَيْـنَ ندَامــى العقــــارْ
ميْـزُكَ ميــزانُ عُقُــولِ الــورَى | وَفَهمُكَ العَـدلُ لِكلِّ عيــــارْ
تَبـدو لَكَ الهجْنَــةُ في لَحْظَــةٍ | وتَعرِفُ الأسنــانَ قَبلَ الفِـرارْ
مِنْ لَفْظِهـــم تَعْرِفُ مـا هُم وَفـي | جَحْفَلَـةِ العاثرِ يَبــدو العَثــارْ.[1]

ولقد نهجَ ابن شرف في مدائحه نهج أبي الطيب المتنبيّ حيث كان يفتخرُ بنفسه من خلال افتخاره بالممدوح، وهذا واضح من قوله:

إنّي وَمَجْدِكَ صَيّـرتُ الورَى نَهـراً | وَقُلْـتُ ما قالَه طـالُوتُ فـي النَهَـرِ
فأنتَ عِنْدي مِنهُمُ غَرفَةٌ بِيَــــدي | حلّتْ وَحُرِّمَ باقي النّهرِ في الزُبُرِ[2]

مثلما كان يفتخر بشعره، ومن ذلك قوله:

خُذْهــا أبـا بَكـرٍ غُرَيّبِيــــــــةً | سَرَى بِـها الودُّ إليْكُـم وَطَــــارْ
لَيْسَتْ مِنَ الشّـعرِ القَصيرِ الخُطـى | وَلا مِـنَ المَسْـروقِ والمُستَعــارْ
قَدَّمتُهــا قَبْلَ قُدومــي كَمَــــــا | قَدَّمتِ الحُجّـاجُ رَمْيَ الجِمــــارْ

ومن خلال هذه الصفات والفضائل التي اثبتها ابن شرف لممدوحه من مثل: السّخاء والكرم، والهيبة والوقار، والشجاعة والإقدام، ومضاء العزيمة، وعراقة الأصل، وطيب العرض والشرف، وحبّ العلم والتعلق به ...، نستطيع أن نتعرّف إلى القيم التي كانت سائدة في عصره، وعصر ملوك الطوائف بالأندلس، ومدى تأثره بثقافة عصره المتنوعة الواسعة من جانب آخر.

كما أنّنا نستطيع أن نتعرّف إلى نظرة شاعرنا إلى الصورة المثاليّة التي يجب أن يكون عليها الممدوحون، من كَرَمٍ، وشَجاعَةٍ، وثقافَةٍ، وتقديرٍ للعلم والأدب.

ونستطيع أنْ نلاحظ أيضاً أنّ ابن شرف في قصيدة المديح قد سار على نهج القصيدة العربيّة التقليديّ، فوقف على الأطلال، وتغزّل بالمرأة، وصوّر لنا طريقه إلى الممدوح، قبل أنْ

---

[1] الذخيرة، ق٢م٢/٦٤٣.
[2] المصدر نفسه، ق٤م١/٢٢٣.

يصل إلى الغرض الذي يريد، وهذه أمور سوف نتوقف عندها عندما نتعرّض لدراسة شعرِه من الناحية الفنيّة -إن شاء الله-.

الغـــــزل:

لم يُكثر ابن شرف من الغَزَل في شعره الذي وصلنا، وإنّما اقتصر فيه على ما جاء في تلك المقدّمات الغزليّة التقليديّة التي يفتتح بها قصائده في المديح، هذا بالإضافة إلى المقطّعات الغزليّة القصيرة التي جاء بعضها في تصوير حالته بعد فراق مِنْ يُحب، وفي تصوير طيفها الذي كان يؤرّقه ويمنعه من النّوم والرّاحة، وجاء بعضها غزلاً بالمذكر.

ونستطيع أنْ نلاحظ من خلال هذه المقطّعات أنَّ ابن شرف قد طرق الغَزَل بأنواعه المعروفة، فتحدّث عن مفاتن المرأة الجسديّة، وعن مواطن الجمال فيها، وعن مشاعر الهُيام والتعلّق، وشكا من صدّ المحبوب وهجره، والتفت إلى أولئك اللائمين والعُذّال الذين اجتهدوا في لومه وإغرائه بترك مَنْ يُحِب، فأسكتهم وأعرض عنهم؛ لجهلهم بما يعاني مِنْه.

إلاّ أنّ الغالب على غَزَل ابن شرف أنّه غَزَل حِسيّ تقليديّ ينصَبّ على مواطن الجمال الماديّ في المرأة، ويركّز على مفاتنها الجسديّة المحسوسة مِنْ قوامٍ، وخَصرٍ، وصَدرٍ، وفَمٍ، وجيدٍ، وخَدٍّ، وعيونٍ، وشَعرٍ، وما إلى ذلك من مواطن الجمال والفِتنة الأنثويّة التي دَرَجَ عليها الشعراء العرب من قَبْل.

ويلوح لي أنّ شاعرنا قد طرق هذا الضرب من الغَزَل في بداية قصائده المطوّلة في المديح جرياً على عادة القدماء، ومحاكاةً لهم في قصائدهم، ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا اللون من الغَزَل يكشف لنا عن نَظرَة شاعرنا إلى الجمال، وإلى الصورة المثاليّة التي ينبغي أنْ تكون عليها المرأة، كما يكشف لنا عن نظرة مجتمعه إلى الجمال الأنثويّ في المرأة.

وإذا ما نظرنا في تلك النماذج الغزليّة التي وصلتنا فإنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان يُحبّ في المرأة أن تكون طويلةَ القامة، جميلة الوجه، دقيقة الخَصر، ساحرة العينين، ردفاء، ذات فم جميل، وأسنان بيضاء ناصعة البياض، وما إلى ذلك مِنَ الصفات التقليديّة التي أثبتها الشعراء للمرأة التي تغزّلوا بها مِن قَبل.

هذا ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ ابن شرف كان يحاول أن يتوقّفَ عند كل عُضوٍ من أعضاء المرأة، ويضفي عليه قيمة جماليّة معيّنة، فالعيون ساحرة أخّاذة، صارمة كالسيف في نظراتها، وهذا واضح في قوله:

جــرّدَتْ عَيناكِ سَيْفيـــــ ـــنِ لذّا أمرُكِ أمـــــــرُ[١]

والقامة غصنٌ، والوجه قمر، وأمّا الخدود فحمراء مشرّبة بالبياض، والفمُ جميل يشبه الدّرّ بما فيه من أسنان ناصعة بيضاء، والأرداف كثبان، وأمّا الخصر فدقيق يكاد أنْ ينكسِر لدقّته ورقّته، وهذا واضح في قوله:

بَيْـنَ أجفـانِكِ سِحـــــــرُ وَعَلـــى غُصنِـكِ بَـــدرُ
فَعلى خدّكِ مِـــن نَثـــــــــ ـــرِ دَمِ العُشّـــاقِ أثْـــــرُ
وَمِنَ الكُثبـــانِ شَطـــــرٌ لَـكِ والأغصــــانِ شَـطْرُ
وَسَــــــواءٌ قُلـــتُ دُرٌّ مـا أرى أوْ قُلْتُ ثَغْــرُ
وَبِمـاذا أصِفُ الخَصـــــــ ـــرَ وَمَـا إنْ لَكِ خَصــرُ[٢]

هذا ويشير ابن شرف إلى أنّه متعلق مشغول بهذه المحبوبة الفاتنة فيقول:

بكِ شُغلـــي واشتِغالـــي وَمَضـى زَيْدٌ وَعَمْـــرو[٣]

وكثيراً ما كان ابن شرف يتخذ من القمر وسيلة للتعبير عن جمال وجه المرأة، حتى أصبح القمر فيما وصلنا من شعره يدلّ دلالة واضحة على وجه المرأة، ومن ذلك قوله:

مرَبِّي غُصنٌ عَلَيه قَمَـــرُ مُتَجلٍّ نُورُهُ لا يَنجَـــلي[٤]

وممّا تقدم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ شاعرنا كان يستعير مواطن الجمال من طبيعة بلاده الجميلة، ومن واقع بيئته التي يعيش فيها، ليضفيها على محبوبته التي يتغزل بها، كما كان يستعيرها من الحلى، والدرّ، والأشجار، وغيرها من مظاهر الطبيعة الصامتة والمتحركة التي تحيط به.

---

(١) الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.
(٢) الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.
(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٢١٨.

وهذه الصفات التي أسبغها ابن شرف على المرأة التي تغزّل بها، إنّما هي صفات مثاليّة موروثة، سار فيها على نهج الشعراء القدامى، وهي بالتالي لا تكشف لنا عن تجربة فعليّة واقعيّة عاشها شاعرنا مع إمرأة معيّنة بثّ إليها لواعج نفسه، وخبايا صدره، ولكنّها تكشف لنا عن نظرته الجماليّة إلى المرأة المثاليّة التي وصفها، وصوّرها لنا كما يجب أنْ تكون لا كما هي بالفعل.

ومهما يكن من أمر، فإنّ غزَل ابن شرف لم يكن ليقتصر على تصوير مفاتن المرأة الجسديّة المحسوسة، إنّما تعدّى ذلك إلى الشكوى مِنْ صدّ المحبوب وهجره، وإلى تصوير حالته المتعبة المؤرّقة المحزونة؛ لفراق أحبّته، فكثيراً ما كان يشير إلى أنّه لَم يَعُد يحتمل البُعد عن أحبّته، فيقول:

تَصَعّدُ نَفسٍ لا صُعودُ تَنَفّسٍ ... وتَرديد رُوحٍ في حُشاشةِ مكروبِ
فَلا القُربُ يُحييني ولا البُعدُ قاتِلي ... ولا الهَجرُ يُسليني ولا الصّبرُ يلوي بي[1]

فالشاعر كما نرى كان يعاني ويتعذّب من شدّة الحنين والشّوق إلى رؤية محبوبته، ونيران الشوق والحنين تَشتعل في أحشائه، فكانَ لذلك أثره على صحّته ونفسه، إذ أصبحت صحّته معلولة، وعلاجه الوحيد، وخلاصه ممّا هو فيه، أنْ يرى محبوبته التي هجرته وابتَعَدَت عنه، فيقول:

وَأصبَحتُ ذا ضُرٍّ ولُقياكِ مُبْرِئٌ ... لِضُرّي ولَكِنْ أيْنَ عيسى مِن أيّوبِ؟[2]

ويبالغ ابن شرف في تصوير حالته ونفسه بعد فراق محبوبته وهجرها لَه، فيشير إلى أنّه أصبح جسداً بلا روح، مسلوب القلب؛ ذلك لأنّ روحه وقلبه لم يَعودا مُلكاً لَه إنّما هما مُلكٌ لِمن يُحبّ، وهذا واضح من قوله:

أعنّي بإطماعِ الوِصالِ على النّوى ... إذا لَمْ تُقاتِل يا جَبانُ، فَشَجِّعِ الطّلبُ
لَديْكَ فُؤادٌ مالَه مِنْ مُطالِبٍ ... في بَعضي وَقَد بانَ أجمَعي؟
وَديعةُ مَيْتٍ أنْتَ فيها مُحكّمٌ ... وإنْ شِئتَ فاحفَظْها وإنْ شِئتَ ضَيّعِ
أرى مُهَجاتٍ في يَدَيْكَ فَما تَرى ... بِمَن شِئتَ أوقِعْ أو بِما شِئتَ وقّعِ[3]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.

[2] المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

الأمر الذي جَعَل شاعرنا يعيش في حالة بين الرّجاء واليأس، ومن ذلك قوله مخاطباً من أوصله إلى هذه الحالة:

فَيا قاطِعاً وَصلي وَيا واصِلاً غَدي ... بأمسي وَيَومي في العَذابِ المُمَتَّعِ
صَرَفْتَ رَجائي عَن لَعَلّ وَعَن عَسى ... وأبعَدتَني باليأسِ مِن كُلِّ مَطمَعِ[1]

ولكنّه عندما يفقد الأمل من لقاء معذّبته، ومن الاتصّال بها، ويداهمه اليأس بسبب صدّها عنه وهجرها له، فإنّه لا يجد إلاّ الدموع ليذرفها غَزيرة على خيبة أمله، وعلى حظّه العاثر، فيقول:

واذكُر لَياليكَ التي ذَهَبَتْ لَنا ... نَهباً وَعَيْشاً كانَ كالتَّهويمِ
يُسعِدكَ وابِلُ أدمُعٍ في أربُعٍ ... شَرِبَتْ مياهَ الدَّمعِ شُرْبَ الهيمِ
أيّامَ شَمسُ المَشرِقَيْنِ ضَجيعَتي ... فيها وَبَدرُ المَغرِبَيْنِ نَديمي
وَنُجومُ كاساتي طَوالِعُ بالمُنَى ... والسّعْدُ يَستَغْني عَنِ التَّقويمِ[2]

وهكذا فقد حاول ابن شرف ان يرسم لنا صورة حسّية مجسّمة للمرأة التي أحبّها، بقامتها ووجهها، وخدّيها، وثغرها، ونَهْدَيها، ثمّ يلتفت بعد ذلك إلى تصوير تعلقه ومشاعره نحوها لا سيّما بعد أن لَقِي منها الصدود والهجر ولكنه في ذلك كله لا يخرج عن الاتجاه الحسّي الذي عهدناه عند القدماء ولم يهمل الحديث عن جمال المرأة المعنوي وما كانت تتحلى به من صفات وفضائل وشِيَم معنويّة من مثل الدّلال، والتنعّم، والرائحة الطيّبة والرفاهية ...، بل إنّه لم يكن ليرضى بالجمال الجسديّ الماديّ الذي ينصبّ على مواطن الجمال في المرأة، ومفاتنها الأنثوية فحسب، إنّما كان يرى أنّ الجمال الجسديّ لا قيمة له إذا لم يكن مشرَّباً بجمال النفس والخُلُق، وهذا واضح من قوله:

إحْذَرْ مَحاسِنَ أوْجُهٍ فَقَدَتْ مَحا ... سِنَ أنفُسٍ ولو أنّها أقْمارُ
سُرُجٌ تَلوحُ إذا نَظَرْتَ فإنّها ... نورُ يُضيءُ وإنْ مَسَسْتَ فَنارُ[3]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢١٦.
[2] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
[3] فوات الوفيات، ٢/٤١١.

وأمّا العذّال واللائمون فقد كان لهم نصيب في مقطّعات ابن شرف الغَزَليّة، فكثيراً ما كانوا يتَطفلون عليه بنصائهم الممجوجة، كي يلتفت إلى نفسه، ويبتعد عن هذه المحبوبة، فيتجنّب بذلك ما يلاقيه في حبّها من عَذابٍ، وصَدّ، وَهَجرٍ، غير أنّه لم يكن يستمع لهم؛ ذلك لأنّ طريقته في الحياة تختلف عن طريقتهم، فيقول:

يَقولُ لِيَ العاذِلُ في لَومِهِ ... وَقَولُهُ زورٌ وَبُهتانُ
مَا وَجْهُ مَنْ أحْبَبْتَهُ قِبْلَةٌ ... قُلْتُ، وَلا قَولُكَ قُرآنُ(١)

ويشير إلى أنّ هؤلاء المتطفلين العذّال لا يعرفون حاله، وما يعتلج في صدره من الحزن والأسى والشّوق والتعلق، ذلك لأنّهم لم يعيشوا تجربته ليحسّوا بما يحسّ به من حبٍّ وتعلّق، وإلاّ لما تعرّضوا له باللوم والنّصح والإغراء بترك من يُحبّ، فيزيده ذلك حبّا وتعلقاً به، ومن ذلك قوله:

قُل لِلعذولِ لو اطلَعْتَ على الذي ... عانيتُهُ لَعَنَاكَ مَا يُعْنينِي
أتَصُدّنِي أمْ لِلغرام تَرُدّنِي ... وَتلومنِي في الحُبِّ أمْ تُغرينِي؟
دَعْنِي فَلَسْتَ مُعاقِباً بِجِنَايَتِي ... إذ لَيسَ دينُكَ في المحبّةِ دِيني(٢)

وأمّا الغزل بالمذكر عند ابن شرف فلم يكن ليختلف اختلافاً كبيراً عن الغزل بالمؤنث في طريقة تصوير الأوصاف الجسديّة والتغنّي بالمفاتن الحسيّة، حتى أنّه ليخيّل للدّارس في بعض الأحيان أنّ الشاعر يتغزّل بفتاة جميلة، ويبثّ إليها لواعج نفسه، وخفايا صدرِه، ويعبّر عَن حبّهِ لها، وتعلّقه بها، فكثيراً ما كان شاعرنا في هذا اللون من الغَزل يتوقّف عند قوامه ورشاقته، وحمرة خدوده، ودلاله وحسنه، وقد يشبهه بالقمر في حُسنه وجماله، ومن ذلك قوله في غلام يُدعى عُمَر:

يا أعدَلَ النّاسِ اسْماً كَمْ تَجورُ على ... فُؤادِ مُضناكَ بالهجرانِ والبَيْنِ
أظنّهم سَرَقوكَ القافَ مِنْ قَمَرٍ ... فأبْدَلوها بِعَيْنٍ خيفَةَ العَيْنِ(٣)

---

(١) تزيين الأسواق، ٢/٥٦.
(٢) ديوان الصبابة، ١/١١٧.
(٣) فوات الوفيات، ٢/٤١١.

ويقول في آخر بعد أن بَلَغ مَبْلَغ الرّجال، ونبت العِذارُ على عارضيه، فزاده حُسناً وجمالاً وبهاءً، ويشير إلى أنّ هذا الغلام قد جَمَع في شخصيته جمال الخِلقة والهيئة إلى جمال الخُلُق والفعل، وهذا واضح من قوله:

قَد كُنْتَ في وَعْدِ العِذارِ فأنْجَزا ... وقَضى لِحُسْنِكَ بالكَمالِ فأوجَزا
وافى لِنَصْرِ الحُسنِ إلاّ أنّهُ ... ولّى إلى فِئةِ الهَوى مُتَحيِّزا
عَطْفٌ تَعلّم منكَ عِطفُكَ عَطْفَهُ ... وَجَدَ الفُؤادُ بِهِ السّبيلَ إلى العَزا
لَمْ يَكفِ وجهكَ حُسْنهُ وَبَهاؤه ... حتى اكتسى ثوبَ الجمالِ مُطَرّزا
سُبحانَ مِنْ أعطاكَ حُسْناً ثانِياً ... وَبِثالثٍ مِنْ فِعْلِ حُسْنِكَ عَزّزا[1]

وعلى ما يبدو أنّ هذا اللون من الحبّ الشّاذ كان ظاهرة أدبيّة عامّة تفشت في تلك الفترة، مارسها الأدباء والشعراء على مختلف طبقاتهم الثقافيّة في ذلك العصر[2]، الأمر الذي دفع بابن بسّام إلى القول: ((... فقد جَرَت خيول فرسان هذا الشأن بهذا الميدان، وتغنّوا في ذلك نظماً ونثراً.))[3].

ويمكننا أن نردّ شيوع هذه الظاهرة في عصر شاعرنا لأسباب كثيرة ومنها: كثرة مجالس اللهو والطّرب التي كانت تُعقد في ذلك العصر، وقد كانت تلك المجالس غاصّةً بالغلمان مزدحمةً بهم، فكان الشعراء يصفونهم، ويتغنّون بجمالهم من خلال وصفهم لتلك المجالس، مثلما كانوا يصفون الخمرة، ويُصوّرون المجالس وما يدور فيها، ومنها: أنّ هذا اللون من الغَزَل كان نمطاً من أنماط التقليد الأدبيّ، فقد أُتخِذ للمحاكاة والتقليد والتظرّف. الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنّ ما وصلنا لابن شرف من هذا اللون منَ الغَزَل قد كان من هذا القبيل، وأنّه قد نَظَمَ في هذا الضرب من الغَزَل الشّاذ على سبيل المحاكاة والتقليد؛ حتى يثبت لمعاصريه أنّه قادر على القول في معظم فنون الشعر وأغراضه.

ولكنّنا لا نستطيع أنْ ندّعي أنّ هذه المقطّعات الغزلية التي قالها ابن شرف في المذكّر تمثل جانب الانحراف أو الفِسق في شخصيته أو تَنمّ عن السّوء فيها.

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.

(2) أنظر: ديوان ابن رشيق، ص: ٢٧، ٤٠، ٦٢، ٦٧، ١٤٣، ١٣٢، والذخيرة، ق٤م١/٩٥، ٩٩، ١٠٣.

(3) الذخيرة، ق١م١/١٤٤.

الـوصـف:

لقد كان فنّ الوصف من الفنون الشعريّة التي طرقها ابن شرف في شعره الذي وَصلَنا، غير أنّ هذا الفنّ الشعريّ لم يصل إلينا في قصيدة مستقلة قائمة بذاتها، تدور حول غرض شِعريّ بعينه، إنّما نستطيع أنْ نلحظه في كافة الأغراض الأخرى التي تصدّى لها ابن شرف مِنْ مَدحٍ، وهجاءٍ، ورثاءٍ، وغزَلٍ، وما إلى ذلك من الموضوعات الشعريّة الأخرى؛ ذلك لأنّ الشّعرَ في معظمه إنّما يرجع إلى هذا الفن، ويصدر عنه، قال ابن رشيق: ((... الشّعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه.))[1]، وإلى مثل هذا أو قريب منه ذهب أحد الدّارسين، حَيث يقول: ((اتسعت آفاق الوصف أمام شعراء الأندلس بعامّة، وشعراء الطوائف بخاصّة، فنبغوا فيه أيّما نبوغٍ، وكانت الطبيعة هي الملهم الأكبر لهم حتى صارت المنطلق لكثير من فنونهم.))[2].

ولمّا كانت الأغراض الشّعريّة السّابقة التي طرقها ابن شرف تُعنى بتصوير الواقع الذي يعيش فيه ويتفاعل معه بطريق غير مباشر، فإنّ هذا الفن يُعنى بتصويره ونقله بصورة مباشرة، ويعرض لنا منه صوَراً حيّةً نابضةً بالحياة؛ ذلك لأنّ الشاعر في هذا الفن أشبه ما يكون بمصوّر بارع يبحث عن مواطن الجمال في كل ما يحيط به، فيلتقط منه صوراً جميلة أخّاذة مؤثّرةً، تصوّر لنا الواقع بأدق تفصيلاته، وجزئياته مهما صَغُرَت، فيجعلنا أمام ذلك الواقع، وكأنّنا نعيشه ونتفاعل معه، فنتأثر فيه ويؤثر فينا، وهذا ما يستطيع الدّارس لآثار ابن شرف الشعريّة والنثريّة -على حد سواء- أنْ يراه بكل وضوح، فشاعرنا كغيره من شعراء الأندلس والمغرب كان معجباً مفتوناً بطبيعة بلاده الجميلة الفاتنة، فاستوقفه ذلك الجمال، وتلك الطبيعة الخلاّبة، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً، كما وصف البيئة المحيطة به، وما فيها من مظاهر مختلفة، وصفها لنا صامتة، ومتحرّكة، وصناعيّة، فتوقّف عند ما فيها من حدائق، ورياض، وبساتين، وأشجار، وثمار ونباتات، وأزهار وورود، وما إلى ذلك، كما وصفها لنا متحرّكة، فوصف الحيوان مثل: الزّرافة، والبرغوث، وغيرهما، كما توقّف عند بعض مظاهر الحياة اليوميّة التي عاشها، فصوّرها لنا تصويراً رائعاً متخذاً من اللغز وسيلة لذلك، فوصف لنا الميزان، والإبرة، والمرآة، ومكمدة

---

[1] العمدة، ٢/٢٩٤.

[2] البيئة الأندلسيّة، ص: ١٠١.

الثياب، وحبل الغسيل، وغيرها من تلك المظاهر الصناعيّة البسيطة التي كان يراها، ويتفاعل معها، هذا بالإضافة إلى وصف بعض نواحي الحياة الثقافيّة التي كان لها إتصال بحياته، مثل: الأقلام، كما وصف لنا وطنه القيروان الذي مُني بالدّمار والخراب على أيدي الأعراب، فصوّره لنا قبل خرابه وبعده، مثلما صوّر لنا نُفوس أهله وهم في ديار الغربة، كما سنرى.

ولو أنّ يد الزمن سمحت لِشِعره بالوصول إلينا لأستطعنا أنْ نرى وصفاً لمختلف جوانب الحياة التي تفاعل معها، وعملت على شحذ قريحته وشاعريته.

ومن الجدير بالإشارة هنا أنّ طبيعة بلاده الجميلة وما فيها من جبال خضراء، وسهول واسعة ممتدة غاصّة بما لذّ وطاب من الأشجار والنباتات والثّمار، وما فيها من أزهار وورود ذات ألوان مختلفة، وروائح شذيّة عبقةكانت من أهم الأمور التي استوقفته وجَذَبت إنتباهه، فهام في أحضانها يبثّها الحُبَّ والغرام، ويبثّ إليها لواعج نفسه، وخبايا صدره ويعبّر إليها عمّا في نفسه لها من حُبّ وإعجاب وإفتتان وتعلّق، فَجعلته ينطلق في وصفها وتصويرها على سجيته مُعبّراً عن مفاتنها، ومباهجها، ومواطن الجَمال فيها دونما قيود، فها هو يصف لنا وادياً جميلاً غطت جوانبه الأزهار اليانعة الخضراء ذات الألوان المتعدّدة التي كان منظرها يبعث البَهجة والسرور في نفس من يمتّع نظره برؤيتها، وبمنظرها الخلاّب، فيقول:

رِياضٌ غَلائِلُها سُنْدُسٌ ... تَوَشّتْ مَعاطِفُها بالزّهَرْ
مَدامِعُها فَوقَ خَطِّ الرُّبا ... لَها نَظْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَرْ
وَكُلُّ مَكانٍ بِها جَنّةٌ ... وَكُلُّ طَريقٍ إليها سَقَرْ.[1]

ويصف لنا بُستاناً يغصّ بالأشجار المتنوعة المختلفة، فيتوقّف عند عرائش العِنب ذات الظلال الوارفة الخضراء، ويُشبهها بالدّرّ واللؤلؤ، ويتوقّف عند حبّات العِنَب فيشبهها بالعَسل الممزوج بالماء الصافي العَذب، فيقول:

سقَى الله عَيْشي تَحْتَ رَيّانَ يافعٍ ... مُغذّاً بأنداءٍ وَبَرْدِ ظِلالِ
كأنّي إذا امتدّتْ عَلَيّ ظِلالُهُ ... مَسَحْتُ على بُرْدَيَّ رَوْعَ غَوالِي
كأنّ على أوراقِهِ أدْمُعَ الحَيا ... نِظامُ لآلٍ أوْ نُجُومُ لَيالِي
كأنّ على أعْنابِهِ سُنْدسيّةً ... سَواتِرُ مِن حَرّ الهَجيرِ كَوالِي

---

[1] معجم الأدباء، ٣٩/١٩.

كـأنّ مَديـــداتِ العَرائِش فَوقَنـــا هَوابِطُ خِلجـانٍ تَلِيـــنُ عَوَالـــــي
كأنّ جَنى المَقطُـوفِ مِنْ ثَمَراتِهـا جَنَى النّحلِ مَمْـزوجاً بماءِ زُلالِ(١)

ويتوقّف في ذلك البُستان عندَ شجرة الرُمّان، فيصف لنا أزهارها وثمارها وصفاً دقيقاً، فيضعنا أمامَ صورةٍ حيّةٍ نابضةٍ بالحياة، فيجعل مِنها فتاةً جميلةً غَيداء ممتلئة الصّدرِ، مُخضبّة الكفّين ذات أنامِل مزيّنة جميلة، فيقول:

كـأنّ سَنـا النّـارنْجِ فَـوقَ غُصُونِـهِ سَنى الجَمْرِ يُذكـي بالأكوّة صَـالي
كأنّ مبـادِي الجُلّنـارِ أنامــلٌ مطرّفـةٌ مِـن داميـاتِ نِبَالــي
كأنّ ذَرَى الرُمّـانِ غيدٌ نَواهِـدٌ جَلاهُنَّ في أعلى المِنَصـّةِ جَالي(٢)

ومن اللافت للنظر هنا أنّ شاعرنا عندما يصف فإنّه يَحرِص حرصاً كبيراً على أنْ يقيم تشابهاً ما بين مظاهر الطبيعة الساكنة وما بين عناصرها المتحركة، فكثيراً ما كان يشبّه العرائش بالأمواج المتتابعة المتلاحقة في الخليج، وحبّات الرّمان بنواهد الفتاة الغيداء، وقطرات الندى بالنجوم والدرّ، متكئاً في ذلك كله على التشبيه المستمد من واقع حياته، ومن بيئته المحيطة به، فَجني العنب عسل، وورق العنب حرير، وسنا النّارنج في حمرته يشبه جمر النّار، وهكذا.

ويتوقّف عند كلّ نبتة أو زهرة أو شجرة في ذلك البستان وقفة الرّسام الحاذق البارع في مزج الألوان، فيرسمها لنا بألوانها المختلفة الزّاهية، لينقل لنا في نهاية المطاف صورة كليّة متكاملة لذلك البستان الذي يضمّ فيه أنواعاً مختلفة من الأزهار، والأشجار، والنباتات ذات الألوان والأشكال المختلفة المتنوعة، فها هو يتوقّف عند اشجار النّبق والخوخ، فيصورها لنا بألوانها الزاهيّة، وثمارها اللذيذة الممتعة، وعند أزهار الياسمين والورد، فيصفها لنا بروائحها العبقة الشذيّة، ويحاول أن يعقد مقارنة بين هذه الأمور الخلاّبة، وبين ما يحيط به من مواطنَ جمال، فيرى أنّ حبّات الخوخ خدود مُخمّشة، وأنّ ثِمار النّبق عسجد تنبثق عنه أشعة صفراء ذات بريق أخّاذ، وأنّ زهرات الورد قلادة جميلة على صدر فتاة جميلة، وهذا واضح من قوله:

كـأنّ ثِمـارَ النّبْقِ أنجُمُ عَسْـجَدٍ بِغَيرِ سَنَـا شَمْسٍ وَنُورِ هِـلالِ
كأنّ ثِمارَ الخَوخِ يُبدي جُنُـوبَهـا خُدودٌ مِنَ التّخميشِ ذاتُ بِـلالِ

---

(١) مقامات السيوطيّ، ص: ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٦.

كأنّ جَنَى وَرْدٍ به جُمِعا مَعَــــاً　　　عقَيْقٌ وَدُرٌ في تَرائبِ حالِـــي
كأنّ ذَكيّ الياسَمينِ وَحُسْنَــهُ　　　جَميلُ ثَناءٍ عَنْ جَزيلِ نَــوالِ[1]

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه القصيدة تكشف لنا عن أسماء الأشجار، والأزهار، والنباتات والورود التي كانت تجود بها بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن شرف، مثلما تكشف لنا عن مواطن الجَمال والفتنة في تلك الطبيعة الخلاّبة المعطاء.

ولكنّ الأمر لم يكن ليقتصر على وصف الفواكه والأزهار والرّياض إنّما تعدّى ذلك إلى وصف الثّمار والخضار التي كانت موجودة في بيئة الشّاعر من مثل: الموز، والرّطب، والخس، والبطيخ، والخيار، ومن ذلك قوله في وصف الخس:

وَرأس قَبّاريّــةٍ[2] برأسه في　　　أثْوابُـه تَحميـهِ والمَخالِـبُ
مِثلِ خَلْقِ الخَلـقِ إلاّ أنّــهُ　　　قَلْبُ عَـدوٌ كُلّـه عقَــارِبُ[3]

وكثيراً ما كان ابن شرف يشبّه هذه الثّمار وهذه الخضار بالزّبَرْجَد والعقيق والزُّمرد؛ ليضفي عليها قيمة جماليّة معيّنة، فيُجَمّد فيها الحياة ويقتلها؛ ذلك لأنّه يجعلها ساكنةً لا حِراك فيها، ومن ذلك قوله:

وَمَطبُوخٍ بِغَيْـرِ عَقيـدِ نَــارِ　　　عَزَمْـتُ على جِنَـاهُ بابتِكـارِ
تَوابيـتٌ تَبَـدّتْ في عَقيـقٍ　　　مُقَمّعَـةٌ بِمَسْبوكِ النُّضـارِ
تَرَى لِصَفَـاءِ جَوْهرِهـا نواهـا　　　كألسِنَـةِ العَصَافيرِ الصّغـارِ[4]

وكما في قوله عندما وَصَفَ البطيخ:

رَتْقَــاءُ لَـم يَسلُك بِهــا　　　غَرْزُ الأشافـي قَطّ نَهْجَــا
تَزهـو بلَونَــي خُضـرةٍ　　　هذا انتهـى وأخُـوه لَجّـا
كَزمَدٍ وَزَبَرجَــدٍ　　　رَصّعْنَ لِلكافُور دُرجَــا[5]

---

(1) مقامات السيوطي، ص: ٣٦.

(2) القبّاريّة: نوع من أنواع الخس في المغرب. أنظر: شفاء الغليل، ص: ١٦٦.

(3) المصدر نفسه، ص: ٨١.

(4) نهايةالأرب، ١١/١٢٨.

(5) نهايةالأرب، ١١/١٢٨.

ويصف لنا ابن شرف النّدى ذلك المظهر الطبيعيّ الخلاّب الذي يعانِق أوراق الأشجار والنباتات والأزهار، لحظة شروق الشمس، فيراه زَبَرجَداً قد اثمر دُرَراً، فيقول:

كأنّما الأغصانُ لمّا عَلا ... فُروعَها قَطْرُ النّدى نثرَا
وَلاحَت الشّمسُ علَيها ضُحَىً ... زَبَرجَدٌ قَدْ أثمَر الدّرّا[1]

ويصف لنا زُحَل، فيراه شيخاً كبيراً قد تقدّمت به السنون، وقد اتّخذ لنفسه، غُرفَةً فَخمَةً عاليةً تليق به، فيقول:

وَشَيْخٍ لَهُ غُرفَةٌ فخمةٌ ... علَت وَهوَ فيها جَميع الغُرَفْ
يَمُرُّ وَيَرجعُ طُولَ الزّمانِ ... فَكَم مَرّ مِنْ مَرّةٍ وانْصَرفْ
وَيُفسِدُ كُلّ مَكانٍ حَواهُ ... علَى أنّه غايَةٌ في الشّرَفْ[2]

هذا ولم يكن الأمر في وصف شاعرنا ليقتصر على وصف الطبيعة الصامتة فحسب، بل تعدّى ذلك إلى وصف الطبيعة المتحرّكة الناطقة، فوصف لنا بعض الحيوانات التي عايشته وشاركته في بيئته كالإنسان، والبراغيث، وغيرهما، ومن ذلك قوله في وصف البرغوث حيث يقول:

لَكَ مَجلِسُ كملَتْ سِتارُتنَا بِهِ ... لِلّهوِ لكِن تَحتَ ذَاكَ حَديثُ
غَنّى الذبابُ وظلّ يزمُرُ حَولَهُ ... فيه البَعوضُ وَيَرقُصُ البَرغُوثُ[3]

ومن الحيوانات الأخرى التي وصَفَها ابن شرف، الزّرافة، ووصْف الزّرافة ليس شائعاً عند العرب الذين تغنّوا في وصف الخيل، والنّاقة، وغيرهما، إذ لم تكن من حيواناتهم المألوفة الشائعة، قال ابن رشيق: ((... ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤبة يصف الفيل ...، وقولي أنا في زرافة أتت في الهديّة من مصر إلى مولانا المعزّ.))[4].

---

(1) شفاء الغليل، ص: ٢١.
(2) الغيث، ٢/٢٨٠.
(3) المعاهد، ١/٢٢٠.
(4) العمدة، ٢/٢٩٦-٢٩٧.

ومهما يكن من أمر، فإنّ شاعرنا قد أبدع في وصف هذه الزّرافة وتصويرها، فقد توقّف عند موطنها، وشكلها، ولونها، وضخامة جسمها، وطول عنقها، وطول رجليها، وقِصر يديها، فأشار إلى أنّها غريبة الشكل، غريبة الموطن فهي غير موجودة في وطنه، وإلى أنّها تجمع في هيئتها وصورتها، هيئة وصورة حيوانات مختلفة، وهذا واضح من قوله:

غَريبةُ أشكالٍ غَريبَةُ دَارِ ... لَها لون خطّي فضّةٍ ونُضارِ
فَلونٌ لَها لَونُ البَياضِ وصفرةٌ ... كما مُزِجَت بالماءِ كأس عُقارِ
وآخر ما بَين اسودَادٍ وحُمرةٍ ... كما احمرَّ مسودّ الدّخان بِنارِ
أعيرَتْ شخوصاً وهي في شَخصٍ واحدٍ ... تحيّرُ في نَشْزٍ لَها وَقِفارِ[1]

ومن خلال هذه الأبيات تتجلى لنا مقدرته الابداعيّة ودقّته في الملاحظة، على الرّغم من أنّه لا يسير على مثال سابق يُحتذى في وصف الزّرافة الذي لم يكن شائعاً عند العرب، ولكنّه مع ذلك كان دقيقاً في تصويرها ووصفها لا سيّما عندما تحدّث عن لون جلدها، وعن يديها الطويلتين، وعنقها الطويل، ورأسها الصغير، ورجليها القصيرتين، فها هو يقول بعد أن أطال التأمل والملاحظة:

تَقوم على ما بَيْن ظِلفٍ وَحَافِرِ ... لَهُ جِسمُ جلمودٍ وصبغةُ قارِ
وأربَعة تَحكي سبائِك عَسْجَدٍ ... تَطيرُ بها في الأرضِ كُلّ مَطارِ
لَها عُنُقٌ قَد خَالَطَ الجَوَّ تَحتَهُ ... طِوالٌ لَهَا تَخْطو أمامَ قِصارِ[2]

وبعد ان وصفها لنا وصفاً دقيقاً، التفت إلى صفاتها المعنويّة، فوصفها بالمسالمة، والرّزانة والوقار، فقال:

لَها عِجْبَةُ التَيّاهِ عُجباً بِنفسِها ... ولكنّ ذاكَ العُجب تَحتَ وَقَارِ[3]

على أنّنا نستطيع أنْ نقول: إنّ هذه الصفات التي أثبتها ابن شرف للزّرافة التي يصفهاقد اتت في مقطوعة مستقلة خاصّة بها لا يشاركها فيها موضوع آخر، وإنّها مستمدّة من واقع حياته ومن بيئته التي يعيش فيها.

---

(1) نهاية الأرب، ٣٢١/٩.

(2) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(3) المصدر نفسه، ص: ٣٢١.

ولقد حاول ابن شرف أن يلتقط من واقع حياته ومن بيئته التي يتفاعل معها صوراً حيّة طبيعية لبعض مظاهر الحياة اليوميّة التي يعيشها، ولبعض المصنوعات البسيطة التي كان يراها من مثل: الإبرة، والميزان، والمرآة، والباب، ومكمدة الثياب، وحبل الغسيل و...، وقد وصف لنا هذه الأمور على طريقة اللغز، وإليك بعض الأمثلة على ذلك، حيث يقول في وصف الإبرة ملغِزاً:

ضَئيلَةُ الجِسمِ لَها ... فِعْلٌ مَتينُ السَّبَبِ
حافِرُهَا في رأسِها ... وَعَينُها في الذنَبِ[1]

ويقول في وصف ميزان البناء ملغِزاً:

وَمُعَلَّقٍ بِذؤابَةٍ في رأسه ما ... مِنْ غَيرِ ذَنْبٍ بَل لَهُ إحسانُ
زالَ يسألُهُ مُعَذَّبُ جِسمِهِ ... فَيُجيبُه وَجَوابُهُ تِبيانُ[2]

هذا ويصف مكمّدة الثياب وأرزبتها[3]، فيشخصهما تشخيصاً جميلاً، متكئاً في ذلك على الصور المستمدّة من واقع حياته، ومن بيئته التي يعيش فيها، حيث استعار صورة الأمّ الحنون الرؤوم التي تعطف على ابنتها وتحنو عليها على الرّغم من أنّها تعقّها ولا تبادلها الاحترام، والحبّ فيقول:

وَمَضروبَةٍ في ظَهرِها حينَ تَكتَسي ... فإنْ نَزَعَت عَنْها كُسَاها فَلا ضَربُ
وذَاتُ ابنَةٍ مَا إنْ تَزَالُ تَعُقّها ... وتَضرِبُها حتى يَرِقّ لَهَا القَلبُ
وَمَا تَشْتَكي مِنْها العُقُوقَ ولا الأذَى ... وبَيْنَهُمَا مَع ذا وذا الحُبّ والقُربُ[4]

وهذه الأبيات تكشف لنا عن بعض العادات الإجتماعيّة اليوميّة التي كان أبناء مجتمعه يزاولونها، وتُعرّفنا إلى طريقة الغسيل التي كانوا يمارسونها هذا من جانب، وإلى براعة ابن شرف ومقدرته على التّشخيص والتّصوير من جانب آخر.

---

[1] شرح المقامات، ٥/٧١.

[2] الخريدة، ق٤ج٢/١١٩.

[3] المكمّدة: الوعاء الذي توضع فيه الثياب للغسيل، يقال كمّد الثوب إذا دقّه. وأمّا الأرزبّة، فهي عصيّة من الحديد تُضرب بها الثياب أثناء الغسيل، (لسان العرب: كمد، وزرب).

[4] الخريدة، ق٤ج٢/١١٩-١٢٠.

ويصف لنا مجلس لهوٍ وشُربٍ أقيم في ليلة ماطرة مظلمة حضره مع بعض أصدقائه، فيتوقّف عند وصف ساقٍ جميل فيه، ويشبهُهُ بالفتاة الجميلة النّاعمة، ويتوقّف عند الخمرة فيشبّهها بحمرة خدوده، وبلون الذّهب الأصفر المشعّ، فيقول:

وَلَقَد نَعِمتُ بِلَيلَةٍ جَمَدَ الحَيَا ... في الأرضِ فيها والسّمَاءُ تَذوبُ
جَمَعَ العِشائينِ المصلّي وانزَوَى ... فِيها الرّقيبُ كأنّه مَرْقُوبُ
والكأسُ كاسِيَةُ القَميصِ يُديرُها ... سَاقٍ كَخَوْدٍ كَفّه مَخْضوبُ
هِيَ وَردَةٌ في خَدّهِ وَبِكأسِها الـ ... ـدرّيّ مِنْها عِسْجَدٌ مَصْبوبُ[1]

ويرسم للكأس صورة جميلة وهي في حال تنقّلها ما بين يد الشّاعر والسّاقي فيشبهها بالشمس في حالة شروقها وغروبها، فيقول:

مِنّي إليهِ وَمِنْ يَدَيْهِ إلى يَدِي ... فالشّمسُ تَطلَعُ بَينَنَا وتَغيبُ[2]

ويصف بعض آلات اللهو والطرب التي كانت تَصدَح في مجالس اللهو والطرب فيعبّر عن إعجابه بها، ومن ذلك قوله في عودِ الغناء:

سقَى اللهُ أرضاً أنْبَتَتْ عُودَكَ الذي ... زكَت مِنْهُ أغصانٌ وَطَابَتْ مَغارِسُ
تَغَنّى عَلَيهِ الطَيرُ والعُودُ أخْضَرُ ... وَغَنّت عَلَيهِ الغِيدُ والعُودُ يابِسُ[3]

ويصف لنا بعض أدوات الكتابة مستوحياً ذلك من بيئته الخاصّة، حيثُ كان كاتِباً في ديوان المراسلات عند المعزّ بن باديس، فيصوره لنا كالإصبعِ إلاّ أنّه من غَير ظفر أو كالأفعى القصيرة؛ ليضفي على جُمودِهِ شيئاً منَ الحركة، فيقول:

قَلَمٌ قَلّمَ أظفارَ العِدَا ... فَهوَ كالإصبَعِ مقصوص الظّفُرْ
أشْبَهَ الحَيّةَ حتى إنّهُ ... كلّما عَمَّر في الأيدي قَصُرْ[4]

---

[1] معجم الأدباء، ٣٩/١٩.
[2] المصدر نفسه، ص:٣٩.
[3] المطرب، ص: ٧٦.
[4] الخريدة، ق٤ج٨٦/٢.

والحق أنّ ابن شرف قد أجاد في تصوير وطنه ومسقط رأسه القيروان اثر خرابه على أيدي الأعراب الذين عاثوا فيها خراباً ودماراً، وألحقوا بأهله القتل والتشريد والظلم، فصوّره لنا قبل الكارثة حيثُ كان معموراً بأهله مزهواً بهم، فيقول:

يا بيدَ رَوْطَةَ والشّوارعُ حَوْلَهـــا ... مَعمُورَةٌ أبداً تَغُصّ وَتَمتَلِـي[1]

كما صوّره بعد الكارثة فيقول:

تَرَحّل عَنْهـا قاطِنوهـا فَلا تَــرى ... سِوَى سَائرٍ أوْ قاطِنٍ وَهْوَ سائِرُ
تَكَشّفَت الأستارُ عَنْهُم وَرُبّمــا ... أقيمَتْ سُتُورٌ دُونَهُم وَسَتائِـــرُ
إذا جاذَبَتْ أستارَهـا تَبْتَغي بِهــا ... لأقدامِهَـا ستراً تَبَـدّتْ غَدَائِـــرُ
تَبيتُ عَلى فُرْشِ الحَصَى وَغِطَاؤهَا ... دَوارِسُ أسْمالٍ زَوارٍ حقَائِـــرُ[2]

ونستطيع من خلال شعره الذي وصف به وطنه القيروان أنْ نلمح وبكل وضوح مقدرته على التّشخيص والتّصوير، ودقّته في الوصف كما سنرى عندما نتحدّث عَن شعره الذي قاله في رثاء وطنه فيما بعد.

الحكمـــــة:

لمّا كانت الحكمة هي: ((الحقيقة المجردة التي يختزنها العقل نتيجة للثقافة أو التجربة، أو الاستنباط؛ لينتفع بها في مواجهة ما يجابهه من مشكلات الحياة.))[3]، فهي إذن ثمرة الخبرة والتجارب الطويلة التي عاشها الشّاعر، واختزنها في نفسه لفترة طويلة من الزّمن ثم يطبقها على مواقف الحياة التي تواجهه في حياته اليوميّة، لا سيّما بعد أن يقيم بين هذه المواقف وتلك التجارب علاقات معيّنة، ويعكسها على ما يصادفه من أحداث ومشاكل، بعد أن يصوغها في جمل وتراكيب معبّرة مؤثرة تخاطب الوجدان البشريّ، وتضرب في أعماقه، يصور فيها الأديب أو الشاعر معاناته الطويلة مع الناس والمجتمع، والحياة بكل ما فيها من متناقضات.

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٣.
[2] المصدر نفسه، ص: ٢٣٥.
[3] ابن زيدون، ص: ٤٣٧.

وهذه المقدرة الفنيّة لا تتأتى إلاّ لشخصيّة واعية، خصبة، ذات ثقافة واسعة عميقة، بليغة، مجربّة، عاركت الأيام وعاركتها، فأذاقتها من أمنها وخوفها، من فرحها وحزنها، حلوها ومرّها، وأكسبتها خبرة ودراية في النّاس، وفي الحياة، شخصيّة ذات حواس مرهفة، وإحساس دقيق، فكلّما ازدادت تجارب الأديب، واتسعت ثقافته، ونمَت، وكثرت أفكاره، أصبح قادراً على الابتكار والتولّيد.

وهذه أمور ومقومات تسلّح بها ابن شرف فقد هيأ له عمره الطّويل الذي عاشه في المغرب والأندلس، وتنقله ما بين مدنهما، واتصاله بأقوام مختلفة، وشعوب متنوعة أنْ يكوّن موقفاً من كل ما يحيط به، وأنْ يتصل ببيئته، ومجتمعه، والنّاس، اتصالاً مباشراً، فجسّد لنا معاناته مع هؤلاء جميعاً في مجموعة من الحِكَم بثّها في طيّات قصائده واشعاره.

ونستطيع من خلال اتصالنا بحكم ابن شرف التي وصلتنا أنْ نلاحظ أنّه قد استوحاها من منابع متعددة ذات روافد كثيرة، إذ استقاها من الحياة، ومن الموت، ومن واقع حياته العملي، ومن تجاربه مع الناس وعلاقاته بهم، ومن الزمن وأحداثه وتقلباته، ومن ثقافته الواسعة المتنوعة، ومن بيئته المحيطة به وما فيها من مواطن الجمال والتأمل.

كما استوحى معظم حِكَمِه من أقوال الشعراء الذين سبقوه من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، ولكنّه فُتِن أكثر ما فُتِن بأقوال أبي الطيب المتنبي وحكمه، إذ كان المتنبيّ مثلاً أعلى له. يقول الصفدي: ((وأخذ خمسين بيتاً مفاريد من قول المتنبيّ، وخمسين بيتاً من أشعار العرب، وغيرهم، ونظم في معنى المائة بيت المذكورة قصيدة من روي اللام ألف، وأتى بما في بيت من معنى الحكمة في بيته هو.))[١] .

فالناس في نظره يتصفون بالغدر، والخيانة، وموت الوفاء، ولا سيّما الذين خالطهم واتصل بهم من الأصدقاء، وهذا واضح في قوله:

وَلَقَدْ يُهوّنُ أنْ يَخونَكَ كَاشِحٌ	كَونُ الخيانَةِ مِنْ أخٍ وَخَدينِ
لَقَى أخُو يَعْقُوبَ يَعْقُوبَ الأذى	وَهُمَا جَميعاً في ثِيابِ جَنينِ
وَمَضى عَقيلٌ عَن عَليَ خَاذِلاً	وَرَأى الأمينُ جِنَابَةَ المأمونِ
فَعلى الوَفَاءِ سَلامٌ غَيرِ مُعايِنِ	شَخصاً لَهُ إلاّ عِيَانَ ظُنُونِ[٢]

---

[١] الوافي بالوفيات، ٣/٩٩.

[٢] معجم الأدباء، ١٩/٤٠-٤١. والهاء في "له" تعود على الوفاء.

واضح أن ابن شرف هنا يصدر عن تجربة عمليّة كان قد عاشها مع أحد الناس، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً متكئاً في ذلك على ثقافته العربيّة والتاريخيّة الواسعة.

وإذا كان الغَدرُ سجيّةً وطبعاً، فالثقة بكلّ أحدٍ عجزٌ وأمرٌ يصعب تحقيقه؛ وذلك لأنّ النّاس في رأيه يخلفون المواعيد، ويقولون ما لا يفعلون، وفي هذا يقول:

وَجَدتُ النّاسَ كُلهُمُ طُلُولاً ... فَلَمْ أُطِلِ الوُقُوفَ عَلى الطُّلُولِ
وَتَسْمَعُ مِنْهُمُ ما لا تَراهُ ... كَسَا مَعْ ضَرْبَةِ السيْفِ الصَقيلِ
فَمَنْ بِسِواكَ باعَكَ فاغْنَ عَنْهُ ... كَما استغنى عليٌّ عَنْ عقيلِ[1]

ويتحدث ابن شرف عن الصّديق الوفي المخلص، فيرى أنّه غير موجود في هذه الحياة، وأنّ النّاس الذين يتعاملون معه أصحاب غدر قويّ وثيق، فيقول:

وأفقدُ ما طلبتُ فلم أجِدهُ ... رفيقٌ في صَحابَتِهِ رفيقُ
فأصبحَ وهْوَ للعنقاءِ ثانٍ ... وثاوٍ حَيثُ فرّخت الأنوقُ
صَحِبتُ بهذهِ الدنيا أناساً ... إذا غَدروا فَغدرُهُمُ وثيقُ
ولَمْ أصحبهمُ وداً ولكن ... كما جَمَع العدوينِ الطريقُ[2]

وهو هنا ينظر في حكمته هذه إلى قول المتنبي الذي يقول فيه:

وَمِن نَكَدِ الدنيا على الحرّ أن يرى ... عَدُوّا له ما من صَدَاقتهِ بُدُّ[3]

ونظر إلى الموت فوجده حيواناً مفترساً يتغذى على هؤلاء الناس، فيخطفهم واحداً واحداً، وهذا واضح في قوله:

والنّاسُ أقواتٌ هذا الموتُ يأكلهم ... جيلاً فجيلاً إلى أن لا ترى جيلا[4]

والناس متساوون أمام الموت، فلا فرق بين عالم وجاهل، إذ لا ينفع العالم علمه ولا الطبيب طبّه، وهذا واضح في قوله:

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٥.

(2) المصدر نفسه، ص: ٢٢٤.

(3) ديوان المتنبي، ١/٣٧٥.

(4) مخطوط خزانة ابن يوسف، ص:٢٠٧.

سيّانَ في الموتِ ذو علمٍ وذو جهلِ وربّما زادَ أهل الجَهلِ تجهيلا[1]

وقد يستوحي بعض حِكَمِهِ من النفس، فكان يدعو إلى صونها وإبعادها عن مواطن الذل والهوان، بل إنّ الموت في نظره أهون وأفضل من الذل والهَوان، وهذا واضح من قوله:

الموتُ أهونُ مِن عَيشِ الذليلِ وَمَن يَحْسُدْ ذليلاً كَساه اللهُ تنكيلا[2]

كما استوحى بعض حِكَمِهِ من واقع حياته العمليّ، فوجد أنّ الحظّ كفيل بحماية الانسانِ من الخطوب والمكاره، بل إنّه كفيل بتحويل مساوئه، وقبائحه إلى محاسن، فيقول:

إذا صَحِبَ الفتى جَدٌّ وَسَعدٌ تَحَامَتهُ المكَارهُ والخُطوبُ
وَوَافاه الحبيبُ بغيرِ وَعدٍ طُفَيلياً وَقَادَ لَهُ الرّقيبُ
وَعَدّ الناسُ ضَرطَتهُ غِناءً وقالوا إن فسا قَدْ فَاحَ طيب[3]

وكثيراً ما كان ابن شرف يستوحي الحكمة من طبيعة بلاده الجميلة الغنية بالأشجار والأزهار، والثمار، والطيور والأنهار، وهذا واضح من قوله:

والطيرُ لا تَلتَقي إلاّ لِمَزرَعَةٍ وَحَيثُ تَلقَى الثَرى ريّانَ مَبلولا[4]

وقد استوحى بعض حِكَمه من خلال اتصاله بممدوحيه، ومن ذلك قوله:

سأبقي على الدنيا بِصَولَةِ مِحْرَبٍ وإلاّ على الأخرى بِوَصلةِ مِحرابِ
وَلا خَيرَ في عَيشٍ يكونُ قِوامُهُ بِمِنحَةِ مكذوبٍ وَمِدْحَةِ كذابِ[5]

ومما لا شك فيه أن ابن شرف عندما يستوحي حِكمته من ممدوحه، فإنّه يصدر فيها عن تجربة عملية كان قد مرّ بها معه، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً.

---

(1) مخطوطة خزانة ابن يوسف، ص:٢١٤.
(2) المصدر نفسه، ص:٢١١.
(3) معجم الأدباء، ١٩/٤٠.
(4) مخطوط خزانة ابن يوسف، ص:٢٠٧.
(5) الخريدة، ق٤ج٢/١١٨.

ولقد ضمّن ابن شرف الحِكمة في قصيدة المديح، وقد بدا فيها متأثراً بالقرآن الكريم ومن ذلك قوله:

مَالي كَذا كلّ ما طلبتُـــهُ عَسِـــرُ   وقد أخِذتُ بِحُبّ المطلبِ العَسِرِ
مَالي أجَاذبُ ذي الدنيا مُوليّـــــةً   فَكل ثَوبٍ عَلَيها قُدّ مِن دُبُـــرِ[1]

واضح أنّ ابن شرف في قوله هذا، ينظر إلى قوله تعالى: {إن كان قَميصَهُ قُدّ مِنْ دُبُرٍ، فَكَذَبت وهوَ من الصادقين ...}[2].

ويتحدث عن المال، فيرى أنه اساس للرفعة والمجد، لا سيما إذا كان مصاحباً للمجد مقترناً به، فيقول:

لا مَجدَ إلاّ بمالٍ فالتَمِســـهُ   ولا مالّ إذا لَمْ يَكنْ بالمجدِ مشمولا[3]

ويرى أنه يستر عيوب الناس، ويغطي على جهلهم وعيوبهم، فيقول:

والمالُ يستر جهل الجاهلين بِــهِ   والفقرُ يورثُ أهلَ الفقرِ تجهيلا[4]

هذا ويمكننا أنْ نلاحظ أنّ الحكمة عند ابن شرف، كانت تجري على لسانه مِن غَيرِ تصنع ولا تكلف، فكثيراً ما كان يذيل بعض ابياته بحكمة، ومن ذلك قوله:

وإن أرجو التخلصَ مِنْ عَظيـــمِ   فَقَد ينجو من اللججِ الغـــريـــقُ[5]

وقوله:

أودَعتُها سِرّ الهوى فَوَشَت بِـــهِ   ما كل مِنْ مُنِحَ السرائر صَانَهَا[6]

وقوله:

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٢.
(2) سورة يوسف، آية رقم:٢٥.
(3) مخطوط خزانة ابن يوسف، ص:٢١٣.
(4) المخطوط نفسه، ص:٢٠٦.
(5) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٤.
(6) معجم السلفي، ص:٣٠.

أبا حَسَنٍ أحْسنتَ بِدءاً وَعَـــودةً ولِلغصنِ إثمارٌ إذا كان تَوريقُ[1]

وقوله:

وأهجرُهُ وهو اقتِراحي مِنَ الوَرَى وَقَدْ تُهجَرُ الأمْواهُ وَهي قِراحُ[2]

وقوله:

لَمْ يُلْهِكَ العِزّ عَنْ أهلِ الخُمول على أنّ الغِنى شَاغِلٌ والعِزّ فَتّـــانُ[3]

ولقد غلب الصدق على حكم ابن شرف؛ ذلك لأنها كانت صادرة عن تجارب واقعية كان قد عاشها مع الحياة، والناس، والمجتمع، فجاءت معبّرة عن شخصيته أدقّ تعبير.

الـــــرثـــــاء:

إنّ معظم ما وصلنا من شعر ابن شرف في الرثاء، يدور حول رثاء وطنه ومسقط رأسه القيروان الذي سقط على أيدي الأعراب، فما أنْ حلت سنة تسع واربعين وأربعمائة للهجرة حتى أخذت القيروان وضواحيها تتهاوى واحدة تلو الأخرى تحت ضربات الأعراب على صورة محزنة مثيرة للرعب والفزع، وتُكتَسَحُ مِنْ قِبَلِ جموعهم الزاحفة بسرعة مذهلة.

الأمر الذي أرغم المعز بن باديس وحاشيته على الانتقال إلى المهدية، وقد كان في تلك الحاشية المهزومة شَاعِرا القيروان في ذلك العصر وهما: ابن رشيق، وابن شرف، وغيرهما من شعراء القيروان الذين رأوا خراب وطنهم ودماره بأمّ أعينهم، مثلما رأوا التنكيل بالنساء، والأطفال، وهدم المساجد، وسبي النساء، وما إلى ذلك من صنوفِ التعذيب والتخريب فعانوا ما عاناه أبناء وطنهم من قهر، وإذلال، وقتل، وتشريد، وتعسف، فترك ذلك كله آثاراً ملموسة في نفوس هؤلاء الشعراء، وفي نفسية شاعرنا الذي حاول أن يصوّرَ هذه النكبة، وهذه المصيبة التي ألمت بوطنه تصويراً حزيناً يفيض ألماً، وحرقةً، ولوعةً وأسى، مثلما ترك آثاره على شاعريتـــه، الأمـــر الذي دفـــع بابن بسام إلـــى القول في ترجمته لشاعرنا: {... وسال سيل فتنة القيروان

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٦.

(2) الذخيرة، ص:٢٣٧.

(3) المسالك، جـ١١/٢٤١.

اللاعب بأحرارها، المعفي على آثارها، فتردد على ملوك الطوائف بالأندلس، بعد مقارعة أهوال، ومباشرة خطوب طوال، وقد نبت شفرته، وطفئت جمرته}[1].

ولقد أنطقته هذه الكارثة بعدة قصائد، حاول فيها أن يصور ما كانت عليه القيروان من أمن، وهدوء، وطمأنينة، واستقرار قبل هذه النكبة الوحشية التي فرقت أبناء وطنه، وعملت على تشريدهم، وكيف أصبح حالها بعد الكارثة، حيثُ عمّها الدمار والخراب، والتشريد، فصورها لنا تصويراً حزيناً دقيقاً، ونقل لنا صوراً حيةً من واقع النكبة، ومن واقع الكارثة، وكأنّه مصوّر صحفيّ يعني بالتقاط المشاهد والصور المؤثرة المؤلمة التي كان يراها، وتقع أمامه بدقة وتفصيل، مستوحياً تلك الصور، وتلك المشاهد، من ثقافته العربيّة والدينيّة الواسعة، فكثيراً ما كان يصور لنا خروج أبناء القيروان منها وهم حفاةٌ عراةٌ، فارّين مذعورين مذهولين، هَمّ الواحد منهم أنْ ينجو بنفسه تاركاً وراءه أطفاله، وكل ما يملك بـ {يوم الحشر}، ومن ذلك قوله:

بَعْدَ يَومٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـ ... ـقُ حُفَاةً بِهِ عَوَاري رَجلى
ولَهُم زَحمةٌ هنالِكَ تَحكي ... زَحمَةَ الحَشرِ والصحائِفُ تُتلى
وَعَجيجٌ وَضَجّةٌ كَضَجيجِ الـ ... ـخَلقِ يَبكونَ والسرائرُ تُبلى
مِنْ أيامى وراءهن يَتَامى ... مُلِئوا حَسرةً وَشَجواً وَثُكلا
وَثُكالى أراملاً حامِلاتٍ ... طِفلَةً تَحمِلُ الرّضَاعَ وَطِفلا
وَحَصَانٍ كأنّها الشمس حُسناً ... كفّنتْهَا الأطمارُ نَجلاء كَحلا
فَاتَ كرسيّها الجلاءُ فأضحَت ... في ثيابِ الجَلاءِ للناس تُجلى[2]

وحتى يضفي على خروج ابناء وطنه مسحة حزينة، فقد جَعَلَ مشاهد الوداع، تلك المشاهد التي كانت مالوفة في وطنه قبل هذا المصاب، تختفي من حياتهم وتتلاشى؛ ذلك لأن الكل منهم مسافر، ولا مقيم منهم يشيع مسافراً، فيقول:

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٧٠.

[2] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٨.

نَاديـاتٍ عَفـراءُ تُسْــعِدُ سُعــــدَى وَسُعَادٌ تُجِيبُ بالنّوحِ جُمْــــلا لا
لَيسَ مِنهُنَ مِنْ يُــوَدّعُ جَــــاراً ولا حُرمَــةٌ تُشَــيِّعُ أهـــــلا
كلهنّ اعتدى الفِراقُ عَلَيـــــــهِ فاقتَحَمنَ الجَـــلاءَ حفـلاً فحفلا[1]

ومما تقدم يتضح لنا أنّ ابن شـرف يشـير إلـى عـادة اجتماعيـة كـانت شـائعةً ومالوفـةً فـي عصره، كان أبناء وطنه يقومون بها قبل هـذه الفادحـة، ألا وهـي تشـييع مَنْ يسـافر منهـم، وهـذه صـورة اقتنصها شاعرنا من واقع حياته، ومن بيئته التي يعيش فيها.

ويشير إلى أنّ الظروف القاسية التي عاشها أبناء وطنه بعـد خروجهم منـه، قد تضـافرت عليهم مع الدهر والإنسان، والحقت بهم القتل، والتشريد، والقهر، والإذلال، والهوان، وهذا واضح من قوله:

فإذا القَفـرُ ضَمَهـم فَـوقَ الدّهـــــ ـرُ لَهُمْ غيرَ ذَلكَ النّبلِ نَبْـــــلا
مِنْ ثَعَابينَ حَـاملينَ نُيــوبَـــــاً عُصُلاً ذابلاً وَنَبْلاً وَنَصْـــــلا
وَشَيَاطينَ رَامحينَ يُلاقُــــــو ن بِجَونِ الفَلا مَسَاكين عُـــزلا
فَتَرى للظهورِ تُعتَلُ عَتْـــــلاً وَتُشَقَ البُطُونُ تُغسَلُ غَســـــلا
فإذا مَطْمَعٌ أصابوه في أحـــــــ شـاءِ قَومٍ عَمّـــوا بِذلكَ كُـلا[2]

ولقد صور لنا ابناء وطنــه في غربتهم تصويـراً يفيض المـاً، وحرقـةً، وأسـىً علـى هذا المصير الذي آلوا إليه بعد خراب وطنهم: من ذلٍ، وهوانٍ، وقهرٍ، وتشـردٍ، وتفرق حيث تفرقوا وتشتتوا في كل مكان، ومن ذلك قوله:

فإذا نَجّت المقـاديرُ منهُـــــــمُ رَاحِلاً بالخلاصِ يَحمِلُ رَحْــــلا
لَقِيَ الهَوْنَ في المذلـةِ أنّــــــى كانَ مِنْ سائِرِ البـلادِ وَحَـــــلاّ
لَيسَ يلْقى إلاّ امـرءاً مُستطيــــلاً طَالِياً عِندَهُ حُقُوداً وَذَحْـــــلا
فَتَرَى اشـرفَ البَرِيّـةِ نَفْســـــاً نَاكِسـاً رأسـه يُلاطِـفُ نَـــذلا
فَهُمُ كُلمــا نَبَـتْ بِهِـــــم أر ضٌ مَطَايا الفراقِ خَيــلاً وَرَجلا
مُزّقوا في البلادِ شَرقاً وَغَربـــاً يَسكبُونَ الدمُوعَ هَطـلاً وَوَبـــلا

---

[1] الذخيرة، ص:٢٢٩.
[2] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٩.

لا يُلاقي النّسيبُ مِنهم نَسيبـــــــاً   يَتَعزّى بِهِ ولا الخِلّ خِـــــــــلاّ[1]

ويصور انقلاب الأوضاع، ويتفجع على ما اصاب الحرائر المصونات من تكشف، وتشرد بعدما كُنّ مصوناتٍ منعمات في وطنهنّ، فيقول:

أطافـــلٌ مـا سَمِعْتْ بِالفَـــــلا   قطّ فَعَـايَنْتُ الفَـلا دَارَهَـــــــا
وَلا رأتْ أبصارُهـــا شاطِئـــاً   ثُـمّ جلَـتْ بـاللجّ أبصَارَهـــــا
وكَانتِ الأسـتارُ آفاقَهَـــــــا   فعَـادت الآفـاقُ أستارَهـــــــا
ولَمْ تكُنْ تَعلـو سَريراً عَــــلا   إلاّ إذا وافَــقَ مِقدارهَــــــا
ثُمّ عَلَت كُلّ عَثُورِ الخُطـــــا   يَرمـي بِهَا الأرضَ وأحجارَهَـــا
ولَـمْ تَكُـنْ تَلحَظُهـــا مُقلَـــةٌ   لَـوْ كحلت بالشمسِ أشفَارَهَـــا
فأصبَحَتْ لا تَـتـقـي لَحـــظةً   إلاّ بأنْ تَجْمَعَ أطمَارَهـــــا[2]

ويصف لنا القيروان، وهي خالية من أهلها بعد رحيلهم عنها، فيتحسر عليها متمزقاً ألماً واسىً ولوعةً على ما آلت إليه هذه المدينة من الخراب، والدمار، والهجران فأصبحت خالية من سكانها واهلها، أخلى من القبور، فالقبور معمورة بالموتى، أمّا بيوت القيروان فلا ساكن فيها، وهذا واضح من قوله:

آهِ للقَيروَانِ أنّه شَجْـــــــــــو   عَن فُؤادٍ بِجَاحِمِ الحُزنِ يَصلـى
حِينَ عَادَت بِهِ الديارُ قُبُـــوراً   بَلْ أقولُ الديارُ مِنهنّ أخْلـــى[3]

ويمضي ابن شرف في تصوير خلاء القيروان ووحشتها، فيقول:

كَـأنَ الديـارَ الخَاليَـاتِ عَرائِـسٌ   كَواسِدُ قَدْ أزرَتْ بِهِـنّ الضرائِـرُ
وَتُنْكِرُ بُقيَاهَا الأسْرةُ حُسّــــراً   عَواطِلَ لا تُفشي لَهُنّ السرائِـرُ
إذا أقبَـــلَ الليلُ البَهيمُ تمكّنــت   بهَا وَحْشَـةٌ مِنهَـا القُلُـوبُ نَوافِـرُ
وَلا سُـرُجٌ إلاّ النُجـومُ وَرُبّمــــا   تَغَطت فَسَدّت جَانِبَيهَا الديَاجِــرُ
يَمُرّ عليهـا المـورُ يَسـحَبُ لُحْفَـهُ   وَلا كـانِسٌ إلاّ الريـاحُ الغَدائِــرُ

---

[1] الذخيرة، ص:٢٢٩.

[2] الذخيرة ق٤م١/٢٣١، والمعالم، ١/١٥-١٦.

[3] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٧.

وَيَمْتَدّ عُمْرُ الصوتِ فِيها ورُبّمــا تَجُودُ مِرَاراً بالكلام المَقَابِــــرُ[1]

ويشير ابن شرف إلى تعلق القيروان بأصحابها الغائبين عنها، فيقول:

فَلَو نَطقَت ما كان أكثرُ نُطْقِهـــا سِوى قَولِها أيْنَ الخَلِيطُ المعَاشِرُ[2]

ويتساءل ابن شرف بقلب مفعم بالحرقة والألم والحزن بعد أن أرّقته الوحشة والوحدة، وضايقته الغربة، فيقول:

ألا منزلٌ فيه أنيسٌ مُخَالِـــــطٌ ألا منزلٌ فيهِ أنيسٌ مُجَـــاورُ[3]

وكثيراً ما كان ابن شرف يتساءل بتوجع وتلهف عن العودة إلى موطنه القيروان بعدما حل به من خراب، ودمار، ومن ذلك قوله:

لَيْتَ شِعري هَل عَوْدَةٌ لي في الغَيـ ـبِ إلى ما أطَالَ شَجوي أم لا؟[4]

هذا ومن الجدير بالذكر هنا أنّ ابن شرف قد ردّ هذه النكبة التي حلت بالقيروان، وما اصابه من دمارٍ، وخرابٍ، وتشردٍ إلى الزمن من جانبٍ، وإلى ظلم الحكام والسلاطين من جانب آخر، وهذا واضح من قوله:

جَارَ فيهم زَمَـــانُـــهُم وأولو الأمـــ ـرِ ففرّوا يَرجونَ في الأرضِ عَدلا[5]

كما ردها إلى الذنوب والكبائر التي ارتكبها الناس بالقيروان، وهذا واضح من قوله:

تُرى سيئاتِ القيروانِ تَعَاظمـــتْ ألمْ تك قِدماً في البلادِ الكبائِرُ؟[6]

وكثيراً ما كان ابن شرف في شعره الذي رثى به وطنه القيروان، يذكر أسماء أولئك الذين عملوا على تخريب وطنه، وتشريد أهله، والحقوا الظلم والتعسف والقتل بأهله، من مثل: بني هلال، وبني قرّة، وزُغبة، ورياح، ومن ذلك قوله:

---

(1) الذخيرة، ص:٢٣٤.

(2) المصدر نفسه، ص:٢٣٤.

(3) المصدر نفسه، ص:٢٣٥.

(4) المصدر نفسه، ص:٢٢٩.

(5) المصدر نفسه، ص:٢٢٨.

(6) المصدر نفسه، ص:٢٣٥.

وللسهمِ دُونَ القيروان تَسَهّمٌ   وَمَا شوكةُ إلاّ ظَباً ورماحُ
وَقُرَّةُ قدْ قرّت هناكَ عُيُونُهَا   وَزُغْبَةُ رِيشَتْ زُغْبُهَا وَرِياحُ[1]

ويتساءل في موضع آخر مخاطباً أحد ممدوحيه عن أولئك الذين اغتصبوا وطنه، وشردوا أهله، واقاموا به بعد طرد أهله، فيقول:

فَيَا أخَويّ مِنْ أسدٍ وَسَعْدٍ   أحيٌّ حيُّ زُغبَةَ أمْ دَفينُ[2]

ولقد جعل ابن شرف الطبيعة تشاركه حزنه على ما أصاب وطنه، وعلى ما آل إليه، من دمار وخراب ووحشة، فها هي الكواكب والنجوم حزينة كئيبة، تسير بخطىً وئيدة يعلوها الكسل والحزن، وهذا واضح من قوله:

ثُمّ لا شَمَعةٌ سِوى أنجُمٍ تخطُو على أفقهَا نَواعسُ كسلى
بَعْدَ زَهرِ الشّماع تُوقَدُ وقْداً   وَمِتَانِ الذبالِ تُفتَلُ فَتلا[3]

ولقد ظل الحنين والتلهف لرؤية الوطن والأحباب ملازماً لشاعرنا يؤرقه ليلَ نهار، فكان يتمنى أنْ يكون طائراً؛ ليحلق في أجواء وطنه، ويتفحص ذُراه وربوعه بعد هذا الغياب الطويل، فيقول:

يَا قيروانُ وَدِدْتُ أنّي طائرٌ   فأراكِ رؤية باحثٍ متأملِ
آهاً وأيّة آهةٍ تَشفي جَوى   قَلبٍ بنيرانِ الصبابَة مُصطلي[4]

ويعبر عن لهفته وتعلقه بالقيروان وبأيامه الجميلة فيها، فيقول:

فَيا لَيت شعري القيروان مواطِنِي   أعائدةٌ فيها الليالي القصائرُ؟
وَيا رَوحتي بالقيروانِ وَبُكرتي   أراجِعةٌ روحاتُها والبواكرُ؟[5]

فالأيام التي قضاها شاعرنا في ربوع وطنه، وبين أهله وأحبته كانت قصيرة، وسريعة لدرجة أنه لم يكن ليحس بمرورها لجمالها وَحَلاوتها.

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٧.
(2) المصدر نفسه، ص:٢٣٧.
(3) المصدر نفسه، ص:٢٢٨.
(4) المصدر نفسه، ص:٢٣٣.
(5) المصدر نفسه، ص:٢٣٥.

ولكنه بعد هذا التوجع، وبعد هذا التحسر على ايامه العذبة الجميلة التي عاشها في وطنه الذي اصبح مأوى للحيوانات والذئاب، عاد ليتهاوى في هوة اليأس من العودة إليه؛ ذلك لأن عجلة الزمن لا يمكن أن تعود إلى الوراء، وهذا واضح من قوله:

زَعمُوا أنّ ابن آوى فيك يَعْوي والصَّدى ... بِـذُراكِ يَصـرُخُ كالحزيـنِ المُثكـلِ
يَا بَيْدَ رَوْطَةَ والشوارِعُ حَوْلَهـا ... مَعمـورةٌ أبَـداً تَغُـصّ وَتَمتلـي
يَا أربعي في القُطبِ مِنْهَا كَيفَ لِـي ... بِمعَادِ يَومٍ فيكِ لِي ومن أيـن لِـي؟
يَا لَو شَهِدتِ إذا رأيتكِ في الكَـرى ... كَيف ارتجاعُ صِبايَ بَعدَ تكهـلِ[1]

ويمكننا القول: إنّ شِعر ابن شرف الذي رثى به وطنه المنكوب، قد كان بمثابة سجل لحفظ أسماء بعض الضواحي والأماكن التي كانت موجودة في عصره بالمغرب.

وعلى ما يبدو أنّه قد يئس من العودة إلى موطنه، وإلى ايامه التي قضاها في ربوعه فعاد ليعبر عن حُزنه، وعن لهفته لرؤيته والرجوع إليه، فأخذ يؤكد له أنّه لن ينساه، وأنّه سيظل وفيّاً له، مخلصاً مهما كانت الظروف، ومهما كانت الأسباب، وهذا واضح من قوله له:

لا كَثرةُ الإحسانِ تُنسي حَسـرةً ... هَيهـاتَ تَذهـبُ عِلّـةٌ بِتَعلـلِ
وإذا تَجدد لي أخٌ وَمُنـادمٌ ... جَدّدْتُ ذِكرَ إخاء خِـلٌ أوّلِ[2]

وهكذا فقد أبدع ابن شرف في تصوير تلك النكبة الفادحة التي نزلت بوطنه، وقد صوّرها لنا تصويراً دقيقاً حزيناً مؤلماً، يكشف لنا عن شاعرية موهوبة بارعة في التشخيص والتصوير، وقد صدر في ذلك عن تجربة فعليّة، عن معاناة حقيقية كان الشاعر قد عاشها، وذاق مرارتها، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً مؤثراً.

الهجـــــاء:

لم يكثر ابن شرف من الهجاء في شعره الذي وصلنا، ولا سيّما هجاء الأشخاص، ويمكننا أن نرد ذلك إلى ترفعه عن ممارسة هذا اللون من القول، واعتباره من الصفات الشائنة المعيبة التي لا تتفق وروح العصر الذي يعيش فيه؛ ومن أجل هذا

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٣.

(2) المصدر نفسه، ص:٢٣٣.

فإنّ ابن شرف لم يطلق للسانه العِنان، لينهش لحوم الناس، وينال من أعراضهم، ومعظم ما وصلنا من شِعره في هذا الغرض يدور حول هجاء البيوت، والحمامات، ومن ذلك قوله في هجاء منزلٍ اجتمع فيه مع بعض الندماء:

لكَ منزلٌ كمُلَتْ سِتارَتُهُ لَنَـــا ... لِلّهوِ لكنْ تَحتَ ذَاكَ حَديـــثُ
غنّى الذبابُ وَظل يزمرُ حَولَـــهُ ... فيه البَعوضُ ويَرقُصُ البرغوثُ(١)

وقوله في هجاء حمّام كان فيه:

كأنّمـا حَمّامنـا فقْحَـــةٌ ... النّتنُ والظلمـةُ والضيـقُ
كأنّني في وَسطِهِ فَيْشَـــةٌ ... ألوطُهَا والعَرَقُ الريـقُ(٢)

وإن كان في بعض مقطعاته التي وصلتنا يعرّض بأناس في عصره سادوا ووصلوا إلى سدة الحُكم، وهم من أراذل الناس، فيقول:

يقولون سَادَ الأرذلونَ بِعَصرنِــا ... وَصَـارَ لَهـم قَـدْرٌ وَخَيْـلٌ سَـوابِقُ
فَقُلتُ لَهم ولّى الزمانُ ولَمْ تَـزَلْ ... تُفَرزِنُ في أخرى البيوتِ البياذق(٣)

ويبدو لي أنّ شاعرنا هنا يشير إلى أولئك الذين اغتصبوا وطنه، وعملوا على تشريد أهله منه، وحكموا فيه بعد طردهم حكّامه السابقين.

ويعرّض برجل كان يتجسس على الناس، ويتتبع عوراتهم، فيقول:

وَنَاصبٍ نَحوَ أفواهِ الوَرَى أذُنـاً ... كالقَعبِ يَلقُطُ مِنهم كل ما سَقَطـا
تَرَاه يَلْتَقِطُ الأخبارَ مُجْتَهِـــداً ... حتى إذا ما وَعَاهَا زَقّ ما لَقَطا(٤)

ويعرض بالمعتضد عبّاد صاحب إشبيلية، وقد امتنع عن الوفادة عليه؛ لما سمعه عنه من بطش، وقسوة، وقتل للندماءِ والخلطاءِ الذين أخلصوا له، فيقول:

لَكَ الموائدُ للقُصّادِ مترعـــةٌ ... ترْوي وتَشْبِعُ لكنْ بعدها غُصَصُ

---

(١) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٧، والمعاهد، ٢/٢٣٥.
(٢) فوات الوفيات، ٢/٤١٠، والوافي بالوفيات، ٣/٩٧.
(٣) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٦.
(٤) الخريدة، ق٤ج٢/١١٩.

وَلَستُ أعْجَبُ مِن قَومٍ بها انتشبوا لكنّما عَجَبي مِنْ مَعشَرٍ خَلَصوا[1]

ولقد غلب على ما وصلنا لابن شرف من هجاء طابع المقطعات من بيتين أو ثلاثة ابيات، ولكن هذه المقطعات لا تكشف لنا عن لسانٍ جارح كان قد اتخذ من أعراض الناس ولحومهم هدفاً له.

خصائصه الفنيّة في الشعر:

بناء القصيدة:

أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ ما وصلنا من شعر لابن شرف، قد جاء على صورة مقطّعات قصيرة، وإلى أنّ قصائده المطولة التي أشار إليها القدماء الذين عنوا بنقل أخباره وأشعاره في المديح؛ والرّثاء، وغيرهما، لم يصلنا منها إلاّ بضع قصائد.

ويستطيع الدّارس لآثار ابن شرف أن يلاحظ انّ هذه المقطّعات إنّما هي مختارات من قصائد مطوّلة كانت قد اتّسمت بطول النّفَس الشّعريّ، وهذا واضح من إشارات ابن بسّام التي قدّمها بها، فكثيراً ما كان يشير، وبطريقة مباشرة إلى أنّ هذه المقطّعات قد أُخِذَت من قصائد طويلة، أقتَطَف منها عيونها، ومن ذلك قوله: ((قال من قصيدة ... وهي طويلة، قَطَفت عيونها.))[2]، وهكذا كان ابن بسّام يمضي في تقديم أشعار شاعرنا، مشيراً إلى أنّها أُخِذَت من قصائد طوال.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا من خلال هذه الإشارات، نستطيع أن نلاحظ أنّ ابن شرف قد نَظَم قصائد مطوّلة تميّزت بطول النّفَس، وبالإتّزان الفنّي من أوّلها إلى آخرها، وفي موضوعات مختلفة، وأغراض متنوّعة إلاّ أنّ يد الزّمن قد امتدّت إليها، ولم يصل إلينا منها إلاّ مقطّعات قصيرة مختارة نجدها مبثوثة في طيّات كتب الأدب والتّراجم التي بين ايدينا.

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٨٢.

[2] الذخيرة، ق٤م١/٢١٨، وانظر: مثل هذه الإشارات في ص: ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، وغيرها.

ومن خلال تلك القصائد المطوّلة التي وصلتنا لهذا الأديب فإنّنا نستطيع أن نتبيّن بعض ملامح البِناء الفنّي الذي سار عليه في قصائده المطوّلة، على أنّنا نستطيع أنْ نلمح بعض أركان هذا البناء من خلال ما وصلنا من مقطّعاته الكثيرة ذات الموضوعات المتنوّعة، فنستطيع أن نرى أنّ ابن شرف في بناء قصائده، كان يسير على نهج القصيدة العربيّة التقليدي، فكثيراً ما كان يفتتح قصائده المديحيّة بالوقوف على الأطلال والدِّمن، فيذرف الدموع غزيرة على مَن كانوا في هذه الأطلال، ويشكو من هجرهم، وبُعدِهم، ومن الحالة التي وصل إليها جسمه بعد غيابهم، وبعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن المرأة، فيتغزل بها غَزَلاً حسيّاً متوقّفاً عند مواطن الجمال فيها جرياً على عادة القدماء من الشعراء في قصائدهم المديحيّة، ومن ثمّ ينتقل إلى الحديث عن الرِّحلة، فيصف لنا طريقه إلى الممدوح فيصوّر لنا أهوال السفر ومتاعب الطريق، وما يعانيه هو وعائلته من تلك المصاعب والمشاق، وبعد ذلك يتخلّص من هذه المقدّمة التقليديّة تخلّصاً موفقاً، فينتقل إلى الغرض الذي يريد ألا وهو المدح، فيتوقف عند صفات ممدوحه، ويضفي عليه الكثير من الصفات العربيّة الأصيلة المُمثّلة بالشجاعة، والكرم، وطيب الأصل وعراقته، وحُبِّ العلم، ومضاء العزيمة، والإقدام، وما إلى ذلك من الصفات والقِيَم التي تغنّى بها الشعراء مِن قبل، ويحرص حرصاً كبيراً على أن تكون المقدّمة التي يقدّم بها قصيدته ملائمة للغرض الذي يريد، وبعد ذلك ينهي قصيدته بطريقة موفّقة، وإليك بعض الأمثلة على ما ذهبنا إليه من خلال شعره، ومن ذلك قصيدته التي رفعها إلى أمير مرسيّة ابن طاهر، حيث استهلّ هذه القصيدة بمقدّمة طلّلية تقليديّة- تحدّث فيها عن الطلل، وأكثر من ذكر أسماء الأماكن التي يقع فيها ذلك الطلل، وتغزّل بالمرأة فشكا من طيفها الذي ظلّ يؤرّقه، ويذرف الدّموع غزيرة على من كانوا في هذا الطلل الذي هو متعلق به تعلقاً كبيراً، معبّراً عن قلقه لعدم اكتراث أصحابه الذين كانوا معه بذلك الطّلل، فهو وحده صاحب العلاقة الوثيقة به، وهذا واضح من قوله:

وَعاجُوا على عُسْفَانَ والليلُ أليَلُ ... وَمَرّوا بِذاتِ البَيْنِ والصبحُ مِسْفِرُ

وحَازَتهُم حزوى ضُحَىً وَتَروَّحوا ... بِمَنْعَجَ واستَعْلَوا أباناً فَنَوَّروا

ولمّا تَواقَفْنَا بِذي سَلَمٍ بَدَا ... سَلامٌ لِسَلمى ظَلّ يَخْفَى وَيَظْهَرُ

شَعَرتُ لَهُ والرّكبُ حَيْرَانُ غافِلُ ... وَمَا شاعِرٌ أمراً كَمَنْ لَيسَ يَشْعُرُ

رَأتْ ظَبيَةَ الوَعساءِ عَيني فَهَيّجَتْ ... لَهَا ذِكرُهم والشّيءُ بالشّيءِ يُذكَرُ

سأبكي طلُولاً كُنتِ فِيها مُطِلّةً   علَيها وكلّ الليلِ تَحتَكِ مُقْمِر[1]

وهذه مظاهر جاهليّة، تقليديّة تغنّى بها الشعراء القدماء في مقدّمات قصائدهم في المديح، وهي تعيد لنا صورة امرئ القيس الذي كان يعاني ويتألّم؛ لعدم إكتراث أصحابه لمراقبة البرق، فكان يأرق وحده، وبعد هذه المقدمة الطلليّة الغَزَليّة التقليديّة ينتقل ابن شرف إلى الغرض الذي يريده إنتقالاً لطيفاً لا يجعلنا نحسّ بنشاز أو إضطراب في معماره الفنّي، فيقول:

تَصَرّم ذَاكَ العَيشُ إلاّ ادّكَارُهُ   وإلاّ كَذُوباً في المَنَامِ تُزَوّرُ
فَتَىً طَاهِرِيٌّ طاهِر الثوب ذكره   من المِسكِ أذكى أوْ مِنَ المَاءِ أطْهَر[2]

ويمدح المعزّ بن باديس بقصيدة أخرى، فَيَستهلّها بمقدّمة تقليديّة موروثة، فيطلب من رفيقيه أن يتوقّفا معه في ذلك الطّلل؛ ليرتاحا مِنْ عناء السّفر والتّرحال بَعْدَ تلك الرّحلة الطّويلة المُضنية، فيقول:

قِفَا فَتَنسّما عِطرَ النّسيمِ   برَسم الدّارِ مِنْ بَعْدِ الرّسيمِ
أنيخَا النّاعِجَيْنِ وَلا تَروما   فَما السّلوان بالأمرِ العَظيمِ
قفا تَرَيَا السّبيلَ إلى التّصابي   لِمغناها وكَيْفَ صِبا الحَليمِ[3]

وممّا تقدم يتضَح لنا أنَ شاعرنا قد سار على نهج القُدماء في عرض قصيدته، ونستطيع أنْ نلاحظ تقليده للقدماء في بناء قصيدته حين طلب من رَفيقيّه أن يتوقّفا في ذلك الطّلل، وهو بهذا يعيد لنا صورة امرئ القيس الذي كان يطلب من صاحبيه أنْ يتوقفا معه؛ لِيَبكِيا على من كانوا في ذلك الطّلل الذي يتعلق به، وبعد هذه المقدّمة ينتقل إنتقالاً موفقاً إلى مدح المعزّ بن باديس، فيتغنّى بسيادته، وكرمه، وشجاعته، وإقدامه، وعراقة أصله وطيبه، ويشير إلى أنّه صاحب شرف قديم، وأنّ الشرف قد تعمّق فيه، فيقول:

هُوَ الشّرف الذي نَسَبَ المَعَالي   إليهِ وَهْوَ ذُو الشّرفِ القَديمِ
شِهابُ الحَرْبِ يُهلِكُ كُلّ بَاغٍ   وَمُحرق كُلّ شَيطَانٍ رَجيمِ[4]

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٠-٢٢١. أبان: جبل في الحجاز قرب حائل. ومعجم البدان، ١/٦٢.
(2) المصدر نفسه، ص: ٢٢١.
(3) إنباه الرواة، ١/٣٠٢.
(4) إنباه الرّواة، ١/٣٠٢.

ونستطيع أن نلاحظ التلاؤم الذي أقامه شاعرنا بين مقدّمته التي افتتح بها قصيدته، وبين الغرض الذي نظم هذه القصيدة من أجله، فيشير في مقدّمته إلى أنّه قد ملّ من حياة التنقل، وعدم الاستقرار التي عاشها قبل أنْ يلتحق بديوان المعزّ بن باديس، وينضمّ إلى حاشيته، وقد آن لَه أنْ يهدأ في كنفه، وهذه كلها مظاهر جاهليّة تقليديّة انعكست في شِعر ابن شرف، لكنّه اعاد صياغتها من جديد وصبّها في قالب حضريّ يتلاءم والحياة الحضاريّة التي عاشها في ذلك العصر.

ويمدح ابن أبي الرّجّال وزير المعزّ بن باديس، فيستهل مديحته بالوقوف على الأطلال، ويذرف الدّموع غزيرة على فراق أحبته جرياً على عادة القدماءِ من الشعراء، ويشكو فيها من صدّهم، وهجرهم، ويشير إلى أنّه لم يعُد يقوى على تحمّل هجرهم وصدّهم، فيقول:

رَسَمَ الشّجَى البُكا في الرّسمِ والطّلَلِ ... والدّمْعُ حيلَةُ أهْلِ الفَقْدِ لِلحِيَلِ
أفنَى دُمُوعي وَجِسمي طولَ هَجركم ... حَتى جَرَت دَمْعَتي طلاً على طَلَلِ
أبكي فَلا جَسَدي أبقى ولا جَلَدي ... ما لَو أصيب بِه جسم البِلى لَبَلى[1]

وَيحسن التخلص من هذه المقدّمة، فينتقل إلى الغرض الذي يريد انتقالاً لطيفاً لا يجعلنا نشعر باضطراب أو خلل في قصيدته، فيقول:

وَحُسْنُ صَبرِي فَلا يَغْررك عَن ضَرَرٍ ... مِثْلُ الملاحةِ في أجفانِ ذي السّبَلِ[2]

ويتوقف عند صفات ممدوحه، فيصفه بالسيادة، والمجد، والكرم، والشجاعة، والإقدام، وغيرها من الصفات التقليديّة الموروثة التي درج عليها الشعراء، وتغنّوا بها، فيقول:

جَاوِر عَليّاً وَلا تَحفِل بِحادِثَةٍ ... إذا ادّرعت فَلا تسأل عن الأسَلِ
اسم حكَاه المُسَمّى في الفِعال فقد ... حَاز العليّينِ مِنْ قولٍ ومِنْ فِعْلِ[3]

وبعد ان يفي الممدوح حقّه في المديح، يختتم قصيدته بخاتمة لطيفة بليغة، يقول فيها:

سَل عَنهُ وانطق بِهِ وأنظر إليهِ تَجِدْ ... ملء المَسامِعِ والأفواهِ والمُقَلِ[4]

---

(1) الف باء، ٤٩٨/١.

(2) الف باء، ص: ٤٩٨.

(3) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٢.

(4) المصد رنفسه، ص: ٢٢٢، الف باء، ٤٩٩/١.

هذا وكثيراً ما كان ابن شرف يصف لنا رحلته إلى الممدوح، فيصوّر لنا في أثناء ذلك ما يعانيه من متاعب الطريق وأهوال السفر قبل أنْ يصل إليه، ويجتمع به، ومن ذلك قوله في قصيدة بعث فيها إلى صاحب إشبيليّة عبّاد مع الرسل[١]، وقد تحدّث فيها عن تلك المصاعب والمتاعب التي صادفته في طريقه إلى الأندلس بعد فراق وطنه، وعمّا واجهه هو وأسرته من خوفٍ وارهاقٍ وقلقٍ، حيث يقول:

أُجَشّمَهم لَيلَ القِفَارِ وَظُلمــــةَ الـ   بِحَارِ وكَمْ ريْعُوا وَللسَّيْدِ إرخَــاءُ
وَلِي مِنهُمـا سَهْمَانِ هَـذا ابنُ أربَـعٍ   وَهَذا ابنُ سِتٍ كُلّمـا كـانَ إغفَــاءُ
أضمّهمـا والليـلُ دَاجٍ كأنّمـــــا   هُما نُقطَتَـا يـاءٍ وَجِسمي هُوَ اليـاءُ
فَطَوْراً يُغَشّيهِم على ذِكرِكَ الكَـرى   فَتُـصبِحُ أضـواءٌ عَلَيهِـم وَلألاءُ
وَطَـوراً يَمجّونَ الدُّجَى وَمِطالَـهُ   وَمَا كانَ للغَايَاتِ مَطْلٌ وإرخَــاءُ
فَتَضْجَرُ مِنهُمُ أنفُسٌ ربّمـا بَكَـتْ   بُكاً هُوَ للصمِّ الجَلاميدِ إبكَــاءُ[٢]

وقد يبتعد ابن شرف عن المقدّمة الطلليّة الغَزَليّة المعروفة، فيستهل قصيدته المديحيّة بالحديث عن الطيّف، طيف الوطن الذي يؤرقه ويلازمه طيلة وُجوده في الأندلس، وهذا أمر طبيعيّ بالنسبة لشاعر ملتزم بقضايا أمته ومجتمعه مثل ابن شرف، فهو رجل قد فارق وطنه قهراً، وعاش في ديار غربة، فلا مجال لديه والحالة هذه أن يلهو بالمرأة، ويتغَزّل بها ووطنه مغتصب ممتهن، ومن ذلك قوله في قصيدة بعث بها إلى المظفر بن الأفطس صاحب بطليموس في ذلك الوقت، وقد بدأها بالحديث عن طيف وطنه، حيث يقول:

زَارَ وَقَـدْ شَمَّـــرَ فَضْـلَ الإزار   جُنْـحُ ظَــلامٍ جَـانحٍ لِلفَــــرارْ
وَرَوضَــةُ الأنجُـمِ قَـدْ صَوَّحَـــتْ   والفَجْـرُ قَـدْ فَجَّـرَ نَهْرَ النَهَــارْ
قُلْـتُ لَهُ: أهـلاً بِطَيْـفٍ دَنَــــا   مِنْ نَـازِحِ الدَّارِ بَعِيْــدِ المَـزَارْ
كَيْـفَ خَطَـوْتَ الشَّرَ ثُـمّ الشَّـرى   وابنـيْ هِـــلالٍ والقَنَـــا والشّفارْ
أصَهــوَةَ الغَبَـــراءِ أمْ دَاحِســـاً   رَكِبتَ حتى خُضْتَ ذَاكَ الغِمـارْ؟
وَجِئْـتَ بِالخطّـارِ أمْ أعْـــوَجَ   جُـنَـيْبـةً مـعتدّة للخـطّـــارْ؟
وَهَـلْ تَـقَـلّدتَ لِـدَفْـعِ الـرّدَى   حَمَـائِلَ الصَمْصَـامِ أمْ ذِي الفَقَـارْ؟

---

[١] أنظر: الذخيرة، ق٤م١/١٧٢-١٧٣.

[٢] الذخيرة، ق٤م١/٢١٩.

وأنتَ زَيْدُ الخَيْلِ أمْ عَامِــــــــرٌ وَمَالكُ بنُ الرَّيبِ أمْ ذو الخِمَـارْ؟

ويتخلص من هذه المقدمة تخلصاً لطيفاً لا يشعرنا بخلل أو اضطراب فيقول:

فَـقَــــالَ لا هَــــذَا وَلاَ ذَا وَلا بَلْ كُنْتُ عَنْهُم قَمَـراً في سِرارْ.[1]

ويتوقف عند صفات ممدوحه فينعته بكرم الأصل، وحُبّ العلم، ومنادمة العلماء والأدباء، فيقول:

أقَمتَ لِلعلمِ مَنَــاراً وَمَــــا أظُنُ في الدّنيَـا لِعلـم مَنَـارْ
فَمَا نُدَامَـاكَ سِوَى أهلِــــهِ وكلّهم بَيْنَ نَـدامى العقـارْ.[2]

وكثيراً ما كان شاعرنا يفتتح بعض قصائده المديحيّة بالدّعاء بالسّقيَا لأماكن وطنه الذي فارقه رُغماً عنه، مستبدلاً بذلك المقدّمة التقليديّة المعروفة، وهذا واضح مِنْ قوله:

سَقَى القَصْرَ فالميدَانَ أخلافُ مُزنَةٍ وَرَاحَتْ عَلَى الرّوحاءِ مِنْها أفاويقُ
عَلَى أنّهُ مَرْمىً نَبَتْ عَنْهُ أسْهُمِي فَلا حَزّ لي في الأفْقِ مِنْهُ وَلا فُوقُ
أُنادِيه والبَحرُ المُحيطُ مُجَاوِبِــي وَدُونِي خَليجٌ مِنْهُ أفْيَحُ مَخْــرُوقُ،[3]

وقد يبدأ بعض مدائحه بالحديث عن أولئك الأعراب الذين عملوا على تخريب وطنه، وتشريد أهله، فيدعو لهم بالتمزّق والتّفرق، وعدم الاستقرار والإطمئنان وَمِن ذلك قوله:

فَيا أخَــويّ مِنْ أسَــدٍ وَسَعْــــدٍ أحَيّ حَيُّ زُغْبَـــةَ أمْ دَفيــــنُ؟
فَـلا اشْتَمَلَتْ مَسَاكنهـا بِشَمْـــلٍ وَلا هَـدَأ القَرارُ بِـهِ سُكُـــونُ
وَلا سَرَتْ الرّيَـاحُ عَلَــى رِيـاحِ لَواقِحُ مُزنَـــةٍ أنّى تَكُــــونُ
فَقَدْ دارَت عَلَيْنَـا مِنْ رَحَـاهَـــا طَحونٌ كُلّمَـا لاقَتْ زَبُـــونُ،[4]

هذا في قصائد المديح، وأمّا في قصائد الرّثاء التي نظمها في رثاء وطنه، وتصوير النكبة الفادحة التي أصيبت بها على أيدي أولئك الطامعين، فقد ابتعد فيها عن المقدّمات التقليديّة

---

(1) الذخيرة، ق٢م٢/٦٤٣.

(2) المصدر نفسه، ص: ٢٣٦.

(3) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧-٢٣٨.

(4) الذخيرة، ق٢م٢/٢٣٧.

المعروفة، وبدأها بالتّحسّر والتّوجّع على المصير الذي آل إليه ذلك الوطن من هدم، وتخريب، ووحشة، وتشريد، ومن ذلك يقول:

آه لِلقَيْروان أنّــــة شَجـــــو عَن فُـؤادٍ بجَاحِمِ الحُـزنِ يَصلَى
حينَ عَادت بِه الدّيارُ قُبـــوراً بَل أقولُ الدّيارُ مِنهنّ أخلـــى[1]

وقوله:

يـا قَيروانُ وَدَدتُ أنّـي طَائِـرٌ فـأراكِ رُؤيـةَ بَاحِثٍ مُتأمّـــلِ
آهـا وأيّة آهَـةٍ تَشفي جَـــوًى قَلبٍ بِنيران الصّبَابَةِ مُصطَلَى[2]

وقوله:

كأنّ الدّيار الخاليات عَــرائِس كوأسدُ قَد أزرَتْ بِهنّ الضّرائرُ[3]

وكثيراً ما كان ابن شرف يختتم قصيدة الرّثاء بخاتمة تشوبها الحسرة والتمنّي، والتلهّف لرؤية وطنه، والعودة إليه، وهذه الخاتمة غالباً ما تكون ملائمة للجوّ العام للقصيدة، وذات علاقة وثيقة بها، وإليك بعض الأمثلة على هذه الظاهرة حيث يقول مختتماً بعض قصائده في الرّثاء:

لَيْتَ شِعري هَلْ عَودَة لي في الغَيـ بِ إلى ما أطالَ شَجْوِي أمْ لا[4]

ومن ذلك أيضاً قوله:

كأن لَمْ يَكُنْ كُلّ وَلا كانَ بَعْضُهُ سَيَمْضِي بِهِ عَصْرٌ وَيَمضِي المعاصِرُ[5]

وقد ينهي قصيدة الرّثاء مضمّناً بعض أبيات غيره، ومن ذلك قوله مختتماً إحدى قصائده في الرّثاء ببيت لجرير، حيث يقول:[6]

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٧.
(2) المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.
(3) المصدر نفسه، ص: ٢٣٤.
(4) المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.
(5) المصدر نفسه، ص: ٢٣٥.
(6) أنظر: المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

((لَو كُنتُ أعلَمُ أنّ آخرَ عَهْدِهِـــم يَوْمُ الرّحيلِ فَعَلتُ مَا لَمْ أفْعَلِ.))[1]

وأمّا ما تبقى من شعر ابن شرف الذي لم ينهج فيه على نهج القصيدة التقليديّة، فإما أنْ يكون بعيداً عن المقدّمات الطلليّة والغَزَليّة، كما أشرنا فيما تقدّم، وإمّا أنْ يكون مقطّعات قصيرة لا تتجاوز ثمانية ابيات في معظمها، نظمها في موضوعات مختلفة متنوعة ما بين وصفيّة، وخمريّة، وغَزَليّة، ...، وهذه تخلو بطبيعتها من تلك المقدّمات التقليديّة، وهي كثيرة في شعر شاعرنا، ويمكننا أن نردّ ذلك إلى طبيعة المناسبات التي نُظمت فيها، وإلى كثرة المجالس التي كان يشهدها شاعرنا.

ومهما يكن من أمر، فإن شاعرنا قد أدّى ذلك كله محافظاً على الإتزان الفنّي لقصيدته من أول بيت فيها إلى آخر بيت مبتعداً عن الركاكة والضعف في أي ركن من أركانها، هذا بالإضافة إلى طول النّفس الشعريّ الذي تحلّى به شاعرنا، وهذا أمر يستطيع أنْ يلحظه كل من تصدّى لدراسة شعره، واتصل به، ومن الذين اثبتوا له هذه الصفة ممّن تصدّوا لشعره ابن بسّام، حيث يقول معلقاً على إحدى قصائده: ((... فما ان هي لاحقة بعيون شعره، أطال فيها التشبيب، فخلص إلى التهنئة، وقد استضرغ القريحة، وطوّل ...))[2].

الألفاظ والأساليب:

لمّا كانت الكلمة تحتل مكانة مرموقة في البناء الفنّي للشعر، وتعتبرمن اهمّ الأركان الأساسيّة لأي عمل أدبي، فقد اهتم النّقاد بالحديث عن الألفاظ وعلاقاتها بالاغراض الشعريّة الّتي تستخدم لها، فابن الأثير يرى: ((أن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل مِنْها يستعمل في وصف مواقع الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك، واماّ الرّقيق منها فإنه يستعمل في وصف الاشواق، وذكر أيّام العباد، وفي استجلاب المودّات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك.))[3]، ويرى الأستاذ الشّايب أنّ: ((للغزل أسلوباً يمتاز بالرّقة واللين والسهولة في غير ابتذال، وللرّثاء أسلوباً رقيقاً ليناً، وللمدح

---

(1) ديوان جرير، ٢/٩٤٠.

(2) الذخيرة، ق٤م١/١٣٨.

(3) المثل السائر، ق١/٢٤٠.

والهجاء أسلوباً جزلاً واضحاً شديد التأثير، وللوصف أسلوباً يختلف باختلاف ما يوصف: فهو جزل قويٌّ في وصف الحروب واصوات الطبيعة، وحوادثها المزعِجة، وليِّنٌ في وصف العواطف الرّقيقة ورائع جذّاب في وصف البروق اللاّمعة، والكواكب النيّرة، والازهار النضرة.))[1].

ولكنّ الدّارس لآثار ابن شرف الشّعريّة يستطيع أنْ يلاحظ أنّ الفاظه بصورة عامّة كانت تميل إلى الجزالة، وقوّة الجرس حتّى في المواطن الّتي كانت تتطلب الرّقة والعذوبة ولا سيمّا أشعاره الّتي قالها بعد نكبة وطنه وخرابه، ذلك لأنه كان محزوناً مقهوراً، يعاني مِنْ آلام الغُربَة والتشرّد،والحرمان، فالعلاقة قوية ما بين نفسية الأديب والالفاظ الّتي يستخدمها[2]، ومن أجل هذا فقد مالت الفاظه في هذه الفترة من حياته إلى القوة والجزالة؛ لتستطيع أنْ تعبّر عمّا يعتلج في صدره من غضبٍ وقهرٍ.

ومهما يكن من أمر، فإن الفاظه في بعض الأحيان قد اختلفت تبعاً للاغراض الّتي طرقها، حيْثُ كان يختار لهذه الاغراض ما يناسبها مِنَ الألفاظ والعبارات، فنراه في أسلوبه يراوح بين الجزالة والرقة، فإذا ما مدح فإنّ الفاظه كانت تميل إلى الرّصانة والجزالة وقوة الجرس، ومِنْ ذلكَ قوله في إحدى مدائحه:

وَعَاجوا عَلَى عُسفَانَ والليلُ أليَلُ ... وَمرّوا بِذاتِ البَيْنِ والصُبحُ مُسْفِرُ
وَحَازَتهُم حزوى ضُحىً وَتَرُحوا ... بِمَنعَجَ واستعلَوا أباناً فَنَـوّروا[3]

وقوله:

رَسَمَ الشّجى البُكا في الرّسمِ والطّلَلِ ... والدّمعُ حيلَةُ أهلِ الفَقْدِ لِلْحيَـل[4]

وإذا ما وصف الخمرة أو تغزّل بالنساء فإنّ ألفاظه كانت تميل إلى الرقة والعذوبة، ومن ذلك قوله:

كَتَمَ الهَوَى فَوَشَى بِهِ كِتْمَانُـهُ ... لِطِلابِـهِ وَتَكَلّمَتْ أجفَانُـهُ

---

[1] الأسلوب، ص: ٨٤.
[2] أنظر: الأسلوب، ص: ١٩٤.
[3] الذخيرة، ص: ٢٢٠-٢٢١.
[4] الف باء، ٤٩٨/١.

وَهَبَ الكَرَى لِسُهَادِهِ ونَعيمِـــــــــهِ لِعَذابِـــــهِ حتى أسا إحسَانُـــــهُ[1]

وقوله:

بَيْنَ أجْفَانِـــكِ سِحْــــــرٌ وَعَلَـــى غُصنِيكَ بَـــدر[2]

إلاّ أنَّ الفاظه لم تكن لتصل إلى حدّ الركاكة والضَّعف فــي أيّـة حالـة مـن الحـالات. وثمـة ظاهرة تلقانا في شِعْر ابن شرف ونحن نتحدّث عن الألفاظ ألا وهي اكثاره من المحسنّات اللّفظيـةِ والبديعيّة، مِنْ جناس، وطباق، وسجع، وتضمين، وما الى ذلـك مـن الزّخـارف اللفظيـة؛ ليعمـلَ على تلوين أسلوبه؛ ويضفي عليه رونقاً لفظياً معيناً بزيادة الدّفقـة الموسيقيّة فـي شِعْره، ويضفـي على المعاني الّتي يستعملها رونقاً، وجمالاً وقوةً.

فالجناس التام كما في قوله:

يا خائِـفـاً مِنْ مَـغْـشَـــــرِ لا يُصْطَلّـــــى بِنَارِهِـــــمْ
إنْ تُبْـلَ مِنْ شَـــرارِهِـــمْ علَى يَدَي شِـــرَارِهِـــمْ
أو تُرْمَ مِنْ أحْجَـــارِهِـــمْ وَأنتَ في أحْجَارِهِـــــمْ
فَمَـــا بَقِيْــتَ جَـارَهُـــــمْ فَفي هَوَاهُـم جَارِهِــــمْ
وَأرضِهِـــم في أرْضِيهِـــمْ وَدَارِهِـــم في دَارِهِــــمْ[3]

حَيْثُ جانس الشاعر هنا جناساً تاماً بين: ((شَرَارِهِمْ)) و ((شِرَارِهِمْ)) وبين: ((أحْجَـارِهِمْ)) و ((أحْجَارِهِمْ))، وبين: ((جَارِهِمْ)) و ((جَارِهِمْ))، وبين: ((أرْضِيهِمْ)) و ((أرْضِيهِمْ))، وبين: ((دَارِهِمْ)) و ((دَارِهِمْ))، فأضفَى على المعاني رونقاً وجمالاً وقوّةً.

والجناس النّاقص كما في قوله:

أبنَاءُ جِنسِكَ في الحُلى لا في العُلَى وأقولُ قَولاً لَيسَ بالمَدفُـــــوعِ[4]

وكما في قوله:

---

[1] المسالك، ق١ج١١، ٢٤٣.

[2] الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.

[3] الذخيرة، ق٤م١/١٧٢.

[4] الوافي بالوفيات، ٣/٩٩.

إذا جَــاذَبَتْ أســتَارَها تَبْتَغِــي بِـــهَا   لأقدَامِهــا سِتْـــراً تَبَــدّت غَدَائِـــــرُ
تَبِيْتُ على فُرشِ الحَصى وَغِطَاؤهَـا   دَوَارِسُ أسْمَالٍ زَوَارِ حقَائِـــــرُ،[1]

وكما في قوله:

كَـأنّ الدِّيـارَ الخَالِيــــاتِ عَرائِــسٌ   كَوَاسِـدُ قَــد أزْرَت بهـنّ الضرّائِــرُ
وتنكر بقياها الأســرة حســــــــرا   عَوَاطِلِ لا تفشى لَهُنّ السّرائِـــرُ،[2]

وكما في قوله:

ولّـــى وَخلّـــى جَمْرَةً مَشْبوبَــــةً   تُذكِي عَلَى الأحْشَاء نَار سُمُومٍ[3]

حيث جانسَ الشّاعر في الأبيات السابقة جناساً ناقصاً بين: ((غدائـر)) و ((حقـائر))، وبيـن: ((الضرّائر)) و ((السّرائر))، وبين: ((ولّى)) و ((خلّى)).

ويكاد الطباق أنْ يكون ظاهرة مميّزة لشعره، وإنّني لا أتجاوز الحقيقة إذا مـا قلـت: إنّـه لا يخلو بيت من أبياته من الطّباق، وإليك بعض الأمثلة على ذلك حيثُ يقول:

ولَقَد نَعِمتُ بِلَيْلَةٍ جَمَدَ الحَيَـــــا   في الأرضِ فِيها والسّماءُ تَذُوبُ،[4]

ويقول:

مِنّي إلَيهِ وَمِنْ يَدَيـهِ إلى يَـــــدي   فالشّمسُ تَطلَعُ بَيْنَنا وتَغِيـــــبُ،[5]

ويقول:

فَلا القُرْبُ يُحْيِيني وَلا البُعْدُ قَاتِلِي   وَلاَ الهَجْرُ يُسلِيني وَلا الصبْرُ يَلْوِي بِي[6]

ويقول:

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٥.
[2] المصدر نفسه، ص: ٢٣٤.
[3] المصدر نفسه، ص: ٢١٧.
[4] معجم الأدباء، ١٩/٣٩.
[5] الوافي بالوفيات، ٢/٤١١.
[6] الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.

فَيا قَاطِعاً وَصلي ويَا واصِلاً غَدِي   بأمسِي وَيَومِي فِي العَذَابِ المُمَتّعِ[(١)]

ويقول:

زَانَ العُلا وَسِوَاهُ شَأنَهَا وكَــــــذا   لِلشّمسِ حَالانِ فِي الميزانِ والحَمَلِ[(٢)]

ونستطيع أنْ نلاحظ أنّ الطّباق قد تحقق في الأبيات السابقة ما بين: ((جَمَـدَ)) و ((تَـذوب))، وبين: ((تَطْلَعُ)) و ((تَغيبُ))، وبين: ((القُـرب)) و ((البُعـد))، وبيـن: ((يُحيينـي)) و ((قـاتلي))، وبيـن: ((قاطِع)) و ((واصـل))، وبيـن: ((غَـدي)) و ((أمسـي))، وبيـن: ((زَانَ)) و ((شَـانَ)). والأمثلـة علـى الطبـاق فـي شِعرِه كثيرة، يستطيع الـدّارس أنْ يلاحظهـا بكـل وضـوح فيمـا وصلنـا مـن شِـعره ومقطّعاته.

ونستطيع أن نجد السجع في قوله:

خَلِيلَ النّفسِ لا تُخْلِ الزجَـاجَـــــا   إذا بَحْرُ الدّجَى في الجوّ مَاجَـا[(٣)]

وفي قوله:

وَمَطبُوخٍ بِغَيرِ عَقِيــدِ نَـــــــارٍ   عَزَمْتُ عَلَى جــناه بابتِكَـــارِ[(٤)]

وفي قوله:

قَدْ كُنتَ في وَعْدِ العِذَارِ فَأنْجَـــزا   وقَضَى لِحُسنِكَ بالكَمَالِ فأوْجَزَا[(٥)]

هذا ولقد تميز شعر ابن شرف بمظاهر مختلفـة مـن مثـل: الحـوار، والتكرار، والمبالغـة، واستخدام المصطلحات اللغويّة والعروضيّة، فنستطيع أنْ نجد الحوار في قوله:

قالَتْ: أذو شَـيْبٍ؟ فَقُلـتُ مُخَادِعـــاً   لَـو جَــازَ عِنـدَ الغَانِيــاتِ خِدَاعِــي
مَا شِبْتُ لكنْ خِفْـتُ يَشْـتَهِرُ الهَـوَى   فَلَبِسْـتُ للرّقَبـاء غَيْرَ قِنــاعِـــــــي

---

(١) الذخيرة، ص: ٢١٦.
(٢) المصد رنفسه، ص: ٢٢٢.
(٣) الخريدة، ق٤ج٢/١١٧.
(٤) نهاية الأرب، ١١/١٢٨.
(٥) الذخيرة، ق٤م١/٢١٤.

قَالَتْ أشدّ عَلَيْكَ مِمّا خِفْتــــــــهُ   مَا خِلتهُ لَكَ جُنّة لِدِفَاعـــــــي[1]

وفي قوله:

يَقُولُ لِيَ العَاذِلُ فـي لَوْمِـــــــهِ   وَقَولَـــهُ زُورٌ وَبُهْتَـــــــــانُ
ما وَجهُ مَن أحْبَبْتَـهُ قِبْلَــــــهُ   قُلْتُ: وَلاَ قَولُكَ قُـــــــرآنُ[2]

وكما في قوله:

قَالــــوا تَصَاهَلَتِ الحَميـــــــــرُ   فَقُلْتُ إذ عُدِمَ السّوابِــــقُ[3]

وأما التكرار فيكاد أن يكون سمة واضحة في شعر ابن شرف، ومن ذلك قوله:

أقَمْتَ لِلْعِلـمِ مَنَاراً وَمَــــــــا   أظُنُّ في الدّنيـا لِعِلمٍ مَنــــار[4]

وقوله:

يَرَاها كُل ذِي بَصَرٍ فَيَعشـــــــو   لِبَهْجَتِها إلى أن لا يَرَاهــــــا[5]

وقوله:

وَلا رَأت أبصارُهــا شَاطِئَـــــاً   ثُمّ جَلَتْ بِاللّجِّ أبْصَـارَهَـــــا[6]

وكما في قوله:

هُوَ الشّرفُ الذي نَسَبَ المَعَالـــي   إليه وَهُو ذو الشّرَفِ الرّفيـــعِ[7]

ولم يكن الأمر ليقتصر في شعر شاعرنا على تكرار الألفاظ بل تعدّى ذلك إلى تكرار المعنى، ومن ذلك قوله:

---

(1) المسالك، ق١ج١١/٢٤٢.
(2) تزيين الأسواق، ٢/٥٦.
(3) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٦.
(4) المصدر نفسه، ص: ٦٤٣.
(5) الغيث، ٢/٢٦٢.
(6) الذخيرة، ق٤م١/٢٣١.
(7) الإنباه، ١/٣٠٢.

مَا صَحَ لِي أحدٌ أُصيِّره أخــــاً   فـي اللـهِ محضـاً أوْ فَفي الشّـيطانِ
إما مُولِ عنْ وِدادي مَالَـــــــهُ   وَجْهٌ وإمّا مِنْ لَهُ وَجهـــــــانِ[1]

وقوله:

وَأفْقَـدُ مَا طَلَبْـتُ فَـلَمْ أجِــــدْهُ   رَفِيــقٌ فـي صَحَابَتِــهِ رَفِيــــقُ
فأصبَحَ وَهو لِلعَنقـاءِ ثـــــانٍ   وَثَاوِ حَيثُ فَرّخَتِ الأنُــــوقُ[2]

وكما في قوله:

بَيْنَ أجْفَـــانِكَ سِحْـــــــرُ   وَعَلـــى غُصنِـــكِ بَـــدْرٌ[3]

وقوله:

مَرَبّــى غُصنٌ عَلَيــهِ قَمَــــرُ   مُتَجَلٌ نُــورُهُ لا يَنْجَلـــــــي[4]

ونستطيع أن نجد المبالغة في قوله حينَ صور لنا خلاء القيروان من أهلها حيث يقول:

حينَ عَادَت بِهِ الدّيارُ قُبــــوراً   بَل أقُولُ الدّيارُ مِنهنّ أخـــلَى[5]

فالشاعر هنا يبالغ مبالغة واضحة في تصوير وحشة القيروان وخلوّه لا سيّما عندما جعلَ البيوت في القيروان أخلى من القبور وأكثر وحشة.

هذا ولقد كان شاعرنا يبالغ في تصوير جمال محبوبته من ناحية، مثلما كان يبالغ في تصويره لنفسه بعد هجران أحبته وفراقهم، من ناحية أخرى، التي تغزّل بها كانت صاحبة وجه جميل يشبه القمر في جماله، وهي فاتنة تصرع بجمالها، وهذا واضح من قوله:

مَرّ بى غُصنٌ عَلَيــــه قَـمَـــرٌ   مُتَجَـلٍّ نُـورُه لا يَنْجَلـــــــي
هَزّ عِطْـفَيــهِ فَقُلْنـا إنّـــــهُ   ذو الفَقَــار اهتـزّ في كـفّ علـيّ

---

[1] المسالك، ج١١ق١/٢٤٢.

[2] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٤.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

[4] المصد رنفسه، ص: ٢١٨.

[5] المصدر نفسه، ص: ٢٢٧.

وَرَأيتُ الناس صَـرعَـى حَوْلَـــه   فكأنّ اليـوم يوم الجَمَــــــــل[١]

وأمّا هو بعد فراق أحبته وهجرهم، فمجرد لحظ يترجم عن قتيل، فيقول:

بِـعَيْـشِكَ نَـادِ أيّـامي وقـُل هَـــلْ   لَدَيكِ إلـى مَـرَدّ مِن سَبِيــــــلِ
أراكِ كَمــا يَـرَى المُحتــاجُ مــالاً   وَقَدْ مَلَـكَتْ عَلَيــه يَدُ البَخيـــلِ
أراحِلَةً وَمَا أبقيْـتِ مِنّــــــــــي   سِوَى لَحْـظٍ يُتَرجِمُ عَن قَتِيـــلِ[٢]

ويقول:

يُسعِدْكَ وابِلُ أدمُعٍ في أربُــــعٍ   شَرِبَتْ مِيـاهَ الدّمعِ شُرْبَ الهيمِ[٣]

هذا ولقد عكس لنا ابن شرف ثقافته الواسعة المتنوعة في شعره، فأكثر من استخدام المصطلحات اللغوية، والنَحَويّة، والعروضيّة، فنستطيع أن نجد المصطلحات اللغويّة والنحويّة في قوله:

صَرَفتَ رَجَائي عَن لَعَلّ وَعن عَسَى   وأبعَدَتني باليأسِ عن كل مَطْمَعِ[٤]

وفي قوله:

فالمَاجِدُ السّيّدُ الحرّ الكَريمُ لَــــهُ   كالنّعتِ والعَطفِ والتّوكيدِ والبَدَلِ[٥]

وفي قوله:

وَلِي مِنْهُمَا سَـهمَانِ هَذا ابـن أربَـعٍ   وَهَذا ابن سِـتٍ كُلمـا كـانَ إغفـاءُ
أضُمّهما والليلُ داجٍ كأنّمــــــــــا   هُما نُقطَتَا ياءٍ وَجِسمِي هُوَ اليـاءُ[٦]

ونستطيع أن نجد المصطلحات العروضيّة في قوله:

---

[١] الذخيرة، ق٤م١/٢١٨.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٢٥.
[٣] المصدر نفسه، ٢١٦.
[٤] المصدرنفسه، ص: ٢١٦.
[٥] المصدر نفسه، ص: ٢١٦.
[٦] المصدر نفسه، ص: ٢١٩.

فإن أفحَمَتنــا هَيبَةٌ عُـمَـرِيَـــــــــةٌ لَدَيْكَ لَهَا في الشّعرِ كَسْرٌ وإقواءُ[1]

وفي قوله:

كَأنّمــا الأجسامُ بَعْدَ رؤوسِهــــــــا أبياتُ شِعْرٍ ما لَهُنّ قَـــــوَافِ[2]

ولقد اكثر شاعرنا من استعمال بعض العبارات والأساليب اللغويّة، ومن ذلك كثرة إستعماله لـ "واو رُبَّ"، كما في قوله:

وَدُرَّةٍ نَــــــــــارَتْ ذُرَى داري ....[3]

وقوله:

وَبَلْقيسيّةٍ في المُلْكِ لَبِسَــــــتْ ....[4]

وقوله:

وَمَطبُوخٍ بِـغَيرِ عَقِيدِ نَــــــــارِ ....[5]

وقوله:

وَنَاصِبٍ نَحوَ أفواهِ الوَرَى أذُنَــــاً ....[6]

وقوله:

وَشَمسٍ تَرَاخَتْ أن تَغيبَ لِقِبلَتـــي ....[7]

وكما في قوله:

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢١٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٢١.

[3] الخريدة، ق٤ج٢/١١٦.

[4] الغيث، ٢/٢٦٢.

[5] نهاية الأرب، ١١/١٢٨.

[6] الخريدة، ق٤ج٢/١١٩.

[7] الذخيرة، ق٤م٢/٢١٦.

وَشَيْخٍ لَـهُ غُرْفَـةٌ فَخْمَـــــــــةٌ ....[1]

وكما في قوله:

وَمَضروبَةٍ في ظَهرِها حينَ تَكتَسي ....[1]

كما أكثر من استخدام الأسلوب الإنشائي والطّلبـي فـي شـعره مـن مثـل: التّمنّـي، والنّداء، والأمر، فالتّمنّي كما في قوله:

لَيْتَ شِعري هَلْ عَوْدَةٌ لِي في الغَيـ بِ إلى مَا أطَالَ شَـجْوي أمْ لا[2]

وفي قوله:

فَيا لَيْتَ شِعري القيروانُ مَواطِنِـي أعائدةٌ فيها الليالي القَصَائِـــر[3]

والنداء كما في قوله:

يا قَيـروانُ وَدِدْتُ أنّي طَائِـــرٌ ....[4]

وفي قوله:

وَيا رَبَّ وَجْـةٌ فيه لِلعَينِ مَنْــزَةٌ ....[5]

وفي قوله:

فَيا أخَويّ مِنْ أسَدٍ وَسَعْـــــــدٍ ....[6]

وفي قوله:

---

(1) الغيث، ٢/٢٨٠.

(1) الخريدة، ق٤ج٢/١١٩.

(2) الذخيرة، ق٤م٢/٢٢٩.

(3) المصدر نفسه، ص: ٢٣٥.

(4) المصد رنفسه، ص: ٢٣٣.

(5) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧.

(6) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧.

يا رَوْحَتَـــي بالقَيروانِ وبَكرَتِـــي .....[1]

وفي قوله:

فَيا قَاطِعـاً وَصلي وَيا واصِلاً غَدِي .....[2]

وفي قوله:

يا أربُعِي في القُطْبِ مِنْها كَيْفَ لِـي .....[3]

وأمّا الأمر ففي قوله:

أعِنّي بإطمَاعِ الوِصَالِ عَلَـى النّوى .....[4]

وفي قوله:

واذْكُرْ لَيَاليكَ التي ذَهَبَتْ لَنَـــــا .....[5]

وفي قوله:

سَلْ عَنْ رِضَـايَ عَنِ الزّمَانِ فإنّـهُ .....[6]

وفي قوله:

جَاوِر عَلِيّاً وَلا تَحفَلْ بِحَادِثَـــــةٍ .....[7]

وفي قوله:

قِفَا فَتَنَسّما عِطْرَ النّسيـــــــمِ .....[8]

---

(1) الذخيرة، ص: ٢٣٥.

(2) المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

(3) المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

(4) الذخيرة، ق٤م٢/٢١٦.

(5) المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

(6) المصدر نفسه، ص: ٢٢٦.

(7) المصدر نفسه، ص: ٢٢٢.

(8) الإنباه، ٣٠٢/١.

والأمثلة على هذه الأنواع كثيرة في شعره، يستطيع الدّارس أنْ يلاحظها بوضوح في معظم أشعاره التي وصلَتنا.

ونستطيع أن نلاحظ أن ابن شرفٍ قد استوحى ألفاظه من مصادر متعدّدة ومتنوّعة، فقد استوحاها من البيئة المحيطة به على اختلاف أنواعها: الطبيعيّة، والإجتماعيّة، والثقافيّة، والدينيّة، ومن ذلك قوله:

مَا فُلان إلاّ كَجِيفَةِ كَلْبِ ... والضرورات ألجأتنا إليهِ
فَمَن اضطَر غيرُ بَاغٍ ولا عَا ... دٍ فَلا إثمَ في الكتابِ علَيهِ[1]

وقوله:

فإذا رَأيتَ لَهيبَهَا وَسَلامَتي ... فاذكُرْ بِذلكَ نَارَ ابراهيم[2]

وقوله:

مَالي أجَاذِبُ ذي الدّنيا مُوليَةً ... فَكَلُّ ثَوبٍ علَيها قُدّ منْ دُبُرِ[3]

هذا ومن يتصل بآثاره وأشعاره، يستطيع أنْ يرى شخصيةً خِصبَةً ذات ثقافةٍ واسعة، بصيرة بأحوال الناس، وعاداتهم، وسُبُل حياتهم.

المعانـــي:

يستطيع الدّارس لآثار ابن شرف الشعريّة، أن يرى أنّه قد اتكأ على مصدرين أساسيين استقى مِنهُما معظم معانيه التي بثّها في قصائده وأشعاره، وهما: ثقافته الشعرية الواسعة إذ تأثر بمعاني الشعراء الذين سبقوه من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، وغيرهم من شعراء المشرق والمغرب مِمّن سبقوه أو عاصروه، وببيئته المغربيّة الأندلسيّة الجميلة التي عاش فيها، وتفاعل معها حيث تفتحت عيونه على مواطن الجَمَال والفِتنة فيها، فنهل منها معظم معانيه الجميلة المؤثرة.

---

(1) المسالك، ق١ج١١/٢٤٣.

(2) الذخيرة، ق٤م١/٢١٧.

(3) الذخيرة، ق٤م١/ ٢٢٢.

ويستطيع الدّارس أيضاً أنْ يلاحظ أن أشكال المعاني التي طرقها شاعرنا كانت قد تنوعت ما بين قديم وجديد، فمنها القديم الذي استوحاه من معاني السّابقين بعد أنْ ملأ عليه نفسه إعجاباً، فأعاد صياغته من جديد، وصبّه في قالب جديد يتفق وروح العصر، بعد أنْ أضفى عليه من رشاقته، وجمال أسلوبه، فأتى وكأنه له، ومنها الجديد الذي لم يسبقه إليه غيره من الشعراء فَعُرِف به دون غيره، فمن المعاني السابقة التي استوحاها، وأعاد صياغتها من جديد، قوله:

مَحمُودُ عَيْشٍ جَادَ لي دَهري بِـــهِ ثُمّ استرَدّ فكَان فيه خَصيمـــي[1]

وهو في هذا ينظر إلى قول ابن هاني:

وَهَبَ الدهرُ نَفيســاً فاستَـــرَدّ رُبّمــا جَادَ لَئيمٌ فَحَسَـــــد[2]

وأمّا قوله:

ونُجُومُ كَاسَاتي طَوالِعُ بالمُنــــى والسّعـدُ يَستَغنـي عن التّقويم[3]

فإنه يلتفت فيه إلى قول المتنبّي:

يُقِرّ لَهُ بالفَضلِ مِنْ لا يَـــوَدّهُ ويَقضي لَهُ بالسَّعدِ مِنْ لا يُنَجِّم[4]

وهو في قوله:

فَما جَشَأتْ نَفسي عَشيّة مُشـــرِفِ ولا احتَلَبَت عَينَيّ حُزْوى وَفَيفاء[5]

ينظر فيه إلى قول ذي الرمة:

لَقَد جَشَأتْ نَفسي عَشيّة مُشـــرِفٍ ويَومَ لَوى حَزوَى فَقُلتُ لَها صَبْرا[6]

وأمّا قوله:

---

(١) الذخيرة، ص:٢١٧.
(٢) ديوان ابن هاني، ص: ٣٥.
(٣) الذخيرة، ق٤م١/٢١٦.
(٤) ديوان المتنبي، ٢/٣٥٥.
(٥) الذخيرة، ق٤م١/٢١٩.
(٦) ديوان ذي الرمة، ص: ٢٣٦.

ولا لِغُرابي دِمنَة الدّارِ ظَلَّـــــتْ ذَا سُؤالٍ ومَا عِندَ الغُرابَينِ أنبــاءُ
مَقامُ زَمَانٍ مَاتَ عُروةُ حَســـرَةً عَلَيهِ وَظلّت تَسفَحُ الدّمعَ عفْـرَاءُ[1]

فإنّه يلتفت فيه إلى قول عُروة بن حزام:

ألا يا غُرابي دِمنَة الدّارِ خَبّـرا فـإن أبـا الهَجْـرِ مِـنْ عَفـرَاءَ تنتَحبـان؟
كَـانَ حقـاً مَـا تَقُـولانِ فأنهضـــا بِلَحْمي إلـى وكْرَيْكُمَـا فَكُلانِـــي
ولا يَعلَمنّ النّاسُ مَا كَان مَيْتَتِـــي وَلا يأكُـلَـنّ الطّيرُ مَا تَــذَرانِ[2]

فالدارس يستطيع أنْ يرى أنّ شاعرنا قد أدّى هذا المعنى مع شيء من الزيـادة، لا سيّما بعد أن أعاد صياغته، وصبّه في قالب جديد، وأسلوب جديد، يتفق مع ما يريد ومع روح العصر الذي يعيش فيه.

وهو في قوله:

أتى الزّمان على يَأسٍ بِهِ لِبَنِي الـدّ نْيا كَبُشرى بِمَولُودٍ عَلَى الكِبَـرِ[3]

ينظر إلى قول أبي تمّام الذي يقول فيه:

بُشرى الغَنيّ أبي البَنَاتِ تَتَابَعَـتْ بشراؤه بِالفَارِسِ المَولُــــودِ[4]

وكذلك قوله:

صَحِبْـتُ بِهـذِهِ الدّنْيـــا أنَاســاً إذا غَــدَروا فَـغدرهـــم وَثِيــقُ
وَلَم أصحَبهُم وُدّاً ولَكـــــنْ كَمَا جَمَـعَ العَدُوّيْنِ الطّـرِيـــقُ[5]

واضح الصلة بقول المتنبي:

وَمِن نَكَدِ الدّنيا عَلَى الحُرّ أنْ يَرى عَدُوّاً له مَا مِنْ صَدَاقَتِـهِ بُـدُّ[6]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢١٩.
[2] شعر عروة، ص: ١٦-١٧.
[3] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٣.
[4] ديوان أبي تمّام، ١/٣٩٩.
[5] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٤.
[6] ديوان المتنبي، ١/٣٧٥.

وهو في قوله:

حِينَ عَادَت بِهِ الدّيارُ قُبُــــوراً   بَل أَقُولُ الدّيار مِنْهُنّ أخلَــى[1]

يلتفت إلى قول أبي تمام الذي يقول فيه:

وَمَا القَفْرُ بِالبِيدِ القواء بَل التـــي   نَبَتْ بِي وَفيها سَاكِنُوهَا هِيَ القَفْرُ،[2]

ولعله في قوله:

ثُمّ لا شَمْعَةٌ سِوى أنجُمٍ تَخْــــ   ـطو على أفْقِهَا نَوَاعِسُ كَسلَـى[3]

ينظر إلى قول ابن هاني:

وَبَاتَ لَنَا سَاقٍ يَقُومُ عَلَ الدُّجـــى   بِشَمْعَةِ صُبحٍ لا تُقَطُّ وَلا تُطفـا[4]

وأمّا في قوله:

إذا أفزَعَتهُم نَبوَةٌ زاحَموا لَــــها   ضُلُوعي حتى وُدّهُم لَو تَـفتّقُ،[5]

فإنّه يلتفت إلى قول امرئ القيس الذي يقول فيه:

إذا أخَذَتها هَزّة الرّوعِ أمسَكَـــت   بمنكب مِقدام على الهولِ أروَعا[6]

ولقد علّق ابن بسام على قول ابن شرف بقوله: ((... بناه على قول امرئ القيس، إلاّ أنّ الوَجْد لذعه لذعةً أنطقته بالحال، وقوّلته السّحر الحلال، فعلمته كيف يفتت الأكباد، ويفت في الأعضاد.))[7]، ومن هذا يتضح لنا أن ابن بسّام يفضّل قول شاعرنا على قول امرئ القيس.

---

(1) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٨.

(2) ديوان أبي تمّام، ٤/٥٧٠.

(3) الذخيرة، ق٤م١/٢٢٨.

(4) ديوان ابن هاني، ص: ٧٨.

(5) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٢.

(6) ديوان امرئ القيس، ص: ٢٤٢.

(7) الذخيرة، ق٤م١/٢٣٢.

وهو في قوله:

وإذا تَجدّد لي أخٌ ومُنَـــــــادمٌ   جَدّدتُ ذِكرَ اخـــــاء خِلٍّ أولِ[1]

ينظر إلى قول ابي تمّام الذي يقول فيه:

نَقّل فُؤادَكَ حيثُ شِئتَ مِن الهَـوَى   ما القَلْبُ إلاّ لِلحَبيــــبِ الأول[2]

وأمّا قوله:

كَأنّ الدّيارَ الخالِياتِ عَــــــرائِسٌ   كَواسِدُ قَدْ أزرَتْ بِهِنّ الضّرائِر[3]

فإنّه يلتفت فيه إلى قول أبي تمّام:

وكَذاكَ لَم تُفرِط كآبَةُ عَاطِـــــــلٍ   حتى يُجَاورُها الزّمانُ بِحَالــي[4]

ولعله في قوله:

وأهجُرُهُ وهو اقتِراحي مِنَ الهَـوَى   وقَدْ تُهجَرُ الأمواهُ وَهْيَ قَـرَاحُ[5]

ينظر فيه إلى قول أبي العلاء المعري:

لَو اختصرتُم مِنَ الإحسانِ زُرتُكُمُ   والعَذبُ يُهجَرُ للافراطِ في الخصرِ[6]

ويبدو لي أنه في قوله:

أراكِ كَمَا يَرى المُحتاجُ مَــــالاً   وقَد مَلَكَتْ علَيه يَدُ البَخيـــــلِ[7]

يلتفت إلى قول معاصره وقرينه ابن رشيق حيث يقول:

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٣.

[2] ديوان ابي تمّام، ٢٥٣/٤.

[3] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٤.

[4] ديوان ابي تمّام، ٢٥٣/٤.

[5] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٧.

[6] شروح سقط الزند، ق١/١٢٠.

[7] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٥.

والصّبحُ قَد مَطَلَ الليلُ العُيونَ بِــهِ   كأنّهُ حاجَةٌ في كَفّ ضِنِّيـــــنِ[١]

ومما سبق يتضح لنا أنّ ابن شرف قد استقى معظم معانيه من معاني الشعراء الذين سبقوه من جاهليين، ومخضرمين، وإسلاميين، وغيرهم ممّن عاصروه في المشرق والمغرب، إلاّ أنّه تأثر أكثر ما تأثر بمعاني المتنبي الذي كان يعد مثلاً أعلى له، وكان يعجب به إعجاباً كبيراً، ويرى فيه صورة نفسه المغامرة الطموح الحكيمة، وهذا ما أكّده لنا ابن شرف نفسه حين يقول في كتابه المعروف بـ "أبكار الأفكار": ((... إنّا اخترعنا مائة بيت مثلاً ممّا يستعمله النّاس في أثناء كلامهم ومحاضراتهم: منها خمسون للعرب والمخضرمين، ومنها خمسون لأبي الطيب المتنبي خاصة، لمّا مُنِح له من ذلك وتُحكى له، وهذه المائة على شتى قوافٍ، وشتى أعاريض، فنظمت جميعها على أهم معنىً ومشابهة في قصيدة واحدة فيها مائة بيت لكل بيت بيت مثله، ولو شئنا نزيد على هذه العدّة.))[٢].

ولا يفهم من هذا أنّ شاعرنا لم يأت بجديد، وأنّه كان مقلداً لمن سبقوه في معانيه وألفاظه، وصوره، إنّما كانت له معانيه الخاصة به التي لم يسبقه إليها أحد، ومن ذلك قوله:

لَمْ يَكفِ وَجهُكَ حُسْنُهُ وَبَـــهاؤهُ   حَتى اكتَسَى ثَوبَ الجَمَالِ مُطرّزا
سُبحانَ مَن أعطاكَ حُسناً ثانيــاً   وَبِثالثٍ من فِعلِ حُسنِكِ عَــزّزا[٣]

ومن ذلك قوله:

يُسعِدكَ وابِلُ أدمُعٍ فـي أربَـــعٍ   شَرِبَتْ مِياه الدّمعِ شُربَ الهيـمِ
أيّام شَمسِ المَشرقينِ ضَجيعَـتـي   فيها وَبَدرُ المَغرِبَينِ نَديمــــي[٤]

وقد يستوحي بعض معانيه من طبيعة بلاده الجميلة، ومن مواطن الفِتنة والجمال فيها، ومن ثقافته العربيّة والدّينية الواسعة، ومن ذلك قوله:

بَعْدَ يَـومٍ كأنّــما حُشِرَ الخَلـــــ   ـقُ حُفاةً بِــه عَـوَارِي رَجْـــلى

---

[١] ديوان ابن رشيق، ص: ٢٢١.
[٢] مخطوط خزانة ابن يوسف، ص: ٢٠٥.
[٣] الذخيرة، ق٤م١/٢١٥.
[٤] المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

وَلَهم زَحمـةٌ هُنـالِكَ تَحكـي زَحمَـةَ الحَشْـرِ والصّحـائِفُ تُتلـى
وَعَجيجٌ وَضجّـةٌ كَضَجيـجِ الـ خَلْقِ يَبكُونَ والسّرائِرُ تُبلـى[1]

وممّا تقدّم يتضح لنا أنّ معاني الأبيات السابقة التي يصور فيها ابن شرف خروج أبناء وطنه منه فارّين مذعورين مستوحاة من حال النّاس يوم القيامة، وهم ينتظرون حسابهم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ المعاني التي طرقها شاعرنا، تكشف لنا عن شخصية متنوعة الثقافة، واسعة الاطلاع.

الموسيقى:

يرى ابن رشيق أنّ: ((الوزن أعظم أركان حدّ الشعر، واولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة، إلاّ أنْ تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التّقفية لا في الوزن.))[2]؛ ذلك لأن الوزن يعد: ((من أخص ميزات الشعر، وأبينها في اسلوبه، ويقوم على ترديد التفاعيل المؤلفة من الأسباب والفواصل، وعن ترديد التفاعيل تنشأ الوحدة الموسيقية للقصيدة كلها.))[3]. ولعل هذا يعود إلى تأثير الوزن الذي يعمل على دعم فاعلية الكلمات، ويعمل على تقوية العلاقات بينهما، فيبرزها، ويوجّه العناية إلى صوتها، ثم تأتي القافية بايقاعها، وحسن تلاؤمها مع القيمة الصوتية للقصيدة ككل ميزة أخرى للجوانب الموسيقية في الشعر[4].

وأمّا الشاعر فيستطيع بما أوتي من مقدرة فنيّة خلاّقة أنْ يؤثر في نفوس المتلقين بوسائله المتعددة، وذلك بأن يعمل على تعزيز أنغامه، وتقويتها عن طريق ايجاد تقفية في حشو البيت: ((بتقسيم عباراته في البيت الواحد إلى جُمَل متموجة تكاد كل موجة منها تعادل زميلتها، وترتبط بها أوثق ارتباط.))[5]، وقد يُعنى بجرس الألفاظ، وبوقعها في الأسماع فيعمل على زيادة موسيقى الشعر؛ ذلك لأنّ: ((العناية بِحُسن الجَرس، ووقع الألفاظ في الأسماع، يزيد من موسيقى الشعر، وذلك لأنّ الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية، تجعل البيت

---

(١) الذخيرة، ص: ٢١٦.
(٢) العمدة، ١/١٣٤.
(٣) موسيقى الشعر، ص: ٣٩.
(٤) انظر: الشعر في عهد المرابطين، ص: ٣٤٧.
(٥) ابن زيدون، ص: ٤٧١.

أشبه بفاصلة موسيقيّة متعدّدة النّغم، مختلفة الألوان، يستمتع فيها من لَـه دراية بهذا الفن، ويرى فيها المهارة والمقدرة الفنية.))[1]، وقد يهتم باقامة التوازن والتقابل بين كل لفظ صوتـيّ مع اللفظ الذي يقابله في العبارة التالية، وسوف نرى مثل هذه الظاهرة بوضوح في شعر شاعرنا.

ونحن إذا ما نظرنا في شعر ابن شرف، فإنّنا نجده حريصاً على تحقيق هذه المقدرة الفنيّـة في شعره، فكثيراً ما كان يُعنى بجرس الألفاظ، وبوقعها في الأسماع مثلما يُعنى باقامة التّوازن والتّقابل بين ألفاظه وتراكيبه؛ ليزيد في جمال الموسيقى، وليضفي على النغمة ألواناً مختلفة، وإليكَ بعض الأمثلة على ما ذهبنا إليه، ومِنْ ذلك قوله:

لمختلفي الحاجَـاتِ جَمْـعٌ بِبَابِـهِ   فَهذا لَـهُ فَنٌ وَهَذا لَـهُ فَـنُ
فللخَامِلِ العُليا وللمُعدَمِ الغِنـى   ولِلمُذنِبِ العُتبى ولِلخائفِ الأمْنُ[2]

ومن ذلك قوله أيضاً:

سَلْ عَنْه وانطِق بِهِ وانظر إليه تَجِدْ   مِلءَ المَسَامِعِ والأفواهِ والمُقَلِ[3]

ويستطيع الدّارس أنْ يلاحظ حرصه على التنغيم في شعره، حين يقيم توازناً وتقابلاً بين الألفاظ في الشطر الأول من البيت الواحد، وبين مثيلاتها في الشطر الثاني، وهذا واضح في قوله:

فالمَاجِدُ السّيّدُ الحرُّ الكريمُ لَـهُ   كالنّعتِ والعَطفِ والتوكيدِ والبَدَلِ[4]

ولقد تميز أسلوب شاعرنا بالدّقة في اختيار الكلمات، ووضعها في المكان الملائم لها لا سيّما بعد أن يجعل بينها وبين الألفاظ الأخرى التي تجاورها تآلفاً، وتناسقاً يعطيها جَرْساً، وايقاعاً في ذهن السامع.

ومهما يكن من أمر، فإنّ شاعرنا قد نظم شعره على بحور الشعر المعروفة التي كانت شائعة في عصره، غير أنّه أكثر من استخدام البحور الطويلة الممتدّة ذات السير البطيء:

---

[1] الأسلوب، ص: ٦٦.

[2] المعاهد، ٢/٣١٠.

[3] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٢.

[4] المصدر نفسه، ص: ٢٢٢.

كالطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، فالدّارس لأشعاره، يستطيع أن يلاحظ بوضوح أنّ البحر الكامل يحتل المرتبة الأولى في شعره، إذ نظم على هذا البحر معظم اشعاره التي وصلتنا، ولا سيّما في الرثاء، ويأتي بعده على الترتيب الطويل، والبسيط، والوافر، على تفاوت فيما بينها.

وهذه البحور من أكثر بحور الشعر العربيّ دَوَراناً في دواوين الشعراء، وعلى مختلف العصور، وفي هذا يقول المعري: ((إنّ البسيط، والطويل ليس في الشعر أشرف منهما وزناً، وعليهما جمهور شعراء العرب، ويقال: إنّ العرب كانت تسمي الطويل الركوب لكثرة ما كانوا يركبونه في اشعارهم ... ولنّ الأوزان التي تتقدّم في الشعر هي: الطويل، والبسيط، ويليهما الوافر والكامل.))[1]، ويقول الأستاذ عبدالمنعم خفاجي: ((... أكثر أشعار العرب منَ الطويل، والبسيط، والكامل، كما يدلّ الاستقراء.))[2].

ولقد حاول بعض الدّارسين أن يعلل هذه الظاهرة، فذهب إلى القول: ((... إنّ الشاعر في حال اليأس والجزع، يتخيّر وزناً طويلاً كثير المقاطع، يصبّ فيه من أشجانه ما ينفّس عنه حزنه وجزعه.))[3].

وهذا أمر نستطيع أنْ نلمسه بوضوح فيما وصلنا من شعر ابن شرف الذي أكثر من النظم على هذه البحور الطويلة ذات السير البطئ؛ لما تتمتع به هذه البحور من قدرة على تحمّل همومه الثقيلة، ولتعبّر عن نفسه الحزينة المتعبة التي عانت من صنوف القهر، والإذلال، والغربة.

ولكنّ هذا لا يعني أنّ ابن شرف لم ينظم على البحور ذات الأوزان القصيرة المجزوءة، بل أنّ معظم مقطعاته القصيرة قد نظمها على البحور القصيرة المجزوءة[4]، إلاّ أنّه أكثر من النظم على البحور الطويلة بصورة عامة.

---

(1) الفصول والغايات، ص: ٢٦٦-٢٦٨.

(2) البناء الفني، ص: ٣٢٣.

(3) موسيقى الشعر، ص: ١٧٤.

(4) فنستطيع أن نجد مجزوء الرّجز في قوله: يا خائفاً من معشر .....، الذخيرة، ق٤م١/١٧٢. وفي قوله: هل لك في موزٍ إذا .....، البدائع، ص: ٢٤٠. وفي قوله: ضئيلة الجسم لها .....، شرح المقامات، ٥/٧١. ونستطيع أن نجد مجزوء الرمل في قوله: بين أجفانك سحر .....، الذخيرة، ق٤م١/٢١٥. وفي قوله: ما يقول الشيخ في شيء .....، شرح المقامات، ٥/٧١. ونستطيع أن نجد مجزوء الكامل في قوله: قالوا تصاهلت الحمير .....، الذخيرة، ق٤م١/٢٢٦. وفي قوله: ما أطفأت حمر الوقيد .....، نهاية الأرب، ١١/٣٣.

الصّور والأخيلة:

إذا كان الخيال هو: ((المَلَكَة التي يستطيع بها الأدباء، أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنّما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم، وتظل كامنة في مخيلتهم حتى يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدون.))[1]، بل هو الأداة اللازمة لإثارة العواطف وإشعالها، وهو الذي يملك به الشاعر أو الأديب نفس القارئ والسّامع ويجعلها تتعجّب وتطرب من مشاهد الصور في القصيدة.))[2]، فإنّ الصورة هي وسيلة من وسائل التعبير عن التجربة الشعرية، وحتى تحقق الصورة غايتها تلك فإنّها تتطلب تآلف الصور الجزئية في القصيدة ككل فيما بينها لتكوّن الصورة الكلية التي هي التجربة الشعرية، وتنقلها لنا نقلاً فنياً صادقاً واقعياً[3].

ويستطيع الدارس لشعر ابن شرف أن يلمح بوضوح ظاهرة ازدحام الصور الشعرية، واكتظاظها فيه، حيث اتخذ منَ الخيال والصّور الشعرية وسيلة له ليعبّر بها عمّا يعتمل في نفسه من عواطف، ومشاعر، وأفكار، فأخذ يعرض لنا الصور الأدبيّة الرّائعة، متكئاً في ذلك كله على أشكال البيان المعروفة: من تشبيه، واستعارة، وكناية، ومجاز، فالشعر من غير هذه الأمور يصبح كتلة جامدة، ذلك لأنّ هذه الصّور المجازية جزء ضروري من الطاقة التي تمدّ الشعر بالحياة[4]. ومن أجل هذا فقد أكثر ابن شرف من استخدام هذه الأنواع من التشبيهات والاستعارات، حتى أنه لا يكاد يخلو بيت من أبياته من تشبيه أو استعارة أو مجاز.

ولقد تعددت مصادر الصورة الشعرية عند شاعرنا، فقد تكون مأخوذة من بيئته الجميلة الخلابة ومن مظاهرها المختلفة، كما في قوله:

كأنّما الأغصانُ لمّا علا ... فُرُوعَهَا قَطرُ الندى نَثْرا
وَلاحَتِ الشمسُ عَلَيهَا ضُحَىً ... زَبَرْجَدٌ قد أثمرَ الدّرا[5]

---

[1] في النقد الأدبي، ص: ١٦٧.
[2] النقد العربي الحديث، ص: ٤٤.
[3] أنظر: المرجع نفسه، ص: ٤٤٣.
[4] أنظر: الشعر كيف نفهمه، ص: ٥٩.
[5] شفاء الغليل، ص:٢١.

وكما في قوله:

هيَ وردةٌ في خدّه وَبكأسها الـــد ... درّيّ مِنها عَسجَدٌ مَصبـــوبُ[1]

وكما في قوله:

كأنّ الجُلنّـــار أنـــامـــلٌ ... مطرّفةٌ مِن داميـــاتِ نِبّـــالِ[2]

وقد تكون الصورة عند شاعرنا مأخوذة من تغزله بـالمرأة وبمواطـن الجمـال والفتنـة فيهـا مستوحياً ذلك من طبيعة بلاده الجميلة الخلابة وما فيهـا مـن جمـال، فكثيـراً مـا كـان يشبّه وجـه محبوبته بالقمر، وطولها بالغصن، وأردافها بالكثبان، ومن ذلك قوله:

بيـــنَ أجفَـــانِكِ سِحْـــــرُ ... وَعلَـــى غُصــنِكِ بَـــــدرُ
وَمِنَ الكُثـبَـــان شَطـــــرُ ... لكِ والأغصـــانُ شَطـــرُ[3]

وكما في قوله:

مَربّى غُصنٌ عَليـــهِ قَمَـــرُ ... مُتَجلٍ نُـورُهُ لا يَنجَلـــــي[4]

وكما في قوله:

كأنّ ذُرى الرمّان غيدَ نَواهِـــدِ ... جَلاهُنّ في أعلى المِنَصّةِ جَالي[5]

وقد يستمد بعض صوره وتشبيهاته، من واقع النكبة المؤلمة التي تعرض لها وطنه القيروان، حيث كل يرى الأجسام بلا رؤوس، وهذا واضح من قوله في إحدى قصائده التي نظمها بعد هذه النكبة، حيثُ يقول:

يُخلي الديارَ مِنَ الجُسُومِ وَيَجتني ... ثَمرَ الرؤوسِ وَطَرْفَـةَ الأطـرافِ
فكأنّما الأجسامُ بَعْدَ رؤوسِهَـــا ... أبياتُ شِعرٍ مالَهنّ قَـــوَافِ[6]

---

(1) معجم الأدباء، ٣٩/١٩.

(2) مقامات السيوطي، ص:٣٦.

(3) الذخيرة، ق٤م٢١٥/١.

(4) الذخيرة، ق٤م٢١٨/١.

(5) مقامات السيوطي، ص:٣٦.

(6) الذخيرة، ق٤م٢٢١/١.

وبكل دقة يحاول ابن شرف أنْ يرسم لنا صورة مزعجة بشعة لأعداء وطنه الذين اغتصبوه وخرّبوه، فيراهم ثعابين مفترسة ذات انياب قاتلة، ويراهم شياطين مدججة بالرماح، فيقول:

فإذا القَفْرُ ضَمّهم فَوقَ الدّهـــــــ ... ـرُ لَهم غيرَ ذلكَ النَّبلِ نَبْـــــــلا
مِنْ ثعَابينَ حَاملينَ نُيُوبـــــــــاً ... عُصُلاً: ذَابـلاً، ونَبلاً، ونَصـــــلاً
وَشَيَاطينَ رامحينَ يُلاقُــــــــو ... نَ بجَونِ الفَلا مِسَاكينَ عُــــزْلا
فَتَرى للظهورِ تُعتلُ عَتْـــــــلاً ... وتَشقُّ البُطُونُ تُغسَلُ غَســـــلا[1]

ويرسم صورة أخرى لنفسه وأولاده بعد غربتهم اثر تلك الفاجعة المؤلمة، فيلتفت إلى صورة تلك المخلوقات الوديعة المسالمة عندما يداهمها الخطر، أو عندما تفقد أعشاشها، ليشبه نفسه وأولاده بها وهم في غربة، فيقول:

كأنّي وأفراخــي إذا الليلُ جَنّنــــا ... وباتَ الكرى يجفو جفونـا ويطرقُ
حَمَائمُ أضللنَ الوُكُورَ فضمّهـــــا ... تَجَانُسُها حتى تراءى المفـــرّقُ[2]

وقد تكون الصورة عند شاعرنا مستوحاة من ثقافته العربية والتاريخية الواسعة ومن ذلك قوله:

فَمَن بِسِواكَ بَاعَكَ فاغن عنـــــهُ ... كما استغنى عليٌّ عن عقيــلِ[3]

وقوله:

وَرَايْتُ الناس صَرْعى حولَـــــهُ ... فكأنّ اليومَ يومَ الجمـــــــلِ[4]

حيث استعان هنا ببعض الحوادث الاسلامية من مثل موقعة الجمل ليصور لنا جمال محبوبته الفتّان الذي يصرع الناس.

وقد يستمد بعض صوره من ثقافته اللغوية، وذلك كما في قوله:

---

(١) الذخيرة، ص:٢٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص:٢٣٣.
(٣) المصدر نفسه، ص:٢٢٥.
(٤) الخريدة، ق٤ج٢/٨٦.

وَلي مِنهما سَـهمَانِ هـذا ابـنُ أربـعٍ وهذا ابنُ ستٍ كلما كـانَ إغفـــاءُ
أضمهما والليلُ داجٍ كأنّمَــــــا هُما نُقطتا ياءٍ وجسمي هو اليـــاءُ

ومن حيوانات الأرض التي وصفها، وهوامها، ويبدو هذا واضح في شعره الذي وصف به قلم الكتابة، حيثُ يقول:

أشبَـــهَ الحيّة حتى أنّـــــــهُ كلّمـا عمّر في الأيدي قَصُــر.[1]

هذا ولقد كان القرآن الكريم من أهمّ المصادر التي اتكأ عليها ابن شرف فـي صوره التي رسمها لنا، ومن ذلك قوله:

فأنتَ عِندي مِنْهُمُ غُرفَةٌ بِيـــدي حلت وحُرّم باقي النّهرِ في الزُبُرِ[2]

وكما في قوله:

بَعْدَ يَومٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـــــــ ـقُ حُفاةً بِهِ عواري رَجلَـــــــى

ومما تقدم نستطيع أن نلاحظ أنّ شاعرنا قد استوحى معظم صوره من مصادر متعددة ومتنوعة، كان من أهمها البيئة المحيطة به؛ وما فيها من مظاهر مختلفة، وقد احتلت البيئة في صوره المرتبة الاولى، فعلى ما يبدو أنّه كان مفتوناً بها، وبما فيها من مواطن فتنة وجمال، وبما يحيط به من شجر، وثمر، وورود، ومواطن جمال، ومن تلك النكبة المؤلمة التي اصيب بها وطنه، ومما رآه من قتل، وتشريد، ودمار، ومن تغزله بالمرأة وما فيها من مواطن الجمال والفتنة، ومن ثقافته العربية والتاريخية الواسعة، ومن القرآن الكريم. الأمر الذي كشف لنا عن شخصية مثقفة ذات معرفة متنوعة، وعن خيال واسع محلق، وقريحة متفتحة تنمّ عن تفكير عميق، وذهن متفتح.

وثمة ظاهرة أخرى نستطيع أنْ نلاحظها في صوره التي رسمها لنا ألا وهي إكثاره من تشبيه الثمار، والخضار، والأزهار بالمعادن الثمينة كالزبرجد، والذهب، والياقوت، وغيره، وكأنه بهذا يريد أن يبرز لنا قيمتها الكبيرة الغالية، وجمالها الفتّان الذي ليس له حدود، ومن ذلك قوله في وصف بطيخة:

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٢٣.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص:٢٢٨.

مَا أطْفَأتْ جَمْرَ الوَقيـــ دِ لِمُشتكٍ وَقَداً ووهجا
كـإدواةٍ أكْرِيَـةٍ مملوءةٍ مـاءً وثَلجا
رتقاءَ لَمْ يَسلُك بِهـا غرْزُ الأشافي قطّ نَهْجَا
تزهو بِلَونِي خُضْرَةٍ هذا انتهى وأخوه لجّا
كَزمرّدٍ وزَبَرجَدٍ رَصّعْنَ للكافورِ دُرْجَا[1]

وقوله:

كأن جنى وَرْدٍ بِهِ جُمِعا مَعَاً عقيقٌ وَدُرٌّ في ترائبِ جالي[2]

وقوله:

كأنّ ثِمَار النّبقِ أنجُمُ عسجَدٍ بِغَيرِ سنا شمس ونود هِلالي[3]

ولم يكن شاعرنا ليكتفي بهذا، بل كان يحاول أن يبعث الحياة في صورته التي يرسمها، وكأنّه مصور حاذق ينقل لنا الحياة على لوحة أو في صورة بأدقّ تفصيلاتها وجزئياتها، فكان يكثر من ايراد الصور الحسية على اختلاف أنواعها: السمعية، والبصرية، واللمسية، والشمية، ومن ذلك قوله:

كأن ثِمَار الخَوخِ بيدي جُنُوبِها خُدودٌ مِنَ التَخميشِ ذَاتِ بَلالِ[4]

وقوله:

رَقِيقٌ في خَدَلَّجَةٍ رَدَاح خَفيفٍ مثل جسمٍ فيه روحُ[5]

وقوله:

تَرَى لِصفَاءِ جَوهَرِهَا نَوَاهَا كألسِنَةِ العصافيرِ الصغَار[6]

---

[1] نهاية الأرب، ٣٣/١١.
[2] مقامات السيوطي، ص:٣٦.
[3] المصدر نفسه، ص:٣٦.
[4] مقامات السيوطي، ص:٣٦.
[5] البدائع، ص:٢٤١.
[6] نهاية الأرب، ١٢٨/١١.

وقد يتفوق ابن شرف على المصور البارع في بعض الأحيان وخاصة، عندما يصور لنا الصدى، ذلك الصوت الذي لا هيئة له، فيقول:

زَعموا أنّ ابنَ آوى فيك يعوي والصدى بِذُراكَ يَصرُخُ كالحزينِ المُثكلِ[1]

وهنا تتجلى لنا براعة ابن شرف، ومقدرته على التشخيص والتصوير ايضا. ولقد اكثر من استخدام الكنايات في شعره، ومن ذلك قوله:

لَهَا عُنُقٌ قَد خَالَطَ الجَوّ تَحتَـــــه طِوالٌ لَهَا تَخطُو أمَامَ قِصـــارِ[2]

وقوله:

مَحمود عَيشٍ جَادَ لي دَهري بِـــهِ ثُمّ استردّ فكانَ فيه خَصيمـــــي[3]

وقوله:

فتضجُرُ مِنهُم أنفُسٌ ربّما بَكَـــتْ بُكا هو للصّمّ الجلاميدُ إبكـــاءُ[4]

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/٢٣٣.

[2] نهاية الأرب، ٩/٣٢١.

[3] الذخيرة، ق٤م١/٢١٧.

[4] المصدر نفسه، ص:٢١٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

نثره

أولاً: أغراضه.

ثانياً: خصائصه الفنية.

أغراضه في النثر

لقد طرق ابن شرف في نثره الذي وصلنا معظم الأغراض النثرية التي كانت شائعة في عصره من مديح، وهجاء، ووصف، وحكمة، ورسائل إخوانية، وشفاعات، ومقامات نقدية وأدبية، فتجلت لنا من خلال ذلك موهبته الفنية ومقدرته على معالجة النثر معالجة فنية لا تقل في حالة من الأحوال عن معالجته للشعر، وفي هذا يقول ابن بسّام في مستهل ترجمته له: ((كان أبو عبدالله بن شرف بالقيروان من فرسان هذا الشان، وأحد من نظم قلائد الآداب، وجمع أشتات الصّواب، وتلاعب بالمنظوم، والموزون تلاعب الرّياح بأعطاف الغصون.))[1].

المديح:

يقتصر مدح ابن شرف في النثر على مدح الأمراء والوزراء، وإذا ما نظرنا في مقطّعاته النّثريّة الّتي توافرت لنا فإننا نجده قد خصّ في بعضها باديس بن حبّوس صاحب غرناطة في عهده، فأخذ يتغنّى بصفاته ومناقبه الحميدة الممثلة بالكرم، والحزم، وقوّة البأس، ومضاء العَزيمة، وسداد الرأي، فيقول: ((... حتّى سافرت إلينا رفاق الأخبار بشهادات زكّاها مرور الأيّام، ودؤوب الدّوام، تشهد بسؤدد بأن عن السؤدد العصامي[2] وحزم فاق الحزم الهشامّي وجود جاوز الجود[3] الكعبيّ[4]، وبأس أنسى البأس المصعبيّ[5].))[6].

---

[1] الذّخيرة، ق٤ م١/١٦٩-١٧٠.

[2] وهو: عصام بن شَهْبَر بن الحارث الجَرْميّ، حاجب النّعمان بن المنذر، كان شاعراً شجاعاً، ضرب المثل به. أُنظر: العقد، ٢٨٩/٣، مجمع الأمثال، ٣٣١/٢، الأعلام، ٢٦/٥-٢٧.

[3] وهو: هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، د (ت،٨٧هـ) من أعيان المدينه وقد وليها، وكانت بنته زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان. أُنظر: الكامل في التاريخ، ٥٢٦/٤، نسب قريش، ص: ٤٧-٤٩.

[4] وهو: كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الأيادي، كريم جاهلي. يضرب به المثل في حسن الجود، فيقال: ((أجود من كعب بن مامة.)). أُنظر: الشّعر والشعراء، ٢٣٧/١، ومجمع الأمثال، ١٨٣/١، أمثال العرب، ص:٦١-٦٢، والأعلام، ٨٥/٦-٨٦.

[5] وهو: مصعب بن الزّبير بن العَوام بن خويلد الأسديّ القرشيّ، أبو عبدالله، أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، (ت،٧١هـ). أُنظر: تاريخ بغداد، ١١٢/١٣، الأعلام، ١٤٩/٨.

[6] الذّخيرة، ق٤ م١/١٧٧.

وهكذا نستطيع أنّ نلاحظ أنّ الصّفات الّتي يسبغها ابن شرف على ممدوحه، إنّما هي صفات تقليديّة أسبغها الأدباء والشعراء على ممدوحيهم في الشعر والنّثر على حد سواء، إلاّ أنّ كاتبنا كما نرى يبالغ في إثبات هذه الصّفات، فيجعل ممدوحه يفوق مَنْ عُرِفُوا بهذه الصّفات من قبل.

هذا ويشير ابن شرف إلى أنّ ابن حبوّس هذا صاحب علم واسع، وإلى أنّه متعلّق بطلب العلم والأدب تعلقاً عظيماً، فهو أمير قد سخّر ماله وثروته لذلك: ((...مُغْرَىً بالأدب المهجور بل المطرود، سالياً عن المال المعشوق بل المعبود، منفقاً للحمد الدّفين المرسوس إلى صنوف من الفضائل، وأنواع من الجلائل، لا يحيط بها الوصف، ولا يجمعها الرّصف.))[1].

وهذه المقطوعة النّثريّة تكشف لنا عن نظرة مجتمعه إلى المال، وعن مدى إهتمام حكّام الأندلس وملوكها بالعلم والثّقافة.

وليس هذا فحسب بل إنّ ممدوحه متفرّد في النّاس بلا شبه فيهم في صفاته، وأفعاله، وأخلاقه، وعلمه، وهذا واضح في قوله في ابن حبّوس: ((... فعاينت عالَماً في عالم. قد شركوه في النسبة إلى آدم، وأنفرد من مناسبتهم، وشذّ عن مجانستهم بجميل طرائق، وحميد خلائق، إنفردت إنفراد سهيل[2]، وجمعت في المرأي والمسمع ما زاد على زيد الخيل[3].))[4].

ولمّا كان الهدف من هذه المدائح هو التكسبّ فإنّ صفة العطاء الجزيل، والكرم الّذي لا طائل له من الصّفات الّتي استوقفت كاتبنا ليثبتها لممدوحيه، ومن ذلك قوله: ((هرم الجود على العلاّت والوجود. كفّه غيث، لا يبالي من حيث ماله، أكثر جوده على جنوده.))[5].

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٧٨.

[2] سهيل نجم في السماء، قيل عند طلوعه تنضج الفواكه، وينقضي القيظ، وهو من النجوم اليمانيّة. أُنظر: اللسان، مادة: (سهيل)، والمعجم الوسيط، ٤٦١/٢.

[3] وهو: زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد رضى بن المختلس ابن ثوب بن كنانة بن غوث، من طّيء، جاهلّي أدرك الإسلام، ووفد على النبّي (صلى اللّه عليه وسلم) وسمّاه زيد الخير، كان فارساً، مغواراً مظفّراً، شجاعاً، وهو مقلّ مخضرم. أُنظر: جمهرة أنساب العرب، ص: ٤٠٣، وثمار القلوب، ص:٧٨، والشعر والشعراء، ٢٨٦/١، والأغاني، ١٧٢/١٧.

[4] الذّخيرة، ق٤ م١/١٧٧-١٧٨.

[5] المصدر نفسه، ص: ١٨٥.

وكاتب مثل كاتبنا واسع الثّقافة، كثير الإطلاع عندما يتحدّث عن كرم ممدوحه وجوده فإنّه لا ينسى أنْ يلتفت إلى أجود العرب وأكرمهم حاتم الطّائي، وكعب بن مامة، ليشبّه ممدوحه بهما، بل ليفضّله عليهما، ومن ذلك قوله: ((...لذّاته في الاكثار والايثار، والأخذ بالثأر، يزيح الأغلال، ويبلّغ الأمال، يحدّث بمكارمه الرّكب، وينسى بفرط سماحه حاتم وكعب.))[1].

ومن الصّفات الّتي أثبتها ابن شرف لممدوحيه السّماحة والعلم، ومن ذلك قوله: ((أمير يأمره حلمه فيطع، ويحمّله ما لا يستطيع فيستطيع: كم أعطي الظّفر فغضر، وجرّع الصّبر فصبر. له حلم معاوية على الأعداء العادية. له ثبات يلملم[2]، وتحنّك الجذع الأزلم[3]. قلبه قليب واسع، وغوره بعيد شاسع.))[4].

ولمّا كانت طهارة العرض ونقاؤه من الأمور الّتي تشغل بال الإنسات العربيّ وتهمه، فإنّ كاتبنا لن ينسى أنْ يذكّر ممدوحه بطهارة عرضه وعراقة أصله وحسبه، ومن ذلك قوله مخاطباً الوزير ابن زيدون في إحدى رسائله، حيث يقول: ((...فللوزير الأجل علوّ الرّأي في قبول ما عرضه وليّه المدلّ على أكرامه ومكارم أخلاقه، بما ينمّ عليه من طيب أعراقه.))[5].

وهذه الصّفات الّتي يسبغها ابن شرف على ممدوحيه، تعكس لنا نظرة المجتمع الّذي عاش فيه إلى الصّورة الّتي ينبغي أنْ يكون عليها الممدوح، مثلما تكشف لنا عن سعة اطلاع وثقافة واسعة.

مجتمع ابن شرف من خلال رسائله:

أشرنا فيما تقدم إلى أنّ ابن شرف قد عاش في أُخريات حياته ببلاد الأندلس حيث دول الطّوائف بعد خراب موطنه القيروان، وإلى أنّه قد تنقّل ما بين هذه الدّول، وطوّف على ملوكها وحكّامها الّذين عاصروه في تلك الفترة، فلم يترك ملكاً من ملوك الطّوائف إلاّ وقد أتصل به، ونال رفده، فمكنه هذا التجوال وهذا التطواف من الإتصال بحكّام مختلفين، ووزراء كثيرين،

---

(1) الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٥.

(2) اليلملم: الجيش الكثير المجتمع. أُنظر: اللسان، مادة (لَمَمَ).

(3) الجذع الأزلم: الداهية المجرّب. أنظر: اللسّان، مادة (جَذَعَ).

(4) الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٦.

(5) المصدر نفسه، ص: ١٧٣.

وبغيرهم من القائمين على شؤون الدّولة والحكم على أختلاف طبقاتهم ومناصبهم، ويسّر له أنْ يتعرّف إلى أسرار هذه الطّبقات وخفاياها عن كثب.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ ابن شرف عندما دخل الأندلس وجدها ممزّقة إلى دويلات متعددة ونيران الفتن فيها تتأجج وتتسع، ووجد الحكّام فيها يتربصّ كلّ واحد منهم بأخيه، ليطيح به، ويتمنّى زواله متناسياً ما يربطه به من دم ودين، بل إنَّ الواحد منهم كان يستعين على أخيه بأعداء الدّين والوطن، ورأى المدن الأندلسية تتهاوى وتسقط في أيدي الأعداء الواحدة تلو الأخرى، وحكامها مشغولون بملذّاتهم ومشاكلهم الدّاخلية وبتناحرهم فيما بينهم، وكأنَّ الأمر لا يعنيهم من قريب أو من بعيد، ورأى الأوضاع السّياسيّة، والعسكريّة، والقضائية قد فسدت، لأنّها لم تعد تسند لمن يستحقّونها، فأثر فيه هذا الوقع المؤلم، وعزّ عليه أنْ تؤول بلاد الأندلس لما آلت اليه بلاده، ولا سيّما وأنه قد ذاق مرارة النكبة التي مُنِيَ بها وطنه، ولسعته مرارة التشرّد وسقوط الوطن، وآلمه أنْ تتكرر تلك المأساة الّتي عصفت بوطنه، وشردّت أهلّه.

ومن أجل ذلك فقد وقف ابن شرف من المجتمع الأندلسي موقف النّاقد البصير الذّي لا تفوته دقائق الأمور، وأخذ يعّرض بطبقاته، وبمن يشرفون على تدبير أُموره، مُحذّراً أيّاهم من مغبة ما هم فيه، راسماًلَهُم الصورة المثالية الحقة الّتي ينبغي أنْ يكونوا عليها من أجل النهوض بوطنهم، وحمايته من كل خطر يتربّص به.

فتوقف أول ما توقف عند الحكّام ولأُمراء، وصوّرهم لنا منشغلين عن أعداء الدّين والوطن الّذين يتربصّون بهم وبوطنهم بالملذّات والمظاهر البرّاقة، وبانتحال ضروب التفخيم والأبهة، وبناء القصور والمنتزهات، فيقول: ((همّه جواز يومه، وحلاوة نومه، أعلى هّمه، أرجال جمته[1]، وإعتدال همّته، وأسر سروره، تناهي قدوره، وترويق خموره. أعداؤه سمان في أمان، أولياؤه في هزال، وأنتظار النّكال. حسن الظّنّ بالزّمان، وضروب الحدثان، رائع القرائح ساكن الجوارح.))[2].

ويشير إلى أنَّ الغرور والانشغال بالملذّات والملاهي، قد دفع بهم إلى الإهتمام بالعبيد والعناية بهم أكثر من عنايتهم بالجيش، محذّراً إيّاهم من مغبّة هذا الغرور، وهذا التعامي، فيقول: ((...

---

[1] الجمّة: مجتمع شَعْر الرّأس. أُنظر: اللّسان، مادة ((جَمَمَ)).

[2] الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٩.

مسرور مغرور ثاني العطف عن النّاصح، متعام عن الأمر الواضح. مستغن بعبده عن جنده، متشاغل بالأنياب الطّاحنة في فمه عن الأنياب الوالغة في دمه، ينام عن مسهرات الأنام، وعن جبّ الغارب والسّنام. فكرته ساهية، وخواطره لاهية، وقواعده واهية، حتى تبغته الدّاهية.))[1].

ويمضي ابن شرف في تعريضه بالحكّام والأمراء متهماً إيّاهم بعدم العدل بين أفراد الرّعية فيقول: ((سلطان يشتري بدينه ودمه رضى ابن عمّه خاسر التجر، محروم الأجر، لا يساوي بين أهل القبلة وهم سواء، ولا يتكافأ عنده المسلمون وهم عند اللّه أكفاء.))[2].

ويشير إلى أنّهم قد عملوا على إثارة العصبيّات القبليّة، فخالفوا تعاليم الإسلام، وساعدوا على خراب الأوطان وضياعها، فيقول: ((... وجبلّة التفاوت أفاتت جبلّة الرّشد، وحميّته أحمت عليه دار الخلد. تعصّب جاشت له صدور الجيس، وتكدّر به صفاء العيش، وللمساعدة في العصبيّة طارَت الرّؤوس والسّواعد وتهدّمت الذّرى والقواعد.))[3].

وكاتب واسع الثقافة مثل ابن شرف عندما يتحدّث عن العصبية والتعصب لا بدّ وأنْ يلتفت إلى ثقافته العربيّة والتاريخيّة الواسعة؛ ليتحدّث عن أبي نواس ذلك المولى الذّي تعصّب لليمن ضد مضر، وهو من مواليها، فيقول: ((أضرمها على الأنام على قديم الأيّام، العصبيّة في الجاهليّة والاسلام، فما لهذا السلطان وخراب الأوطان، والعصبية تفسد بين الأولياء وتكثر في الأدعياء. وأبو نواس[4] كان أشدّهم فيها قولاً، وهو قنّ[5] مولى، تعصّب لليمن على مضر لكون سعد العشيرة[6] من اليمن، وهم من مواليه، فهجا قبائل مضر، وعضّ من قريش، هذا مولىً مُلْصَق، وليست سعد العشيرة له بعشيرة، بل لها منه الجريرة.))[7].

---

[1] الذخيرة، ص: ١٨٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٩١.

[3] الذخيرة، ق٤م١/١٩١.

[4] وهو: الحسن بن هانيء مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن. أُنظر: الشعر والشعراء، ٢/٧٩٦.

[5] القن: العبد الخالص العبودية. أُنظر: اللّسان، مادة: ((قين)).

[6] وهو: سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن يشجب بن عُرَيْب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ... ومنهم الجرّاح بن عبداللّه بن هادرة بن أفلح بن الحارث بن مظّة، وأسمه سفيان بن الحكم بن سعد العشيرة ولي خرسان، وكان أبو نواس الشّاعر مولى الجرّاح هذا: أُنظر: جمهرة أنساب العرب، ص:٤٠٨.

[7] الذّخيرة، ق٤ م١/١٩١.

وهذه المقطّعات النثريّة تكشف لنا عن سعة ثقافة كاتبنا، وعن معرفته بأنساب العرب مثلما تكشف لنا من جانب آخر عن موقف ابن شرف من بعض العادات الإجتماعية الذّميمة الّتي كانت في مجتمعه من مثل: العصبيّة القبليّة الّتي تقطّع اواصر الأخوة والمحبّة بين أفراد المجتمع، وتثير النّعرات والأحقاد.

ويتوقّف عند طبقة الوزراء، فيشير إلى أنّ هذا المنصب أصبح مجرّد لقب يطلق على الّذين سخّروا أنفسهم للسعي وراء الملذّات واللّهو، بدلاً من الإهتمام بشؤون الدّولة والرّعية والسّهر على أمنها وسلامتها، فيقول: ((قد يتسمّى بوزير من شغله البَم والزّيْر[1]، يعجبه اللّهو، ويغلبه السّهو. دمار من أوى إليه، وبوار من عوّل عليه، إنْ دبّر أدبر، وإنْ ترك هلك، خِدْنُ لواعب، وزير كواعب، ليله ناعس، ونهاره بالس[2]، لم يعلق من الوزارة إلاّ حسن الشّارة، وركوب الهماليج[3] المسيارة، وشدّة الإعجاب، والدّخول على سلطانه بلا حجاب، والأكل ملء فيه، هذا جميع ما فيه.))[4].

هذا ويؤكّد ابن شرف أنّ هذا الصّنْفَ من الوزراء سيقود الرّعية إلى الهلاك والدّمار؛ ذلك لأنّه لا يعتمد عليه في تدبير الأمور، وتصريفها، فيقول: ((... حتّى إذا طرقت السّرايا، ونفر النافر، وضجّ البادي والحاضر، ونزع ثقات الأجناد، فتفرّقوا في البلاد، فُزِعَ إلى الوزير في وجه التدبير، فكان جوابه دموعه، وصوابه هلوعه، فحينئذ دارت الدّائرة، وأضطرمت النّائرة، وإنصرفت الدّول، وتبدّلت الحلل.))[5].

ويتعرّض لطبقة القيادة، فيشير إلى أنّ هذه المهمّة الخَطِرَة لم تعد تسند إلى مَنْ هم أهل لها من الأبطال الصّناديد الشجّعان الّذينَ يدافعون عن الوطن، ويجنبونه كلّ خطر قد يلم به إنّما أصبحت تسند لِمَنْ إتخذوا منْها وسيلة للجاه والسّلطان، لا لشيء إلاّ لأنهّم من خاصّة السّلطان وأقربائه، هذا واضح في قوله: ((هو يوم المطاعنة، ولد الملاعنة، لا حسب يقاتل عنه، ولا نسب

---

(1) البَم: الوتر الغليظ من أوتار العود. وأمّا الزير: الذي يكثر من زيارة النساء، ويحب مجالستهن ومحادثتهن، أُنظر:(اللّسان: بمم، وزير).

(2) بالس: ساكت. أُنظر: اللّسان، مادة: ((بلس)).

(3) الهماليج: المركبة أو الدّابة السّريعة. أُنظر: اللّسان، مادة ((هملج)).

(4) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩١-١٩٢.

(5) المصدر نفسه، ص: ١٩٢.

يستحي منه، يراعه ترعد، وتقوم وتقعد، إذا الحرب دعت أبطالها، وزلزلت الأحشاء زلزالها، نخب ما بين جنبيه، وغاب السّواد من عينيه. مهزمة لجنوده، ومهدّة لعدّته وعديده، يوّسع أعذار الفرار، ولا يرى على الجبناء من عار، بيناه في أوّل الرّعيل ضارب إذا به وراء السّاقة هارب، يزحف عند الزّحف إلى خلف، ويروعه الواحد، وهو في ألف، لو كان سور مدينة لسار.))[1].

وكثيراً ما كان ابن شرف يستغلّ ثقافته الواسعة ليصوّر لنا جُبْن منْ يتحدّث عنه وهذا واضحٌ في قوله: ((... إنّ هذا في الحرب مِنْ بني العنبر[2]، وأدهش مِنْ مستطعم الماء على المنبر[3]. إذا ثار القتام، سقط مِنْ كفّه الحسام.))[4].

ويعرّض بالقضاة فيصفهم بالظّلم، والإنحلال، والرّشوة، فيقول: ((ولايته القضاء، من سوء القضاء، جائر حائر، إنْ جار فعن تعمّد، وإنْ حار فعن قلّة تعهد. ليله منتش ونهاره مرتش.))[5].

ويشير إلى أنّهم قد تخفّفوا بأمور الدّين، وانحرفوا سعياً وراء الملذّات والملاّهي، فحملهم ذلك إلى السّخرية والإستهزاء بالفقهاء الّذينَ عاصروهم، فيقول: ((... تُعْجِبه العين في النّقاب، ولا يفكر في العقاب، إذا رأى الأمرد تمرّد على خصمه، ومال عليه بحكمه، يُزري بإختيار سلطانه، ويستخفّ بفقهاء زمانه. يجوز في نظره المقسوم، ويبصق في وجه الخصوم، ويركلهم برجله ويلطمهم بنعله.))[6].

وفي هذه المقطوعة النّثرية نلمس مقدرة ابن شرف على التشخيص والتصوير الساخر، كما نستطيع أنْ نلمس فساد الأوضاع الاجتماعية والقضائية في ذلك العصر.

---

(1) الذخيرة، ص: ١٩٠.

(2) أنظر الخبر في الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٠.

(3) وهو: خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبدالله بن عبد شمس بن جرير القسري، عامل هشام بن عبد الملك على العراق، دهش يوم الجمعة في حرب الخوارج، وهو على المنبر، فقال: ((أطعموني ماء)) أنظر: الذّخيرة، ق٤ م١/١٩١، والأغاني، ٢٢/٥.

(4) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٠.

(5) المصدر نفسه، ص:١٩٣.

(6) الذخيرة، ق٤م١/١٩٣.

ويتوقّف عند الكتّاب فيشير إلى جهلهم بأمور الكتابة والبلاغة، فيقول: ((كاتب ما عرف قط، كيف البَريَةَ والقُط، ولا نسخ قط سطراً إلاّ مسخ منه شطراً.))[1].

ويأخذ عليهم جهلهم بقواعد اللّغة، وبأساليب البيان العربي، ويسخر منهم ومن كتاباتهم، فيقول: ((ألفاظه ملحونة، ومعانيه ملقونة، ومقاصده خفيّة مكنونة، وحروفه مطمونة. إنْ تهجّى هجا، وإنْ تكلم شج وشجى، ألفاته سجود، ولاماته رقود، وميماته عقد لا عقود، وقافاته واوات، ونوناته راءات، يرفع بالنّواصب، ويكثر من النّقط الكواذب، ويعمي عين المعنى الجليّ، ويخاطب العدوّ مخاطبة الوليّ. وتقرّ كتبه بما فيها من الفساد، بأنّه قرّة عيون الأعداء والحسّاد.))[2].

وأمّا الأصدقاء والإخوان فلم يكونوا أكثر حظّاً مِنَ الّذيَن سبقوهم لدى كاتبنا، فهم في نظره يتصفون بالخيانة والغدر، ولا خير يرتجى منهم، لأنّهم يتصفون بالخذلان، وهذا واضح في قوله: ((إخوان أخون من السّراب للعين ومن أهل الكوفة للحسين، وأشدّ من طالب دين على صفر البدين، ليس فيهم نفع ولا دفع، إنْ إستنصرتهم خذلوك، وإن سئلوا اسلامك بذلوك.))[3].

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف في ذَمّه هذا لا يعّرض بشخص معيّن، فيطلق للسانه العنان كي ينال منه وينهشه، إنّما يتخذ -كما يبدو لي- من بعض أصحاب هذه الطبقات الّتي يعرّض بها مثالاً ليدل به على فساد وانحراف تلك الطبقة التي ينتمي إليها، ومن أجل هذا فقد رأيناه يقف من طبقات المجتمع الّذي يعيش فيه موقف النّاقد الإجتماعيّ البصير الّذي يعرف دقائق الأمور، وخفايا الأشياء عن الطبقات والمناصب الّتي يعرّض بها، فكشف لنا بذلك عن العيوب والمفاسد الّتي كان مجتمعه في ذلك الوقت يعج بها من جرّاء وجود هذه العناصر الشّاذة المنحرفة الّتي كانت تقف في طريق وحدة المجتمع والنّهوض به.

ولكنّ ابن شرف لم يكن ليكتفي برسم الصورة السلبية لأصحاب تلك الطبّقات والمناصب الّتي يعرّض بها، وباظهار عيوبها ومساوئها، إنما حاول أنْ يرسم الصّورة الإيجابية الّتي ينبغي أنْ يكون عليها أصحاب تلك الطبقات مِنْ حكّام، ووزراء، وقوّاد، وقضاة، وغيرهم من أصحاب

---

[1] الذخيرة، ص ١٩٢.

[2] المصدر نفسه، المكان نفسه.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٩٣.

المناصب الهامة في المجتمع، مستمداً تلك الصورة من تعاليم الإسلام السمحة، ومن سير الحكّام والصّالحين، ومن ثقافته العربية والدينيّة الواسعة.

فهو يريد من الحاكم أنْ يكون حازماً، مقداماً، شجاعاً، كريماً، غير مستبد في رأيه، ساهراً على مصلحة الرّعية والوطن، وهذا واضح في قوله: ((يقدّم الحزم، ويثني بالعزم، يواكب الكواكب، ويتعقب العواقب، يشاورذوي الألباب، على أنّ رأيه لباب، يثب وثوب اللّيث، ويتدفّق دفوق الغيث، ويراوح بين العجل والرّيث. نومه غرار وإضطرار، وحاجاته سرار ثم إقتدار. لا تثبطه الظّلل، ولا تطبيه الكِلَل ولا يثنيه الكلال، عزمه فرسه، بصيرته بصره. وصدره ورده وصدره.))[1].

وأما الوزير فينبغي أنْ يكون عوناً للحاكم في تصريف شؤون الدّولة وتدبيرها هذا إلى جانب نشاطه وحيويته، وحسن إدارته وتدبيره، فيقول: ((وزير ينيم أميره، مستوطناً سريره، متحرّكً وهو قارّ، ويرى جالساً وهو مارّ، كالنّجم يرى وهو ساكن، وقد تحرّكت به أماكن.))[2].

وأمّا القائد فيجب أنْ تتوافر له جلّ صفات القائد الحقّة من شجاعة، وإقدام، وثبات في ساحة الوغى، يتقدّم إلى أعدائه بكل عزيمة وجأش، غير هيّاب، ولا خوّاف، وهذا واضح في قوله: ((قائد عليه عبء التعويل في أول الرّعيل إذا الصبر عيل، لا يباح ما حمى ولا يُثْنوي[3] إذا رمى. عود إذا زحف، وطود إذا وقف، وسيل إذا حمل، وكتيبة إذا اعتزل. حسامه امام يهدي في ظلمة القتام، ويهتدي إلى مسالك الحمام. لا تردعه لامعة السّيوف، ولا تفزعه مصارعة الحتوف، رماحه نجوم ظلام القتام، ونجومه رجوم شياطين الأنام، لا تُرَدّ حاجات مواضيه، ولا تمطلُه عند تقاضيه المغافر المتينة، ولا الدّروع الموضُونة[4].))[5].

ويريد من القاضي أنْ يكون عادلاً في حُكْمِه بين النّاس منصفاً، نزيهاً، يتحرّى الحقيقة ويسعى وراءها، ليوصلها إلى أصحابها، متريّثاً في أحكامه، فيقول: ((قاض يشهدله عدله أنّ غلّه

---

[1] الذخيرة، ق٤م١/١٨٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٨٦.

[3] يصيب المقتل إذا رمى، أُنظر: القاموس المحيط، ٢٢٢/٤.

[4] الدروع المقاربة النّسج، أو المنسوجة حلقتين حلقتين بالجواهر. أُنظر: القاموس المحيط، ٢٧٨/٤.

[5] الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٦-١٨٧.

سريع حله. يقسم نظره بالقسطاس بين جميع النّاس، حفظ رسالة عمر[1]، وعمل فيها بما نهى وأمر. لا يبيع القضايا بالهدايا، به عشا من الرّشا. ينام الخصمان، وهو يقظان. إنْ عجّل فعن إستدلال، وإنْ عجز فلتأمّل أشكال.)).

ويطلب من الكاتب أنْ يكون فصيحاً، بليغاً، عالماً بمواطن الجمال والتأثير، ملتزماً بقضايا أمته ودولته، فيقول: ((كاتب فضله راتب[2]، وحقه واجب. أقلامه رماح، ورسائله صِفاح، وألفاظه فِصاح، وأخلاقه فِساح. إنْ قرطس أصاب، وإنْ سئل أجاب، وأصاب عين الصّواب، لسانه لسان الملك ومكانه واسطة السّلك.))[3].

وهذا يكشف لنا عن مدى تأثره ببيئته الخاصّة، وبثقافة عصره، إذْ عمل كاتباً في ديوان المراسلات في دولة المعزّ بن باديس كما تقدّم.

وهكذا فقد رسم لنا ابن شرف الصّورة الإيجابية المثلى الّتي يجدر بأصحاب هذه المناصب والطبقات، لا سيّما بعد أنْ رأى إنقلاب الأوضاع، وتغيّر القيم، وتفرّق الأُمّة وإختلافها، والعدوّ على أبوابها يتربّص بها، ويتحيّن الفرصة المواتية للإطاحة بها، فأراد أنْ ينبّه الحكام والنّاس لما هم فيه، ويحذرهم من مغبّة هذا الإنقسام، وهذا الخلاف، وكأنّي به بعد أنْ رأى مجتمعه يعجّ بالفساد، والإنحلال، والتفرقّ، والتناحر، يريد أنْ يقول: إنّ الأمة بحاجة ماسّة وملحّة لوجود مثل هؤلاء الحكّام والوزراء، والقادة، والكتّاب، والقضاة، ليعيدوا لها عزّتها، ومجدها، وكرامتها، ويعملوا على تخليصها مما تعاني منه، متناسين شهواتهم الخاصّة، وهمومهم الذّاتية وهو في كل ذلك يريد لمجتمعه أنْ يكون قويّاً، متحابّاً، متآخياً، يسوده العدل، المساواة، تجمعه كلمة واحدة، وراية واحدة، يأتمر بأمرة رجل واحد يسعى به إلى المجد والخير.

وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ ابن شرف كان صاحب موقف من المجتمع الّذي يعيش فيه، ومن القضايا الّتي تستجد به، وأنّه لم يعش بمعزل عنه، وعن قضاياه، ولكنّه لم

---

[1] وهي الرّسالة الّتي بعث بها عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريّ في القضاء. أُنظر: البيان والتبيين، ٤٨/٢-٤٩.

[2] الرّاتب: الثابت الدّائم، أُنظر اللّسان، مادة (رتب).

[3] الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٦.

يكن سوداوياً في نظرته إلى مجتمعه الّذي يعيش فيه متشائماً من صلاحه، بل كان يرى فيه الخير كلّ الخير إذا ما طبق تعاليم الإسلام، وتخلّص من عوامل التفرقة والضعف.

على أنّنا نستطيع أنْ نقول: إنّ ابن شرف في تعريضه هذا بطبقات المجتمع قد كشف لنا عن بعض المساوىء والعيوب الّتي كان يعاني منها مجتمعه على مختلف مناحيه السّياسيّة، والعسكريّة، والقضائيّة، والثقافيّة... الخ.

الوصف:

وأمّا الوصف فإننا نستطيع أنْ نجده في معظم الأغراض النّثريّة الّتي طرقها ابن شرف، نجده في رسائله، ومقاماته، ومقطّعاته النّثريّة الّتي أنشأها في المديح، والهجاء، وغيرهما من الموضوعات الّتي ترجع في معظمها إلى هذا الفن النّثريّ الّذي تجلّت فيه مقدرة ابن شرف وبراعته في التشخيص والتّصوير، ومن أجل ذلك فقد احتل الوصف في نثره المرتبة الأولى من بين الأغراض النّثريّة الّتي طرقها.

ولقد تعدّدت موضوعات الوصف في نثره، وتنوّعت ما بين وصف الإنسان كما رأينا في حديثه عن طبقات المجتمع حيث صوّر لنا الأمراء والوزراء، والقضاة والقواد، وغيرهم من طبقات المجتمع الأخرى، ووصف الحيوان ومن ذلك وصفه للبرغوث ذلك الحيوان الحقير، الصّغير الّذي يكثر أذاه وإزعاجه أكثر ما يكثر حين يشتدّ هطول المطر، وهذا واضح في قوله: ((أذى البراغيث إذا البَرا[1] غِيْثَ[2] برا عليل برانا، وانثرى فقير ثرانا. وتاريخ ذلك أنصرام ناجر[3]، بحمارة احمرّت لها خضرة السماء، واغبرّت مرآة الماء.))[4]. ووصف السّجن فصوّره لنا داعياً للهموم والأحزان مُجلّياً لها، ويشير إلى أنّ الموت أهون من عذاب السّجن، وقهره، فيقول: ((... فالحبس نزّاع الأرواح، الغفلة أخت القِتْلَة، وكلاهما معتد ومهر للخطوب ونقد، وإنّما بينهما نَفَسٌ متصاعد، وأجل متباعد، فألْحِقْ منهما ما أجلّت بما عجلّت، وقد أخرنا طلب الدّين إلى يوم الدّين.))[5]. وهذا

---

[1] البرا: التراب، المعجم الوسيط، ٥٣/١.

[2] غيث: أصابه الغيث. أُنظر: اللّسان، مادة: ((غيث)).

[3] ناجر: كلّ شهر في صميم الحرّ. أُنظر: القاموس المحيط، ١٤٤/٢.

[4] الخريدة، ق٤ ح١١٠/٢.

[5] المصدر نفسه، ص: ١١٢-١١٣.

يكشف لنا عن نظـرة كاتبنـا إلـى السّجن، وعـن حبّـه للحريّـة، وتعلّقـه بهـا. ووصـف مجـالس اللّهـو والطّرب ومن ذلك وصفه لمجلس لهو كان قد حضره ليلاً مع بعض النّدماء ليكون بعيداً عن أعين الرّقباء، حيث لعبت آلات الطّرب دورها في تشنيف آذان الحاضرين، وامتعتهم بألحانها الخلاّبة الساحرة حتّى سكروا، وفي هذا يقول: ((لمّا فني عمر الأُنس، وطفيء سراج الشّمس، لاحت بروق الثغور اللوامع، وجلجلت وعود الأوتار في المسامع، وبعثت مخارق[1] وابن جامع[2]، فلم يزل ذلك دابنا، ما أقلع سحابنا حتّى متنا بالهجعة[3]، وكلّنا يقول بالرّجعة[4].))[5].

ويصف لنا مجلساً آخر شهده مع بعض النّدماء، فيشير إلى أنّهم قد شربوا حتّى إمتلأت بطونهم، ليطفئوا حرّ الصّيف الشديد، في ليلة إشتدّ مطرها، فيقول: ((شربنا وقد سحبت أذيال السّحب، وضمّخت ترائب الترب، وبكت عين المزن من غير حزن، مطلنا القيظ[6] بالرّاح[7] إلى برد الرّواح، وعجّلنا بالمصير إلى الليل القصير، فسألنا عزيم النّوم النّظرة إلى اليوم، فأجابنا ولم يهتك حجابنا.))[8].

ولقد كان ابن شرف يتلذّذ بشرب الخمرة أكثر ما يتلذّذ عندما يهطل المطر، وهذا واضح في قوله: ((... إذا إنحلّت عُقَد السّماء إنتظم عِقْدُ النُّدماء.))[9].

---

(1) وهو: أبو المهنا مخارق بن يحيى بن ناووس الجّزاز، مولى هارون الرّشيد، من أشهر المغنين في الدّولة العبّاسية. إشتراه إبراهيم الموصليّ، ولقنه الغناء والموسيقى، وأهداه إلى الفضل بن يحيى، فأخذه منه هارون الرشيد وأعتقه. أُنظر: الأغاني، ١٨/٢٥٣.

(2) وهو: أبو القاسم إسماعيل بن جامع بن عبدالله بن المطلب، كان من حفظة القرآن وترتيله، إشتغل بالغناء، وكان إبراهيم بن المهدي لا يقّدم عليهأحداً، غنّى الخليفة هارون الرّشيد. أُنظر: ترجمته وأخباره في الأغاني، ٦/٢٧٣، البداية والنهاية، ١٠/٢٠٧، والأعلام، ١/٣٠٦.

(3) الهجعة: النوم الخفيف، أو السّكر. أُنظر: اللّسان، مادة (هجع).

(4) الرّجعة: الرجوع إلى الدّنيا بعد الموت. أُنظر: المعجم الوسيط، ١/٣٣١.

(5) الخريدة، ق٤ ج٢/١١٤.

(6) القيظ: شدة الحرّ. أُنظر: اللّسان، مادة. ((قيظ)).

(7) الرّاح: الخمرة. أُنظر: اللّسان، مادة. ((روح)).

(8) الخريدة، ق٤ ج٢/١١٤.

(9) المصدر نفسه، ص: ١١٦.

ويصف لنا الطبيعة في فصل الرّبيع، وقد إكتست بحلل خضراء ذات ألوان مختلفة ومتنوّعة، فيقول: ((... وَجُليت عروس الشّمس معتذرة عن مغيبها بالأمس، وطفقت ترشف ريّق الغدران، حتّى جفّت عبراتها، وتعانق أعناق الغدران حتّى خفّت مسراتها، فعندها مُزّق عن الدَّقْعَاءِ[1] صحيح إهابها، واختزن دُرّ البَرْءِ في أصداف أترابها، فلا وأبي الأيّام ما مرّت بهنّ عاشرة إلاّ والقيعان مسندسة، والآكام[2] مُطرّسة[3].))[4].

ويتوقّف عند أثر ذلك في نفوس النّاس وما يبعثه فيها من أمل، وخير وطمأنينة، فيقول: ((... قد تجدّد الشّمل، وتفسح الأمل، وحمل الشّمس الحَمَلُ، وظهرت تباشير النّهاية في شمائل البداية، فرجاؤنا في التّمام أخذاً بقول أبي تمّام[5]:

إنّ الهلالَ إذا رأيت نمّـــوه أيقنت أنْ سيكون بدراً كامـلاً

مِنْ أعباءِ الهُموم ما آد، واطمأنّ قلب القانِط وما كاد.))[6].

ومن الجدير بالذكر هنا أنَّ لابن شرف لا يقصر وصفه على ما تقدّم إنّما تجاوز ذلك إلى وصف المظاهر الحضاريّة والإجتماعيّة، ومن ذلك وصفه ((للعبة الشطرنج))، حيث صوّر لنا هذه اللعبة على أنّها حرب يتسابق فيها الفرسان بخيولهم السريعة المعدّة لهذه الغاية، ويتبارون للفوز بهذه الحرب، فيقول: ((حرب سِجَالُ، وخيل عِجَالُ، وفرسان ورجال قريبة الآجال، سريعة عودة المجال.))[7].

ويتحدّث عن صفات هذة اللعبة وخصائصها، فيشير إلى أنّها لعبة تحتاج إلى تفكير سديد، وذهن متفتح، وأنّها تُسقِطُ الفوارق الإجتماعيّة والطبقيّة من بين اللاعبين، فيقول: ((تستغرق الفكرة، وتسلب اللّب إستلاب السكرة، وتترك اللسان وما أراد، أساء أو أجاد، إلاّ أنّها تُدْني مجلس

---

(1) الدّقعاء: الأرض الّتي لا نبات بها. أُنظر: القاموس المحيط، ٢٢/٣.
(2) الآكام: مفردها أكمة، وهي المنطقة المرتفعة من الأرض. أُنظر: القاموس المحيط، ٧٦/٤.
(3) مطرّسة: متأنقة مختالة. أُنظر: القاموس المحيط، ٢٣٤/٢.
(4) الخريدة، ق٤ ج١١٠/٢.
(5) ديوان أبي تمّام، ١١٥/٤.
(6) الخريدة، ق٤ج١١٠/٢.
(7) الغيث، ٩٧/٢.

الصّعلوك من أشرف الملوك، حتّى لا يكون بينهما في أقرب بقعة إلاّ عرض الرّقعة، وربّما التفت ثيابهما في القطعة، ولسانهما على بيت القلعة.))[1].

ويلتفت ابن شرف إلى نفسيّة اللاعب في هذه اللعبة، فيصوره لنا منفعلاً، حريصاً، يقظاً، وهذا واضح في قوله: ((مظفّر الفئة يراها عن مائة، بيوته حصينة، وشاهه مصونة، ودوابه مجتمعة، جيد النّظر، شديد الحذر، لا يُبقِي ولا يذر، عينه تَغْلي، وفكرته تُملِي، ويده تُبلِي.))[2].

هذا ومما لا شك فيه أنَّ هذا الوصف يمثّل لنا نمطاً مِنْ أنماط الحياة الإجتماعية الّتي كان النّاس يزاولونها في عصر كاتبنا آنذاك، ويوضحَ لنا كيف كان بعض ابناء مجتمعه يقضون أوقاتهم، ويقتلون فراغهم، مثلما يكشف لنا عن معرفة كاتبنا بأُصول هذه اللعبة وقواعدها، وإلاّ لما إستطاع أنْ يصفها مثل هذا الوصف الدّقيق.

ونستطيع أنْ نلاحظ أيضاً أنَّ ابن شرف قد إستوحى معظم صفاته الّتي أثبتها لهذه اللعبة من ميدان الفروسيّة، ومن واقع حياته العمليّة، وبيئته الخاصّة.

ولقد بدا لنا ابن شرف من خلال مقطّعاته النّثريّة الّتي وصلتنا أشبه ما يكون برّسام بارع أو مصوّر فنان يعرف من أين يلتقط صوره، ومشاهده الجميلة المؤثرة، وكيف يوّجه آلته، ليلتقط لنا صوراً أخّاذة، بل هو أبرع من المصوّر الفنّان فيما يصوّره أو يصفه، ذلك لأنَّ الفنان يكتفي بنقل الواقع الخارجيّ أو الشكل الخارجي، ولا يستطيع أنْ يتعمّق في نفسيّة المصوَّر لينقل لنا إنفعالاته النفسيّة، وما يعتمل فيها من مشاعر، وأحاسيس، وإنفعالات كما فعل ابن شرف عندما صوّر لنا ذلك القائد الجبان، حَيْثُ تسلل إلى نفسيته المضطربة القلقة، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً[3].

الحكمة:

اشرنا فيما تقدّم إلى أنَّ شعر ابن شرف ونثره لا يخلوان من نظرة فلسفية حكيمة، كان قد كوّنها من خلال تجاربه الكثيرة الطويلة مع النّاس، والحياة، والمجتمع الّذي يعيش فيه ويتفاعل معه، فهو رجل عارك الأيّام وعاركته، فأذاقته من حزنها وفرحها، من أمْنِها وَخوْفِها، من

---

(1) الغيث، ص: ٩٧/٢.

(2) المصدر نفسه، والمكان ذاته.

(3) أنظر: ص١٤٦ من هذه الدّراسة.

إستقرارها وتشرّدها، ومن حلوها ومرّها، فأكسبته بذلك خبرةً ودرايةً بها، وبمَنْ يعيشون فيها، فحاول أنْ يتخذ منها ومن النّاس الّذين يحيطون به موقفاً، فعبّر عن ذلك كلّه بمجموعة من الأقوال الحكيمة، مُجَسداً فيها معاناته الطويلة الّتي عاشها مع النّاس، والحياة، والمجتمع، وقد ساعدته على ذلك حياته الطويلة الّتي عاشها في بلاد المغرب والأندلس متنقلاً ما بين مدنهما وقراهما، فساعده ذلك على الإتصال بأقوام مختلفه وشعوب متنوّعة، وأكسبه خبرة بالنّاس، وعاداتهم ، وطبائعهم المختلفة، هذا فضلاً عن ثقافته العربيّة الواسعة، وسعة إطلاعه على دواوين الشّعر العربي، وكتب الأدب، فنهل منها معظم حكمه، وجعل منها مصدر تأملاّته.

ونحن إذا ما نظرنا في تلك الأقوال الحكيمة الّتي وصلتنا لابن شرف فإنّنا نجده، قد إستوحاها من مصادرَ متعددةٍ، فقد إستوحاها من واقع حياته العمليّة الّتي عاشها مع النّاس، ومن تجاربه الكثيرة معهم، فقد علّمته هذه الحياة، وهذه التجارب أنْ يلاطف عدوّه الّذي لا طاقة له به، وأنْ يعامله بالصبر والحلم، حتّى تتهيأ له الفرصة المناسبة ليتخلّص منه، وهذا واضح في قوله: ((تبسم للعدّو العابس، ولن لتخلق اليابس. عامل ظالمك بالصبر، وأجعل صدرك له كالقبر، لا يَدْري ما فيه رحمة أم نقمة، وبلاء أم نعمة، حتّى تَمْكِنكَ الوثبة عليه، فَتُلّه لجبينه ويَدَيْهِ.))[1].

وقد علمته خبرته وتجاربه الطويلة مع النّاس أيْضاً أنْ يكونَ حَذِراً في تعامله معهم، متيقظاً، وهذا واضح في قوله: ((.... إحذر الكريم إذا إفتقر، واللئيم إذا قدر، إحذر التقي إذا أنكر، والذّكي إذا فكر.))[2]. وأنْ ينقطع عمّن جافاه، وأنقطع عن مواصلته، وهذا واضح في قوله: ((... من كَثُرَ هجره وجب هجره، ومن كرمت خِصَالُه وَجَبَ وِصَالُه.))[3]، وأنْ لا يماطل في سداد دينه، طالما أنّه قادر على سداده، فيقول: ((إيّاكَ وإخلاف العدة مع إسعاف الجدّة، فقد ينجز المَطُول[4]، ويؤخّر المُطيل[5]، فالمَطْل أحد المنعين.))[6].

---

[1] الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٣.

[2] الخريدة، ق٤ ج٢/١١٥.

[3] المصدر نفسه، ص:١١٥.

[4] المطول: الّذي يماطل، ويؤخرّ أداء ما عليه. أُنظر: اللّسان مادة مطل.

[5] المطيل: المُنْعِم المتفضّل. أُنظر: المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر نفسه، ص:١١٥.

هذا ولقد إستوحى بعض حِكَمِهِ من خلال علاقاته مع أصدقائه واتصاله بهم، وهذا واضح في قوله: ((... كم قاطعك من راضعك، وقابحك من مالحك، ونافقك مَنْ وافقك، وناصبك مَنْ صاحبك، وحادّك مَنْ وادّك))[1].

وممّا تقدم نستطيع أنْ نلاحظ أنَّ ابن شرف في أقواله الحكيمة هذه يصدر عن تجارب عمليّة واجهته في واقع حياته العمليّة، كان قد عاشها مع مثل هؤلاءِ النّاس، وتفاعل معها، فعبّر عنها تعبيراً صادقاً.

وقد يستوحي بعض حكمه من خلال علاقاته مع النِّساء ومطارحتهنَّ الحُبَّ والغرام، وهذا واضح في قوله: ((.... العِشْقُ أحد الرِّقَّين، والسُّلوّ أحد العتقين.))[2].

وكثيراً ما كان ابن شرف يستوحي حكمه من طبيعة بلاده الجميلة، وممّا فيها من أنهار، وأشجار، وثمار وجداول، وهذا كما يبدو في قوله: ((الغُصْنُ بِثَمرِهِ، والأفق بقمره.))[3]، وكما في قوله: ((الوجيه بين أقاربه، كالوادي بين مذانبه.))[4]، وهو هنا أيْضاً يصدر عن تجربة فعليّة عمليه كان قد عاشها في واقع حياته، فعبّر عنها بمثل هذا التعبير الصّادق.

وقد تكون الحكمة مستوحاة من ميدان الفروسيّة، ومن واقع المعركة، وذلك كما في قوله: ((الجُود أنْصَرُ من الجُنُود، وَمَنْ بَخُلَ بماله سمع بعرض آله.))[5].

وقد تأتي الحكمة في نثر ابن شرف مستوحاة من صفات ممدوحيه الّذين اتصل بهم، وذلك كما يبدو في قوله: ((... لا كرم لمن حرم، كيف يُنْجِز مَنْ يَعْجَز؟، البَاذِلُ كَثير العاذل، والكريم كثير الغريم.))[6]، وكما في قوله: ((بقاء الذّكر أحد الخلودين، وبقاء الثناء أحد العمرين. اما أحسن الألسن لمن أحسن.))[7].

---

(1) الخريدة، ص:١١٤.

(2) الخريدة، ق٤ ج٢/١١٥.

(3) المصدر نفسه، ص:١١٦.

(4) المصدر نفسه، ص:١١٤.

(5) المصدر نفسه، ص:١١٤.

(6) المصدر نفسه، ص:١١٥.

(7) المصدر نفسه، ص:١١٥.

وهكذا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف يصدر في أقواله الحكيمة هذه عن تجارب عمليّة كان قد مرّ بها في واقع حياته.

رسائله:

تقتصر رسائل ابن شرف في النّثر على ما أرسله إلى ملوك الطّوائف ووزرائهم بالأندلس، فقد أنشأ بعض هذه الرسائل في الشّفاعات، وبعضها الآخر كان يرسله مع كتبه وأشعاره الّتي بعث بها إلى الأمراءِ، ومنْ ذلكَ رسالته الّتي رفعها إلى باديس بن حبّوس -صاحب غرناطه- مع كتابه المعروف بـ ((أبكار الأفكار))، وفي هذه الرسالة يشير إلى كثرة المؤلّفين والكتّاب الّذين سبقوه، ويذكر أنّهم قد أكثروا من التأليف في الموضوعات المختلفة المتنوّعة، وأنّهم لم يتركوا للمتأخرين باباً مقفلاً يطرقونه، فيقول: ((ما ظننت الابتداع ألاّ بلغ، ولا حسبت الاختراع ألاّ فرغ، حتّى إذا استأثرتُ بُنَيّات صدري، ولطائف فكري، ببيت واحد الجنسيّة، ومعنىً غريب الأبنية، قلت لنفسي: هيهات لا شك أنّك سُبِقْتَ إلى هذه الغاية، وعلّتك قلّة الرّواية، وكَثُر سبّاق الرّواد، وفرّاط الورّاد، فما تركوا للمتأخرين من الرّياض زهرة، ولا من الحياض قطرة.))[1].

ولمّا كان الهدف من إنشاء هذه الرّسالة هو التكسّب ونيل العطاء فإنّ ابن شرف ينسى أنْ يتوقّف عند صفات ابن حبّوس ومناقبه الحميدة بصورة عامّة، وعند كرمه وسخائه الجزيل بصورة خاصّة، وليس هذا فحسب بل إنه يفضّله على أجود العرب وأكرمهم كعب بن مامة، لينال عطاءة الجزيل، ويستدرّ كرمه، فيقول: ((كما أنّ جيش الكرم قد انهزم، وزائر الشّرف قد انصرف، ومركوب المجد قد ندّ، فعشت أظنّ هذا الظّنّ، حتّى سافرت إلينا رفاق الأخبار بشهادات زكّاها مرور الأيّام، ودؤوب الدّوام، تشهد بسؤدد بان عن السؤدد العصاميّ، وحزم فاق الحزم الهشاميّ، وجود جاوز الجود الكعبيّ، ويأس أنسى اليأس المصعبيّ.)).

ويتوقّف ابن شرف في هذه الرّسالة عند حثّ ابن حبّوس للعلم وتعلّقه به، فيشير إلى أنّه من الحكّام العلماء المولعين بالعلم والأدب، وإلى أنّ الوصف يعجز عن وصف مناقبه وصفاته الحميدة الكثيرة، وعن بذله الأموال الطائلة في خدمة العلم والأدب، فيقول: ((... مُغْرَىً بالأدب المهجور بل المطرود، سالياً عن المال المعشوق بل المعبود، مُنْفِقاً للحمد الدّفين المرسوس إلى

---

[1] الذّخيرة، ق٤ م١/١٧٧.

صنوف مِنَ الفضائل، وأنواع من الجلائل، لا يحيط بها الوصف، ولا يجمعها الرّصف، يُغْنِي النّقل الكافيّ، والتوّاتر الاجتماعيّ عن تأتيتها على ألسنة الأقلام إلى إفهام الأنام.))[1].

ويتحدّث عن كتابه المُهْدَى، فيشير إلى أنّه يَجْمَعُ بين الشّعر والنَّثْر، وأنّه اتبع في تأليفه أسلوب السّجع، وأنّه ابتكر معانيه وأفكاره، فيقول: ((... فرقمت في هذا المجموع من الكلام المنثور المسجعّ الأوساط والأطراف، والمنظوم، المكلّل بتيجان القوافي، ما استنبطته من ذوات صدري، وأستنتجه مِنْ بنات فِكري: فِقراً ابتدعتها وسجعتها، ومعاني حكايات اخترعتها، تطرّزها الأقلام، وترقم بها أردية الكلام، وأنا أستغني بقراءة القارئ أصنافها، عن أنْ أُقدّم أوصافها، وهي بنات مؤلّفها، وأسجاع مصنفّها.))[2].

ويحاول أنْ يقارن بين أسجاعه هذه، وأسجاع ابن أبي الزلازل[3]، فيشير إلى أنّ أسجاع ابن أبي الزلازل ما هي إلاّ حكايات مبتورة، وأنّها لا تتمتع بالوحدة الموضوعية وأنّ ابن أبي الزلازل هذا دخيلٌ على الأدب، متصنّع فيه، فيقول: ((...وهي ليست كالأسجاع المنسوبة لابن أبي الزلازل، وهي بنات شتى قبائل، لم يزد على أنْ بتر حكاياتها، وطمس معالم آياتها، ليصحّ له ما شرط في السّجع من الأعداد، فأضاع ما يراد لصون ما لا يراد، وقد تجمّل بغير ثيابه، وأنفق من غير اكتسابه.))[4].

وفي ختام هذه الرّسالة يشير ابن شرف إلى أنّ مؤلّفه هذا قد نال الشرف والشهرة بإهدائه إلى هذا الأمير العالم، فيقول: ((... وعلى أيّ حالٍ كان مجموعنا هذا، فيشرّفه شرف من له يُجْمع، وإلى يديه العليّة يرفع، فمسّته يمناه، ولحظته عيناه.))[5].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه الرسالة قد كشفت لنا عن سعة إطلاع، وعن ثقافة واسعة، وتعمقّ في كتب الأدب العربيّ، ومقدرة على نقده ودراسته.

---

[1] الذّخيرة، ق٤ م١/١٧٨.

[2] المصدر نفسه والمكان نفسه.

[3] وهو: الحسين بن عبد الرّحيم بن الوليد بن عثمان بن جعفر، أبو عبداللّه الكلابيّ، الشاعر الأديب، الكاتب، (ت،٣٥٤هـ)، أخذ عن أبي القاسم الزّجاجيّ، وأبي بكر الخرائطيّ، وغيرهما، وله مصنّفات منها: ((أنواع الأسجاع)). أُنظر: معجم الأدباء، ١١٨/١٠، تهذيب تاريخ ابن عساكر، ٣٠٩/٤.

[4] الذّخيرة، ق٤ م١/١٧٨.

[5] الذخيرة، ق٤م١/١٧٩.

رسالته لابن زيدون:

ومن رسائله الّتي أرفقها مع بعض أشعاره تلك الرّسالة الّتي بعث بها لابن زيدون وزير المعتضد صاحب إشبيليّة عندما دخل الأندلس، قال ابن بسام: ((وكان أوّلَ ما بعث إلى المعتضد بإشبيلية خمسُ قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون.))[1].

وفي هذه الرّسالة يحاول ابن شرف أنْ يرسم لنا طبيعة العلاقة الّتي ينبغي أنْ تكون بين العلماء وأرباب الأدب، فيقول: ((الآداب -أعزّك اللّه- لأربابها، كالمحارم لذوي أنسابها، تُبْدِي البنت زينتها لأبيها، وترفّ الأُخت لأخيها، ولمَنْ كان لَهُ في المَحْرم شبيهاً، وكذلك حُكْم ذوي الآداب فيها، يرفعون بينهم حُجُبَ التحفّظ بيد الاسترسال، ويدفعون ستر التقبّض بأكف البِشْر والإقبال.))[2].

ويحاول كاتبنا أنْ يقسّم هديته الّتي بعث بها إلى المعتضد فيشير إلى أنّه قد خصّ المعتضد بالقصائد الخمس، وخصّ ابن زيدون بالرقعة، مستغلاً ثقافته الدينية؛ ليعلل لنا سبب اختياره لهذا العدد، فيقول: ((... وقد رفعت إلى حضرته الرّقيعة خَمْسَ أبكار عُرُبِ. تخدمهنّ وليدة ذات حسن وأدب، خَصَصت بالخمس القرائض خير الملوك، وبالوليدة برّ الحرّ المملوك. وهن وإنْ زِدْنَ على أربع الشّرع واحدة، فليست في دين الشّعر بزائدة، ولمّا جاز أكثر من أربع لخير الأنام، اقتدينا بذلك في خَيْرِ الكرام.))[3].

ويبرر لابن زيدون عدم تمكنه من الحضور إلى إشبيليّة بنفسه لأسباب لا يفصح عنها، ويشير إلى أنّه قد أرسل هذه القصائد والرّسالة مع رسول ثقة كلّفه هذه المُهِمَّة، فيقول: ((وقد كانت النيّة لو تمّت الأمنية حُضُوري بذاتي، لزفاف بُنَيّاتي فَمنع مِن المراد مانع، ودفع بيد الأقدار دافع، ولمّا صار الفعل الماضي مستقبلاً، وبقيت للحاق مؤمّلا، وكلّت بهنّ ذا محرمهنّ وائتمنت عليهنّ الشّيخ أبا فُلان.))[4].

---

(1) الذخيرة، ص: ١٧٢.

(2) المصدر نفسه، ص: ١٧٣.

(3) المصدر نفسه، والمكان نفسه.

(4) الذخير، ق٤م١/١٧٣.

وكاتب واسع الثقافة مثل كاتبنا عندما يخاطب وزيراً مثل ابن زيدون، فإنّه لا ينسى أنْ يلتفت إلى ما يتحلّى به هذا الوزير من صفات عربيّة أصيلة ممثلة في كرم الأصل، وطيب الأخلاق، وعُلوّ الرّأي وسداده؛ ليشيد بها، وليذكّر ممدوحه بها، وهذا واضح في قوله: ((... فللوزير الأجلّ علّو الرّأي في قبول ما عرضه وليّه المُدِلُّ على إكرامه ومكارم أخلاقه، بما ينمّ عليه من طيب أعراقه.))[1].

وفي ختام هذه الرّسالة يكشف لنا ابن شرف عن الغرض الّذي أنشأ من أجله رسالته الّتي رفعها لابن زيدون وزير المعتضد، فيقول: ((وأنا وإنْ بَعَثْتُ بالأقمار في الأطمار، وبالشموس في خَشن الملبوس، فهو برفقه ودقيق حذْقِه يلطّف الهُجْنَ ويُحسّن الخَشِن، ويقدّم في الغيبة، ما يُعين عند اللقاء على الهيبة، يقويّ مُنّتِه، وعظيم مِنّتِه، -إنْ شاء اللّه-.))[2].

رسالته إلى المظفر بن الأفطس:

وأمّا رسائله في الشفاعة فتقتصر على تلك الرّسالة الّتى رفعها إلى المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس يتشفّع بها لرجل كان قد أُخِذ بوشاية عنده، وقد استهلها بالحديث عن صفات ابن الأفطس وشمائله الممثلة بالسّماحة، والعدالة، وعلّو المكانة والرّفعة، فيقول: ((لي رغبة إلى مفاخره، وتطارح بين يدي مآثره، وإدلال على سماحة سجاياه، وتحامل على احتمال علياه.))[3].

ويبيّن ابن شرف أنّ السبب الّذي من أجله أنشأ هذه الرّسالة يتمثّل في أنّ رجلاً من رعيّة ابن الأفطس طلب إليه أنْ يتشفّع له لدَى الأمير ابن الأفطس، فيقول: ((... وذلك أن شيخاً يفنا قصد فنائي، فبكى حتّى بلّ بفضل دموعه ردائي، ومنعه الشوق بشجاه، من الكلام على ما إرتجاه. ثم ذكر أنّه كاسب نسيّات، وأبو بنين وبنيّات.))[4].

---

[1] الذخير، ق٤م١/١٧٣.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٧٣-١٧٤.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٩٤.

[4] المصدر نفسه، والمكان نفسه.

ويعرض لنا المشكلة الّتي من أجلها أُبْعِد ذلك الرّجل عن وطنه وأهله، فيقول: ((وذكر مولانا المظفّر، فوصف خيراً كثيراً، هو أكثر منه، ودعا بخير أجابه اللّه عنه، ووصف أنّ بُغَاةً بغوه، وحسده آذوه، وتنصّل من ذنوب قرفوه بها، ومولاي أعلم بصدقها من كذبها.))[1].

ويشير ابن شرف إلى أنّه قد رقّ لذلك الرّجل الذي تاب عن ذنبه وأظهر حرصاً شديداً، وتعلقاً كبيراً بأهله، ووطنه، ليموت فيه، ذلك لأنّه كان يعاني مما يعاني منه الرّجل من غربةٍ، وقهرٍ، وتشردٍ، فقد ذاق لذعة الغربة ومرارتها، وهذا واضح في قوله: ((... ولم يظهر حرصاً إلاّ في الميتة الأهليّة والتربة الوطنيّة، فبكى -علم اللّه- مع باك، وشكا منّي إلى شاك، وذو الشكوى يرحم الشكوى، لعلمه بمرارة البلوى.))[2].

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ الدّوافع التي دفعت بكاتبنا في شفاعته هذه، تتمثّل في طلب ذلك الرّجل إليه، كما تتمثّل في مشاركته العاطفيّة والوجدانية له، ويعبّر ابن شرف عن أمله في تحقيق رغبته بالعفو عن هذا الرّجل، فيقول: ((... ولا شك أنّه سيبلغه تفضّل المظفّر بالإلتفات إلى ذكري، والعناية ببعض أمري، وقد تلطفت له بإذن اللّه في القول، وبرئت إليه تعالى من القوّة والحول،ووقفته على رأيّ المظفّر الموفّق، وحكمه العدل المحقّق. وبودّي لو تكلّفت بآماله، وجمعت بينه وبين أطفاله.)) [3].

وفي الختام يشير ابن شرف إلى أنّه لا يعترض على الحُكْم الذي إتخذه المظفر ضدّ هذا الرّجل، ولا يطعن في رأيه وعدله، فهو رجل يعرف حدود نفسه ولا يريد أنْ يتخطاها، وهذا واضح في قوله: ((... فلا يُظَنُّ أنّ ذلك باستحقاقي، وإنْ رقّاني من الشّرف هذه المراقي... إلاّ أنّي لا أوثر مرادي على مراده، ولا أشاركه في العلم بأهل بلاده، إلاّ أنْ يتفضل بالأحسن الأجمل عليّ وعلى أبي جعدة نهشل[4]، فيعود -أيده اللّه- بفضيلة الإيثار.))[5].

---

(1) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٥.

(2) المصدر نفسه، والمكان نفسه.

(3) المصدر نفسه، والمكان نفسه.

(4) يشير هنا إلى مَنْ طلب إليه أنْ يتشفّع لَهُ، أُنظر: الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٤.

(5) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٥.

وعلى الرّغم من تلك المشاركة العاطفيّة والوجدانية الّتي أبداها ابن شرف لذلك الرّجل إلاّ أنّه كان يسعى إلى المجد والشهرة من وراء هذه الشفاعة، وهذا واضح في قوله: ((... ويُكْسبني في النّاس أطيب الأخبار والآثار.))[1].

وعلى أيّ حال فإنّ هذه الرسالة تعكس لنا المكانة المرموقة الّتي حظي بها ابن شرف لدى ملوك الطّوائف الّذين إتصل بهم وكاتبهم بصورة عامّة، ولدى المظفّر بن الأفطس بصورة خاصّة، ويكفينا للتدليل على ما ذهبنا إليه أنْ نشير إلى أنّ المظفّر ابن الأفطس قد قبل شفاعة ابن شرف في هذا الرّجل، وعفا عنه نزولاً عند رغبة كاتبنا، وهذا واضح في الرّسالة الّتي ردّ بها ابن الأفطس على كاتبنا، وقد جاء فيها: ((... ورأيتك قد شفعت القريض بشفاعة، وقرنته برغبة أعطتك مقاليد البلاغة والبراعة، وأسعفتك في الشيخ اليفن، والأشيب البَدِن، فَهَشل. فليسرع بالإقبال إلى بلده، وليلحق بأهله وولده، وليأت إليهم ذألانا، وليشكرنا سرّاً وإعلاناً. واللّه المَّان بك بردّه إلى وطنه وأهله، يبلغك ما ترتجيه، ويعيد حالك إلى عهدها.))[2].

مقاماته:

أشار الّذين تصدّوا لأخبار ابن شرف وعنوا بنقل أدبه وأشعاره إلى أنّه قد خلّف لنا مقامات كثيرة، وهذا واضح في رواية ابن بسّام الّتي أورد فيها: ((ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصبّ فيها على قالبه.))[3]، إلاّ أنّ هذه المقامات الكثيرة الّتي تحدّث عنها ابن بسّام، لم يصلنا منها إلاّ مقامتان، هما: رسائل الإنتقاد[4]، والجرجانيّة.

مقامة رسالة الإنتقاد:

وهي مقامة نقديّة ألّفها ابن شرف في نقد الشّعْر والشعراء على غرار تلك المقامات النقديّة الّتي أنشأها بديع الزّمان الهمذانيّ، ليتحدّث من خلالها عن صفات وخصائص بعض الشعراء

---

(1) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٥.

(2) الذخيرة، ق٤م١/١٩٦.

(3) المصدر نفسه، ص:١٩٦.

(4) نشرها الخانجيّ بإسم ((أعلام الكلام)).

المتقدمين[1]، وهذا واضح في قول ابن شرف: ((...وزوّر بديع الزّمان، الحافظ الهمذانيّ مقامات كان ينشئها بديهاً في أواخر مجالسه، وينسبها إلى راوية رواها له، يسميه عيسى بن هشام، وزعم أنّه حدّثه بها عن بليغ يسميه أبا الفتح الإسكندريّ، وهي متضمنه معاني مختلفة، ومبْنِيَة على معاني شتى غير مؤتلفة، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل إلى جد ومن ندّ إلى ضد، فأقمت من هذا النَّحْو عشرين حديثاً، وأرجو أنْ يتبين فضلها، ولا تقتصّر عمّا قبلها.))[2].

ولقد أسند رواية هذه المقامة إلى بطل أسماه أبا الرّيان، وقد جعله بليغاً، فصيحاً، بارعاً في اللّغة والأدب، خبيراً بالأيّام، عاركها وعاركته فأكسبته معرفة بها، ودراية واسعة، وفي هذا يقول ابن شرف: ((... وعزوتها إلى أبي الرّيان الصّلت بن السّكن من سلامان[3]، وكان شيخاً همّا في اللّسان، وبدراً تمّاً في البيان، قد بقي أحقاباً، ولقي أعقاباً، ثمّ القته إلينا من باديته الأزمات، وأوردته علينا العزمات، فامتحنا من علمه بحراً جارياً، وقدمْنَا مِنْ فهمه زنداً وارياً، وأدرنا من برّه طرفاً، اجتنينا من ثمره طرفاً.))[4].

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ شخصية أبي الرّيان هذه الّتي اخترعها ابن شرف لرواية مقامته هذه، تتفق في معظم صفاتها وملامحها مع تلك الشخصية الخيالية الّتي أسند إليها بديع الزّمان الهمذانيّ مقاماته[5]، وأطلق عليها أسم (عيسى بن هشام)، ويبدو لي أنّها شخصية خيالية ابتكرها ابن شرف؛ ليعبر من خلالها عن موقفه من القضايا النقديّة والأدبيّة الّتي كانت تشغل بال معاصريه، ويكشف لنا من خلالها عن ثقافته الواسعة وتعمقه في دواوين الشّعر العربيّ.

هذا ويشير ابن شرف في مقدّمة مقامته هذه إلى أنّه قد ألفها في الأندلس بعد خروجه من موطنه القيروان إثر الفتنة الكبرى الّتي منيت بها، فيقول: ((... ولعمري ما أشكر من نفسي ولا

---

(1) أنظر: مقامات بديع الزّمان، ص:٥، ص:٥١، ص:١٠٢، ص:١٧٤.

(2) أعلام الكلام، ص: ١٣-١٤.

(3) سلامان بفتح أوّله: ماء لبني شَيْبَان على طريق مكة إلى العراق. أنظر: معجم ما إستعجم، ٧٤٥/٣، مادة سلامان.

(4) اعلام الكلام، ص:١٣.

(5) أنظر: مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ، وفن المقامات، ص:١١١-١١٥، رأي في المقامات، ص:١٥وص:٤٨،٦٧.

أثني على شيء من حسّي، إلاّ ظفري بالأقل مما حاولته على ما أضرمته نيران الغربة من قلبي، وثلمته صعقات الفتنة من لبّي، وقطّعت أهوال البَرّ والبحر من خواطري، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري.))[1].

ويفتتح ابن شرف مجلسه الأوّل من هذه المقامة، فيطلب من راويته أبي الرّيان أنْ يعرّفه إلى طبقات الشعراء في الجاهلية والإسلام، وأنْ يحدّثه عن الشّعر والشعراء، فيقول: ((جاريت أبا الرّيان في الشّعر والشعراء، ومنازلهم في جاهليتهم وإسلامهم، واستكشفته عن مذهبه فيهم، ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم.))[2]، إلاّ أنّ أبا الرّيان يعتذر لكاتبنا عن القيام بهذه المهمّة، لكثرة عدد الشعراء الّذين عاشوا في الجاهليّة والإسلام، فيكتفي منه بذكر أسماء المشهورين منهم، وبالتعرّف إلى بعض خصائصهم وميزاتهم، فيقول: ((الشُّعراء أكثر من الإحصاء، وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء، فقلت: لا أعنتك بأكثر من المشهورين ولا أذاكر رأيك إلاّ في المذكورين مثل الضليل[3]، والقتيل[4]، ولبيد[5]، وعبيد[6] ...))[7].

وهكذا يمضي أبو الرّيان في ذكر أسماء المشاهير من الشّعراء الجاهليين والإسلاميين في المشرق والمغرب من مثل: ابن عبد ربه، وابن هانئ الأندلسي، وأحمد بن دّراج القسطّلي، وغيرهم، وقد جاوز عددهم الستين شاعراً.

وموقف ابن شرف من هذه القضية، يذكرنا بموقف ابن قتيبة منها حيث يقول: ((والشعراء المعروفون بالشّعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليّة والإسلام، أكثر من أنْ يحيط بهم محيط أو

---

[1] أعلام الكلام، ص:١٤.

[2] المصدر نفسه، والمكان نفسه.

[3] وهو: أمرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكنديّ، شاعر جاهليّ معروف. أُنظر: الشعر والشعراء، ١٠٥/١، خزانة الأدب، ١٦٠/١، الأغاني، ٧٦/٩، طبقات فحول الشعراء، ص:٤٣.

[4] وهو: طرفه بن العبد بن سفيان، شاعر جاهليّ مشهور. أُنظر: الشّعر والشعراء، ١٨٥/١، خزانة الأدب، ٤١٤/١

[5] وهو: لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ، من شعراء الجاهلية وفرسانهم، أُنظر: الشّعر والشعراء، ٢٧٤/١، خزانة الأدب، ٣٣٤/١-٣٣٩.

[6] وهو: عبيد بن الأبرص بن عوف، من شعراء الجاهلية المعمرين. أُنظر: الشّعر والشعراء، ٢٦٧/١.

[7] أعلام الكلام، ص:١٤.

يقف من وراء عددهم واقف، ولـو أنفدَ عمره في التنقير عنهم، وأستفرغ مجهوده في البحث والسؤال.))[1].

ولمّا فرغ ابن شرف من سرد أسماء الشّعراء الّذين يرغب في معرفة أخبارهم وصفاتهم طلب من أبي الرّيان أنْ يحدّثه عن المشهورين منهم، وأنْ يبيّن له رأيه فيهم واحداً واحداً، فأخذ أبو الرّيان يتحدّث عنهم واحداً تلو الآخر مبتدئاً بامرىء القيس أقدمهم عصراً وشعراً من غير مراعاة للتسلسل الزّمني في ذكرهم فيتوقف عند ما هو معروف ومتداول من صفات هؤلاء الشعراء وميزاتهم الّتي عرفوا بها باسلوب تقريريّ لا يتخطى ما عُرفَ به ذلك الشّاعر. ربما تفرّد به عن غيره، ومن ذلك قوله في امرىء القيس: ((أمّا الضليل مؤسس الأساس وبنيانه عليه النّاس، كانوا يقولون: أسيلة الخدّ، حتّى قال أمرؤ القيس: ((أسيلة مجرى الدّمع))، وكانوا يقولون: تامّة القامة وطويلة القامة، وأشباه هذا ، وجيداء، وتامّة العنق، حتّى قال أمرؤ القيس: ((بعيدة مهوى القُرْط))، وكانوا يقولون في الفرس السّابق يلحق الغزال، ويسبق الظليم، وأمثال هذا حتّى قال: ((بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ))[2]، ولم يكنْ قبله من فَطِنَ لهذا، وبنى مَنْ بعده على هذه الاستعارات...))[3].

وقوله في طرفة بن العبد: ((وأمّا طرفة فلو طال عمره لطال ذكره، وعظم في الشّعْر ذكره، ولقد خُصّ بأوفر نصيب من الشّعر على أنزر نصيب من العمر، فملأ أرجاء ذلك النّصيب بصنوف من الحِكْمَة، وأصناف من عُلوّ الهمّة، والطبع معلم حاذق، والذكاء جواد سابق.))[4].

وقوله في النابغة الذّبياني: ((وأما النابغة زياد فأشعاره المحققات الجياد لم تخرج عن نار جوانحه، حتّى تناهى نضجها، ولا قطعت على منوال خاطره حتّى تكاثف نسجها، لم تهلهلها مَيْعِة الشباب، ولا وهاء الأسباب، ولا لوم الاكتساب، فشعره وسائط سلوك، وتيجان ملوك.))[5].

---

(1) الشعر والشعراء، ١/٦٠.

(2) عجز بيت لأمرىء القيس، وصدره،: وَقَدْ أغْتَدي والطيْرُ في وُكناتِها. أُنظر: ديوانه، ص:١٩.

(3) أعلام الكلام، ص:١٥-١٦.

(4) أعلام الكلام، ص:١٥-١٦.

(5) المصدر نفسه، ص:١٨.

وقوله في بشار بن برد، حيث يقول: ((وأما بشار فأوّل المولّدين، وآخر المخضرمين وممن لحق الدّولتين، عاشق سمع، وشاعر جمع، وشعره ينفق عند ربّات الحجال، وعند فحول الرجال، فهو يلين حتّى يستعطف، ويقوى حتّى يستكثف، وقد طال عمره، وكثر شعره، وطما بحره، وبقي في البلاد ذكره.))[1].

وهكذا يمضي ابن شرف في حديثه عن الشعراء على لسان بطله وراويته أبي الرّيان، فلا يتجاوز في حديثه عنهم ما وصف به كل شاعر منهم[2]، وما عرف به، الأمر الّذي جعل من راويته أبي الرّيان راويه عادياً لا يختلف في مهمته عن مهمة الرّاوي في أيّ خبر من الأخبار المعروفة، لا سيّما بعد أن جردّه ابن شرف من دوره الدراميّ، وجعل منه شخصية جامدة تكتفي بإيراد الأفكار والصفات الّتي حصلّها ابن شرف من ثقافته العربية والشعرية الواسعة، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنّ الأفكار والآراء الّتي يقررها أبو الريان إنّما هي آراء ابن شرف وأفكاره الّتي توصل إليها، وتبنّاها.

هذا وثمّة أمر ينبغي لنا أنْ نشير إليه هنا، وهو أنّ ابن شرف في هذا المجلس من مقامته الّتي بين أيدينا يكتف بالوقوف عند المشاهير من شعراء المشرق فحسب، بل تجاوز ذلك ليتحدث عن الشعراء المشاهير بالمغرب والأندلس، ويبدو لي أنّه أراد بذلك أنْ يثبت لنا أنّ بلاد المغرب والأندلس قد أنجبت شعراء جهابيذ لا يقلّون عن شعراء المشرق في شهرتهم ومكانتهم، ولكنّه لا يبرح ذلك الأسلوب التقريريّ الّذي الزم نفسه به في هذه المقامة، وفي هذا يقول: ((قال أبو الرّيان: هذا ما عندي في شعراء المشرق، وقد سميّت لي من متأخري شعراء المغرب مَنْ لعمري لا يَبْعُد عن معاصره، ولا يُقصّر عن سابقه.))[3].

ويتوقف عند بعض مشاهير الشعراء في المغرب والأندلس، فيقول: ((وأمّا ابن عبد ربّه الأندلسيّ، وإنْ بَعُدَتْ عنّا دياره فقد صافنتنا أشعاره، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة، وتكفيرات توبته الصّدوقة، ومدائحه المروانية، ومطاعنه في العبّاسية، فوجدناه في كلّ ذلك فارساً

---

(1) أعلام الكلام، ص:٢٢.

(2) المصدر نفسه، ص:١٥-٢٧.

(3) المصدر نفسه، ص:٢٦.

ممارساً، وطاعناً مداعساً، وأطّلعنا في أشعاره على مادة علم واسع، ومادّة فهم مضيء ناصع، ومن تلك الجواهر نظم عِقْدِهِ[1]، وتركه لِمَنْ يتجمّل به بعده.))[2].

وهذا أمر يكشف لنا ثقافة ابن شرف الواسعة، وسعة إطلاعه على كتب الأدب العربيّ.

ويقول في ابن دّراج القسطليّ: ((وأمّا ابن درّاج الأندلسيّ القسطليّ فشاعر ماهر، عالم بما يقول، تشهد له العقول، بأنّه المؤخّر في العصر، المقدّم في الشّعْر، مَنْ تصفّح أشعاره دلّته على أنّه عالم بالأخبار والأنساب، والآثار والأحساب، حاذق يضع الكلام في موضعه، لاسيما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة، وشكا ما دهاه في أيام المحنة، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه في أبعد الزّمان وأقربه.))[3].

ويحاول ابن شرف في نهاية هذا المجلس أنْ ينفي عن نفسه صفة التعصّب فيقول: ((... وقد وصفت المتأخرين فعرفت وأنصفت على احتقار المعاصر، واستصغار المجاور، فحاشى لله من الأوصاف لقلّة الإنصاف للبعيد والقريب، والعدوّ والحبيب.))[4].

وهو بهذه النظرة يؤكد لنا قاعدة نقديّة عامّة من قواعد النّقد الأدبيّ وهي ألاّ يحكم الناقد عواطفه ومشاعره فيما يعرض عليه للنقد.

وقد كشفت لنا هذه المقامة النقديّة عن ثقافة ابن شرف الواسعة، وعن سعة إطلاعه، وتعمقه في دواوين الشّعر العربّي، وكتب الأدب العربي على اختلاف العصور الّتي مرّت بها، وليس أدلّ على ذلك في مقامته الّتي بين أيدينا وفي القسم الأول منها على وجه التحديد مِنْ أنّه على صغره قد اشتمل على أكثر من ستين شاعراً تعرّض لهم فيه ابن شرف بالحديث والنقد.

هذا في المجلس الأول من مقامته، وأمّا المجلس الثاني منها فقد جعله ابن شرف للحديث عن نظريات وقواعد عامّة في النقد كانت قد شغلت النقاد العرب على مرّ العصور بصورة عامّة، ونقاد عصره بصورة خاصة، من مثل: اللّفظ والمعنى، والقِدَم والحداثة، والسّرقات الشعريّة، وعيوب الشعر.

---

[1] يشير إلى كتابه المعروف بـ ((العِقْد الفريد)).

[2] أعلام الكلام، ص:٢٦.

[3] المصدر نفسه، ص:٢٦.

[4] المصدر نفسه، ص:٢٧.

وقد استهل ابن شرف هذا المجلس برغبة شديدة في أنْ يقف على رأي أبي الرّيان في النقد، وأنْ يقتبس من علمه الصائب، فيقول: ((قلت لأبي الريان في مجلس عقِب هذا المجلس: يا أبا الرّيان، لقد رأيت لك نقداً مصيباً، ومرمىً عجيباً، ولقد أرغب في أنْ أنال منه نصيباً.))[1].

فيجيبه أبو الريان بأنَّ النَّقد موهبة من اللّه -تعالى- تولد مع الإنسان، وأنَّ مَنْ يحظى بهذه الموهبة يصبح قادراً على نقد الشّعْر، ويميّز غثه من سمينه، وأمّا مَنْ لم يرزق بها فإنّه لا يحظى بهذه المقدرة، ويشير إلى أنَّ رواية الشّعْر، والعلم به من غير هذه الموهبة لا يسعفان النّاقد، فيقول: ((النقد هبة في الموالد، وفيه زيادة طارف إلى تالد، ولقد رأيت علماء بالشّعْر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده، ولا جودة فهم في رديه وجيده، وكثير ممَّنْ لا علم له يفطن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضه.))[2].

وطفق ابن شرف في هذا المجلس يتحدّث على لسان بطله أبي الرّيان عن توجيهات عامّة في ميدان النقد، فيدعو النقّاد إلى التروي والتريث قبل إصدارهم الحكم على العمل الأدبي، ويحذّرهم من مغبّة التسرع، ويحثّهم على التأنّي وأعمال الفكر قبل الحكم فيقول: ((قلت: أنا شديد الرّغبة إلى فضلك، في أنْ تسهمني من ميزك وعقلك، ما أستهدي بسراجه على مستقيم منهاجه، فأقف منْ سرائره على بعض ما وقفت، وأعرف منْ مفاخره ومعانيه جزءاً ممّا عرفت. قال: نعم أوّل ما عليه تعتمد، وإيّاه تعتقد ألاّ تستعجل باستحسان، ولا باستقباح، ولا باستبراد، ولا باستملاح حتّى تنعم النّظر، وتستخدم الفكر، وأعلم أنَّ العجلة في كل شيء مركب زلوق، وموطئ زهوق.))[3].

ويحاول ابن شرف في هذا القسم من مقامته أنْ يكشف لنا عن موقفه من بعض القضايا النقديّة العامّة الّتي شُغِلَ بها النقاد العرب على مر العصور مثلما شُغِل بها نقاد عصره، فيتوقّف عند قضيّة اللّفظ والمعنى، ويرجح جانب المعنى على جانب اللّفظ، وهذا واضح في قوله: ((... وأنَّ من الشّعْر ما يملأ لفظه المسامح، ويرد على السامع منه قعاقع فلا ترُعك شماخة مبناه،

---

[1] أعلام الكلام، ص:٢٧.

[2] المصدر نفسه، ص:٢٧.

[3] المصدر نفسه، ص:٢٧.

وأنظر إلى ما في سكناه من معناه، فإنْ كان في البيت ساكن، فتلك المحاسن، وإنْ كان خالياً فاعدده جسماً بالياً.))[1].

ويتوقّف عند قضية القِدَم والحداثة، فيدعو إلى التحفظّ من إجلال القديم لمجردّ قدمه، ومن ذمّ الحديث لحداثته، وينادي بأنْ تكون الجودة هي المقياس الّذي ينبغي أنْ يحكم فيه على الشّعر والشاعر، فيقول: ((... وتحفّظ من شيئين: أحدهما، أنْ يحملك إجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له، والثاني أنْ يحملك أُصغارك المعاصر المشهورعلى التهاون بما أنشدت له، فإنّ ذلك جَوْرٌ في الأحكام، وظُلْم من الحكّام، حتّى تمحّص قوليهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما.))[2].

ويتوقف ابن شرف في هذا القسم من مقامته النقديّة هذه عند بعض الهَنَات والسقطات الّتي وقع فيها بعض المشاهير من الشعراء[3] الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين من مثل امرىء القيس، وسحيم عبد بني الحسحاس، والفرزدق، وغيرهم من مشاهير الشعراء، ويتتبّع أخطاءهم، وسقطاتهم الّتي وقعوا فيها على الرُّغم من شهرتهم وقدمهم، مشيراً ألى أنّ الهدف من وراء ذلك إنّما هو التوضيح والإرشاد إلى مواطن الصّواب، فيقول: ((قال أبو الريان: وفضلاء الشعراء كثير جداً، ولكل سقطات، وسأقفك على بعضها، لعظيم المؤونة في الإحاطة بها، ليس إلاّ، لأوضح لك بذكرها منهجاً منْ مناهج النقد لا حرصاً على نقص الفصحاء، ولا قصداً إلى تهجين الصرحاء، وأية رغبةٍ لنا في ذلك، وهم جُرثومة فروعنا، وبهم إفتخار جميعنا.))[4].

وحتّى يدلّ ابن شرف على ما ذهب إليه فقد إتخذ من زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهليّ المشهور مثالاً لتتبع أخطاء القدماء وسقطاتهم، فتوقّف عند بعض أبياته الّتي وردت في معلّقته الشهيرة، ونقدها نقداً صائباً كشف لنا عن ثقافة واسعة، وتفكير سليم، فذهب إلى القول إنّ زهيراً على الرّغم من شهرته الّتي وصل إليها، ومكانته الّتي حظي بها قد غلط وخالف العقل والمنطق حين يقول:

رأيتُ المنايا خبط عَشواء من تُصِب تُمِتْهُ ومَن تُخطئ يُعمّر ويَهْرَمِ[5]

---

[1] أعلام الكلام، ص:٢٧.

[2] المصدر نفسه، ص:٢٨.

[3] أنظر: المصدر نفسه، ص:٢٨-٣٦.

[4] المصدر نفسه، ص:٣٣.

[5] شرح ديوان زهير، ص: ٢٩.

وينقده بقوله: ((... وقد غلط زهير في وصفها بخبط العشواء على أنّنا لا نطالبه بحكم ديننا؛ لأنّه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل، فنقول: إنما يصّح قوله: لو كان بعضُ الناس يموت وبعضهمُ ينجو. وقد علم هو، وعلم العالم حتّى البهائم أنّ سِهام المنايا لا تخطىء شيئاً من الحيوان حتّى يعمها رشقها، فكيف يوصف بخبط العشواء رام لا يقصد غرضاً من الحيوان إلا أقصده حتّى يستكمل رمياته في شواكل رُميّاته.))[1].

وهكذا يمضي ابن شرف في نقده لزهير، ويحاكمه محاكمةً خلقيّة منطقية، فيشير إلى أنّه قد وَهِمَ فيما ذهب إليه، فيقول: ((... وإنّما أدخل الوهم على زهير موتُ قَومٍ غَبْطَةً، وموتُ قَوْمٍ هَرَماً، فظنّ طول العمر إنّما سببه أخطاء المنيّة، وسبب قصره، إصابتها. وهيهات الصّواب من ظنّه لم يؤخّر الهرَم، إلاّ أنّها ما قصدته، فحين قصدته أصابته، ولو أنّ الرُّماة تهتدي كاهتدائها، لملأت أيديها بأقصى رجائها.))[2].

ولمّا فرغ ابن شرف من الحديث عن سقطات وعيوب القدماء من الشعراء، أخذ يتحدّث عن هنات وسقطات المحدثين منهم والمولدّين، مثل بشّار، وأبي تمّام، وغيرهم، وهذا واضح في قوله: ((ولفضلاء المولّدين سقطات مختلفات في أشعارهم أذاكرك مِنْها في أشياء، لتستدلّ بها على أغراضك لا لطلب الزّلاّت، ولا لاقتفاء العثرات. كان بشّار تتباين طبقات شعره فيصعد كثيرها، ويهبط قليلها كثيراً. وكذلك كان حبيب الطّائي، فإذا سمعت جيدهما، كذبت أنّ رديهما لهما، وإذا صحّ عندك أنّ ذلك الرّديّ لهما، أقسمت أنّ جيدهما لغيرهما.))[3].

ويلوح لي أنّ ابن شرف بحديثه هذا عن سقطات الشّعراء القدماء والمحدثين منهم، يريد أنْ يردّ على اولئك المتعصبين الّذين تعصّبوا للقديم لمجرد قِدَمه، وسخطوا على الحديث لحداثته، وليثبت لهم أنّ الجودة موجودة في الشّعر بغَض النّظر عن قِدمه أوْ حدَاثته، وأنّ الرداءة والهنّات قد توجد في القديم والحديث.

---

(1) أعلام الكلام، ص:٣٣-٣٤.

(2) المصدر نفسه، ص:٣٤.

(3) المصدر نفسه، ص:٣٩.

ويتحدّث عن عيوب الشّعْر[1]، فيذكر منها اللّحن، وتعقيد الكلام، وخشونة حروف الكلمة، والإفتتاحات الثقيلة، والقوافي المعجمة، والجفاء في النَّسيب على الحبيب، والسرقات، وهذه أُمور عالجها معظم البلاغيين والنّقاد وأشبعوها بحثاً، وحذروا الشعراء والأدباء من الوقوع فيها[2].

ويحاول ابن شرف أنْ يعللّ لنا سبب توقفه عند المشاهير من الشعراء، فيشير إلى أن شهرتهم والاحتجاج بأشعارهم كانا من أقوى الدوافع إلى ذلك، فيقول: ((... ولعلّ قائلاً يقول: مال على هؤلاء، وترك سواهم لميله على من بَكَتَ، وتفضيله مَن عَنْهُ سكت، فقل لِمَنْ قال ذلك: الأمر على خلاف ما ظننت، ولم أذكر إلاّ الأفضل فالأفضل، والأشهر فالأشهر، إذ كانت أشعارهُمُ هي المرويّة، فالحجّة بهم وعليهم هي القوية، فقد نقلته على مَنْ ميلي عليهم إلى ميلي بالحقّ إليهم.))[3] .

وهو بهذا يعيد لنا تعليل ابن قتيبة في كتابه الشّعر والشُّعراء، حَيْثُ يقول معللاً توقّفه عند المشاهير مِنَ الشُّعراء: ((وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الّذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب، والّذين يقع الإحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النَّحْو، وفي كتاب اللّه -عزّوجلّ- وحديث رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم-))[4].

ويختتم ابن شرف مجلسه هذا مشيداً بشخصيّة راويته وبطله أبي الرّيان، فيقول: ((... فقلت للّه درك يا أبا الرّيان فما ألينَ جانبك!، وما أقرب غائبك!، وما أنجح طالبك! وما أسعد بكَ صاحبك! فقال: أنجح اللّه مطالبك، وقضى مآربك، وصفّى من القذى مشاربك، وبثَّ في الحواضر والبوادي مناقبك.))[5].

وأمّا المجلس الثالث والأخير من هذه المقامة فقد خصّصه ابن شرف للحديث عن مذهب أبي الرّيان في إنتقاء الأشعار، وعن طريقته في إختيارها، فيطلب من أبي الرّيان أنْ ينشده من مستحسن الأشعار، الّتي يحفظها فيجيبه إلى هذه الرغبة، ويلبّي له هذا المطلب، وفي هذا يقول

---

(1) أعلام الكلام، ص:٣٧-٤٢.

(2) أُنظر: الشعر والشعراء، ١/٩٥-١٠٣، والموشح، ص:٩٢.

(3) أعلام الكلام، ص: ٤٥-٤٦.

(4) الشّعر والشعراء، ١/٥٩.

(5) أعلام الكلام، ص:٤٦.

ابن شرف: ((... وطلبتني نفسي بمعرفة مذهب أبي الرّيان في إختيار الشّعْر، وإغتنمت جوده بما أردته ووجوده متى طلبته، فقلت له يوماً: يا أبا الرّيان، أبت نفسي أنْ ترتوي من مائك، ولا أنْ تسأم من طيب غذائك، وقد أدلّني لين جانبي عليك، وسهّل عليَّ مباحثتك يسر الأشياء لديك، فتبسّم، ثُمَّ قال ما الفنُّ الّذي تريد؟، ومن أيّ صنف تستزيد؟ قلت: إقتراحي على فهمك وكرمك أنْ تنشدني ولا تملّ، وتملي عليَّ ولا تكل مِنْ مستحسن الأشعار عندك، ما أجمع بين ميزك فيه، ونقدك على الإختيار، قال: نعم ونعمّا أنشدك ما حضرني.))[١].

ويحدّثنا ابن شرف عن منهج أبي الرّيان وطريقته في اختيار الأشعار فيقول: ((... ولا تخلني أقدّم الأجود فالأجود، لكنّي أقدّم ما إعتفاني، وأؤخر ما عفاني، وسأبدأ بالأبيات المفردات، والمزوجات، وأؤُخر القطع العشريّات، والقصائد المعرّبات، فقد رويت منها ما استغربت معناه، واستظفرت مغزاه، قلت: هات لا فُضَّ فوك، ولا أنفضّ معتفوك، فقال: خذ الأشعار الحكيمة والأبيات المثليّة...))[٢].

وينشده قول طرفة بن العبد الّذي يقول فيه[٣]:

سَتُبدي لَكَ الأيامُ ما كُنتَ جاهلاً ... ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لَم تُزودِ[٤]

وينشده قول دريد بن الصّمه[٥]:

أمَرتُهُم أمري بِمُنعَرَجِ اللوى ... فَلَم يَستَبينوا الرُشدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ[٦]

وقول حسّان بن ثابت الّذي جاء فيه[٧]:

رُبَّ حِلْمٍ أضَاعَهُ عَدَمُ المَال ... وَجَهلِ غَطى عَلَيه النّعيمُ[٨]

---

[١] أعلام الكلام، ص:٤٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٧.

[٣] ديوان طرفه، ص:٤٨.

[٤] أعلام الكلام، ص: ٤٧.

[٥] جمهرة أشعار العرب، ص:٥٨٤.

[٦] أعلام الكلام، ص: ٤٧.

[٧] شرح ديوان حسّان، ص:٤٣٤.

[٨] أعلام الكلام، ص: ٤٧.

وقول زهير[١]:

وَمَن لَم يَزَل يَستَحمِل الناس نَفْسَـــه ... وَلا يُغنِها يَومـــاً مِن الدَهرِ يَسْـأَمُ
وَمَن يَجْعَل المعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَـتّـقِ الشَـتْمَ يُشْتَـــمُ[٢]

وقول النابغة[٣]:

وَلَستَ بِمُستَبقٍ أخاً لا تَلُمَّـــهُ ... على شَعَثٍ أيّ الرِجالِ المُهَذّبُ[٤]

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ الأبيات الّتي يوردها ابن شرف في هذا المبـ ـس، من مقامته، إنّما هي أبيات مشهورة، ولشعراء مشهورين، وقد كثر دورانها وترديدها في معظم كتب الأدب، ومجامع الشّعر العربي[٥].

وأما في الغزل فقد انشده قول عروة بن حزام[٦].

وَعَفراءُ أدنَى الناس عِنـدي مَـوَدّةً ... وَعَفـراءُ عنّـي المُعـرِضُ المُتوانــي
جَعَلتُ لِعرافِ اليَمامةِ حُكمَـــــةً ... وَعرافِ نَجدٍ إن هُما شَفَيانـــــي[٧]

وقول العبّاس بن الأحنف الّذي يقول فيه:[٨]

سَمّاكِ لـي قَـومٌ وَقَـالُوا إنّهـــــا ... لَهِيَ التـي تَشْـقى بِها وَتُكابِـــــدُ
فَجَحَدتُهُم لِيكون غَـيرُكِ ظَنُّهـــم ... إنـي لَيُعجِبُني المُحِبّ الجَاحِـــــدُ
واللـه لَـو قَسَتْ القُلُـوبُ كَقَلبِهـــا ... ما رَقّ لِلوَلَدِ الصَغيـر الوالِـــــدُ
يَقَعُ البَلاءُ وَيَنْقَضي عَن أهلِـــــهِ ... وَبَلاءُ حُبِّك كُلّ يومٍ زَائِـــــدُ[٩]

---

[١] شرح ديوان زهير، ص:٣٢.
[٢] أعلام الكلام، ص: ٤٨.
[٣] ديوانه، ص:١٨.
[٤] أعلام الكلام، ص: ٤٧.
[٥] أنظر: شرح المعلّقات السبع، ص:٩٧، ص:١١٩، وجمهرة أشعار العرب، ص:١٢٥-٢٢٤.
[٦] شعر عروة، ص: ١٢-١٤.
[٧] أعلام الكلام، ص: ٤٨.
[٨] ديوانه، ص:٨١-٨٢.
[٩] أعلام الكلام، ص: ٤٨.

وينشده في الرّثاء قول ليلى ابنة طريف التغلبيّة في رثاء أخيها، حَيْثُ تقول[١]:

أيا شَجَرَ الخابُورِ مَالَكَ مُورقاً ... كأنّكَ لَمْ تَجْزَع على ابن طَرِيفِ
فَتَىً لا يُحِبّ الزّادَ إلاّ مِن التُقى ... ولا المَالَ إلاّ مِنْ قَنَىً وَسُيوفِ[٢]

وقول أبي تمام في رثاء إدريس بن بدر الشاميّ الذي يقول فيه[٣]:

ولَم أنسَ مَشْيَ الجُودِ حَوْلَ سريرِهِ ... بأكسَفِ بَالٍ يَستَقِيمُ ويَضلَعُ
وتَكبيرُهُ خَمساً عليه مُعَالَناً ... وإنْ كَانَ تَكبيرُ المُصليِنَ أربعُ
وَمَا كُنتُ أدري -يَعلم اللهُ- قَبْلَها ... بأنّ النّدى في أهلِه يَتَشيّعُ[٤]

وأما في المديح فقد أنشده قول المتنبيّ الذي رفعه إلى عليّ بن إبراهيم التنوخي، الذي يقول فيه[٥]:

قَومٌ بلُوغُ الغُلامِ عِندهُمُ ... طَعْنُ نُحُورِ الكُمَاةِ لا الحُلُمُ
إذا تَولوا عَداوةً كَشَفوا ... وإن تَولوا صَنيعَةً كَتَمُوا
تَظُنّ مِنْ فَقْدِكَ اعتِدَادَهُمُ ... أنّهُمْ أنْعَموا وَمَا عَلِمُوا
أعيذُكُم مِنْ صُرُوفِ دَهرِكُمُ ... فإنّه في الكِرامِ مُتّهَمُ[٦]

وقوله أيضاً في مدح سيف الدولة الحمدانيّ الذي جاء فيه[٧]:

مُتَصَعلِكِين على كَثَافَةِ مُلْكِهِم ... مُتَواضِعِينَ على عَظيم الشّانِ
يَتَقيلون ظِلالَ كُلّ مُطَهّمِ ... أجَلِ الظليمِ ورَبقَةِ السّرْحَانِ
يا مَن يُقَتّلُ مَنْ أرادَ بِسَيفِهِ ... أصبَحتُ مِنْ قَتلاكَ بالإحسانِ[٨]

---

[١] ديوان الحماسة، ١/٥٣٠.
[٢] أعلام الكلام، ص: ٥٠.
[٣] ديوانه، ٤/٩٥-٩٦. والعمدة، ٢/١٤٩.
[٤] أعلام الكلام، ص: ٥١.
[٥] ديوانه، ص: ٤/٦٤-٦٥.
[٦] أعلام الكلام، ص: ٥٤.
[٧] ديوانه، ٤/١٧٩-١٨٥.
[٨] أعلام الكلام، ص: ٥٤.

وقول أبي تمام الذي يقول فيه[١]:

إذا افْتَخَرَتْ يوماً تَميمٌ بِقَوسِها ... وَجَاءت بِما قَد وطّدَتْ مِن مَنَاقِبِ
فأنتُمْ بِذي قارٍ أمالَت سُيُوفكم ... عُرُوشَ الذين استَرهنوا قوسَ حَاجِبِ
إذا العَيْسُ لاقَت بي أبا دُلَفٍ فقَد ... تَقَطّعَ ما بَيني وبَيْنَ النّوائِبِ
يدي أقبَحَ الأشياءِ أو به آمِلِ ... كَسَتها يَدُ المَأمولِ حُلّةَ خَائِبِ
وأحسن مِنْ نورٍ تُفَتّحه الصَّبا ... بياضُ العطايَا في سَوادِ المَطالِبِ[٢]

وهكذا يمضي ابن شرف في عرض الأبيات الشعرية التي كان يعجب بها على لسان راويته وبطله أبي الرّيان، فيكشف لنا بذلك عن سعة إطلاع، وسعة حفظ وتعمّق في دواوين الشّعر العربيّ، وعناية بدراسته، وتتبّع أخبار الشعراء، وقد أنهى مقامته هذه بهذا المجلس، وهذا واضح في قوله: ((... وانقضى هذا المجلس، وبه تم الكتاب، ... وهو على لسان أبي الرّيان الصلت بن السكن من سلامان.)) [٣].

وبعد فهذه هي مقامة ابن شرف المعروفة بـ ((رسائل الانتقاد))، وقد أنشأها على غرار المقامات النقديّة الّتي صاغها بديع الزّمان الهمذانيّ، وتصدّى فيها للحديث عن الشّعر والشعراء[٤]، فموضوع مقامة ابن شرف هذه يذكّرنا بموضوع المقامة القريضيّة الّتي تحدّث فيها البديع على لسان راويته وبطله عيسى بن هشام عن خصائص وميزات بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين من مثل: امرىء القيس، وزهير، والنابغة، وطرفة، والفرزدق، وجرير وغيرهم[٥].

---

[١] ديوانه، ٢٠٣/١-٢٠٧.

[٢] أعلام الكلام، ص: ٥٢.

[٣] المصدر نفسه، ص:٥٥.

[٤] أُنظر: مقامات بديع الزمان، ص:٥، ص:٥١، ص:١٧٤، وغيرها.

[٥] أُنظر: المصدر السّابق، ص:٦. حيث يقول في حديثه عن أمريء القيس: ((... ما تقول في امريء القيس؟ قال: هو أوّل من وقف بالدّيار وعرصاتها، وأغتدى والطّير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشّعر كاسباً، ولم يُجِد القول راغباً، فَفَضُل مَنْ تفتقّ للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه.)). و ص:٦-٧، حيث يقول في طرفة: ((قلنا: فما تقول في طرفة، قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه.)).

وحديث ابن شرف في مقامته الّتي بين أيدينا عن هؤلاء الشعراء لا يتجاوز ما أثبته لهما بديع الزّمان من صفات ومزايا، إلاّ أنّ ابن شرف في حديثه عنهم كان أكثر إطالة، وأدق معالجة من البديع، فالبديع قد قصر حديثه على الشعراء المشاهير منهم في الجاهليّة والإسلام، وأمّا ابن شرف فقد تحدّث عن المشاهير في الجاهليّة والإسلام، هذا فضلاً عن حديثه عن الشُّعراء المخضرمين، والمولّدين في المشرق والمغرب، كما تحدّث عن الشّعْر ونقده، فكشف لنا عن موقفه من القضايا النقديّة والأدبيّة الّتي كانت تشغل نقاد عصره.

على أنّنا نستطيع أنْ نقول: إن ابن شرف في مقامته النقديّة هذه، قد شذّ عن القالب التقليديّ الذي صبّ فيه البديع مقاماته، كما أنّه لم يهتم بالبناء الدراميّ الّذي عُنِيَ به البديع، وركّز عليه في مقاماته، فقد اختفت منها قصة الكُدية والحيلة، وأصبحت تُرْوَى على لسان كاتبها، وفي هذا يقول الدّكتور إحسان عبّاس في أثناء حديثه عن المقامات الأندلسيّة والمغربيّة: ((ومن مجموع ما وصلنا من هذه المقامات يستطيع الدّارس أنْ يتبين حقائق محددة عن طبيعة المقامة الأندلسيّة. فقد انتفت منْ بعضها قصة الكُدية والحيلة المقترنة بها، وأصبحت صورة من رسالة يقدّمها شخص بين يدي أمرٍ موجود أو أملٍ يحبّ تحقيقه، كما أنّ كثيراً من المقامات الأندلسيّة اصبح وصفاً للرّحلة والتنقل في داخل بلاد الأندلس، وفي هذا أيضاً شاركت الرسالة. وكان بعضها يمثل الاتجاه النقديّ، أو يؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالغزل، والمدح، والهجاء. ولمّا التبست المقامة بالرّسالة وأصبحت تؤدي مهمتها، فقدت ((العقدة))، وفقدت الشخصيتين الخياليتين فيها، وأصبحت على لسان كاتبها، وإذا لم تكن قصة لرحلة فقدت العناصر ((الدراميّة)) جملة.))[1].

وهذا ما نجده في مقامة ابن شرف الّتي تصدى فيها للحديث عن الشّعر والشعراء، وإنْ كنا نميل إلى أنّه بهذه المقامة أراد أنْ يكتب رسالة أدبيّة ونقديّة، وقد أطلق عليها أسم مقامة، لأنّ الأشكال الأدبيّة في ذلك العهد لم تكن قد اكتملت[2].

المقامة الجرجانيّة:

وأمّا المقامة الجُرجانيّة فقد جعل ابن شرف موضوعها يدور حول قصة شيخ هرم ضرير حاول أنْ يعتدي على مضيف له من أبناء العظام المشهورين بجرجان، وقد أدار أحْدَاثها في بيت

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسي، ص:٣٠٨.

(2) أُنظر: فن المقامات، ص:٢٧٦.

ذلك الفتى الّذي جمع في شخصه الجمال والغنى، وجعل من بيته مأوىً للأُدباء والغرباء والفقراء، ولقد أسند روايتها إلى راوية أطلق عليه أسم ((الجرجانيّ))، فبدأها بقوله: ((حدّثني الجرجانيّ قال: كان فتى بجرجان من أبناءِ الأقيال[1] ، وقد جمع إلى النهاية في المال الغاية في الجمال. وكان مألفاً للأُدباء، ومأوىً للغرباءِ، ورزقاً للفقراء، فلا يخلو بيته من أهل الإعدام)) [2].

وينتقل بعد ذلك انتقالاً لطيفاً وموفّقاً، ليمهد لظهور بطله ببراعة وحذق لا يؤديان إلى أيّ خلل أو اضطراب في مقامته، فيضعنا أمام شخصيّة لا تختلف في جوهرها عن تلك الشخصية الّتي رسمها الهمذانيّ لبطله أبي الفتوح الإسكندريّ في مقاماته، فيكشف لنا بذلك عن براعة في التشخيص والتصوير، وعن مقدرة فنيّة على إدخال الشّخوص في الأحداث وجعلها تتفاعل معها، وهذا واضح في قوله: ((...فإنّي لعنده في بعض الليالي إذ إستؤذن عليه لضرير فقير فأمر باكرامه وإطعامه. فلمّا فرغ من شأنه، استدعاه إلى إيوانه، فدخل علينا رجل شيخ وافر السبّال[3]، قد عمّه البياض بالكمال، مطموس العينين، مسترخي الحاجبين، قد صَلُعَتْ هامته، وركعت قامته، وقصرت مسافة خطاه، وثقل جسمه على عصاه، فسلّم بصوت ضئيل، ودعا بلسان ثقيل، وأقبل يذكر شبابه، ويتذكّر أحبابه، وينوح على سالف زمانه، ويندب ثقات إخوانه)) [4].

ولمّا فرغ ابن شرف من إدخال الشخصيات بطريقة فنيّة لبقة، ورسمها لنا رسماً واضحاً دقيقاً، انتقل إلى عرض القضيّة الّتي أراد أنْ يجعل منها محوراً لمقامته هذه، فكان بارعاً في إدارة الحوار بين شخصيّاتها بأسلوب قصصيٍّ كشف لنا عن مقدرته على التّعبير الفصيح البليغ، وهذا ما نستطيع أنْ نراه في قوله: ((... فرقّ له الفتى فأدناه، حتّى أجلسه على يمناه، وصبّره وسلاّه، ثُمَّ سمرنا إلى وقت النّوم، فرقد سائر القوم، ونام الفتى في مكانه، مراعاة لحق ضيفانه، وكنت أدنى من الفتى مرقداً، كما كنت أدنى منه مقعداً، ولي عين أخفّ العيون هَجْعَةً، وأقربها إلى الانتباه رجعة. فأيقظتني نبرة لم أكن عهدت من الفتى مثلها، ولا أجراها مع ضيف قبلها. فعجبت من خرق العادة، وأصغيت ألتمس استزادة. فسمعت الأعمى يقول: يا سيّدي، أنا صرورة[5]، وثَمَّ ضرورة، وقد طالت الغربة،

---

[1] الأقيال: جمع قيل، وهو الملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم. أُنظر: اللّسان، مادة (قيل).

[2] الذّخيرة، ق٤ م١/٢١٢.

[3] السبّال: الشوارب، أُنظر: اللّسان، مادة (سبل).

[4] الذّخيرة، ق٤ م١/٢١٢.

[5] الصّرورة: الّذي لم يتزوّج. أُنظر: اللّسان، مادة: ((صرر)).

واضطرتني العزبة. فقال الفتى له: فما وجدت لضرورتك سِوَايَ، ولا لِعزبتك حاشاي؟ قال له: فإنْ أبيت إلاّ أنْ تمنع، فدلّني على ما أصنع. قال له الفتى: أرى أنْ تتسرّى. قال: ومن للصعلوك بالمملوك؟ قال: فتتزوج. قال: والمحوج كيف يتزوجّ؟ قال له الفتى: فإنّكَ لو خضخضت، لكان أشبه مّما إليه تعرّضت. قال الأعمى: واللّه يا مولايَ لا يسعه خُفّي، فكيف كفي؟ فصاح الفتى: السلاحَ السلاحَ: ((ألا أيُّها النوّام ويحكمُ هُبّوا.))[1].

وحتّى يضفي ابن شرف على مقامته طابع السخرية والظرف فقد ذهب إلى القول: ((فقال الفتى: أسمعت العَجَبَ العُجاب؟ قلت نعم، وحفظت العِتاب. وجعلت أقول: ما سألك الشيخ في عسير، ولا حَمَلك على خطير، فهلاّ قفيته فأرضيته؟ قال: فحسب الأعمى كلامي ردّاً، وظنّه جِدّاً، فقال: فديتك أيُّها النّاصر، حين خذلني الأواصر، وإحتقدني المعاصر، ثُمّ تنهّد وقال: آه واهَرَماه! بقينا حتّى شقينا. آه، طاح أهل البذل والسّماح، وبقي أهل البُخْلِ والجِمَاح))[2].

ويمضي كاتبنا في إدارة الحوار بين راويته وبطله محاولاً أنْ يعرِضَ لنا الحجج الّتي أتى بها بطله، ليبرر اعتداءه على مضيفه بأسلوب فصيح بليغ، فيقول: ((... أُنظر أيّ أجناس، بعد أيّ ناس، لكنّ الفقير حقير، قلّ المال، وذهب الرّجال. سمعنا فطمعنا، يا فتى، أُخبِرْنا عنك خبراً، ما رأينا له أثراً، وربّ منسوب إلى حال، مرجوعها إلى مُحَال، أين الكرم الّذي ذُكِرَ؟، والخُلُق الّذي شُكِر؟ هب ما سألناك يَشُقُّ، أين الحقُّ الذّي يحقّ؟ كذب رائدنا، وقلّتْ فوائدنا. فقال له الفتى: ويحك! اتق اللّه خالقك، فقد آنَ أنْ تترك خلائقك. فقال: يا مولايَ، لو تركتني الشهوة لتركت. ولكنْ حركتني فتحركّت. إنّي وإنْ سبقني جمهور الأتراب إلى التراب، فلي قلب لهبّي، وجسم ذهبي، لا يغيّرهما إدمان الزّمان، ولا يؤودهما حديث الحدثان. ولو عادت إليّ ساعة من أيّامي، أو حَصلَت في يَدي إبرة من حُسامي، لسبقَتْ كُلُومي فيكم كَلاَمِي.))[3].

ومن الطّريف في الأمر أنّ ابن شرف قد أنهى مقامته هذه بموت بطله، وهذا أمر لم نعهده، مِنْ قَبلُ في مقامات الهمذانيّ، وكأنّي به يريد أنْ يقول: إنّ الشرّ والفساد مصيرهما الموت، وإنّ الخير لا بدّ وأنْ ينتصر على الشرّ والمنكر، وهذا واضح في قوله: ((... ثم اهتز كأنّه نَسْرٌ مقصوص، أو حمار مَرْصوص، فقمنا وتركنا جانبه، وجعل يضرب بعصاه ما قاربه. فتركناه

---

[1] الذّخيرة، ق٤ م١/ ص:٢١٢-٢١٣.

[2] المصدر نفسه، ص:٢١٣.

[3] المصدر نفسه، ص:٢١٣-٢١٤.

وشأنه، وأدمنا عيانه، نصعّد فيه ونصوّب، ونَعْجَبُ ونُعْجِب. فلم تزل شقشقته تهدر، وعصاه تتكسر، حتّى كلّت يداه، وانحلت قواه. ولاح وجه الصّباح، وجئنا إليه بالمصباح، فإذا هو كالجدار المهدوم والخِدْر المَهشوم، وقد فارق النَّفْسَ النَّمروديّة، ومات الميتة الجاهليّة، فدفنه الفتى في أطماره، وسألنا كتمان أخباره.))[1].

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنَّ هذه المقامة في غايتها وموضوعها وهدفها تختلف إختلافاً واضحاً عن مقامته السابقة، فقد أبتعد فيها ابن شرف عن ذلك الأسلوب التقريريّ وعن تلك الصياغات المعروفة في الأخبار الأدبيّة، فنسجها على غرار المقامات الهمذانيّة، وضمّنها الكثير من عناصر الطرافة، والتشويق، وإختار لها بطلاً يلتقي في معظم صفاته مع بطل المقامات الهمذانيّة، ولعل هذا عينه ما دفع بابن بسّام إلى القول: ((... ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصبّ فيها على قالبه...)) [2].

---

[1] المصدر نفسه، ص:٢١٤.

[2] الذّخيرة، ق٤ م١، ص:١٩٦.

خصائصه في النّثر

رسائله الإخوانية:

لم تحفظ لنا المصادر الّتي بين أيدينا رسائل ابن شرف الإخوانية المطولة الّتي بعث بها إلى ملوك الطّوائف ووزرائهم في تلك الفترة، ومعظم ما وصلنا من هذه الرسائل ما هو إلاّ مقطّعات قصيرة ومختارات إختارها الّذين تصدّوا لأخبار كاتبنا، وعنوا بترجمته، وهذا واضح من إشارات ابن بسّام إلى هذه الظاهرة، حَيْثُ يقول: ((... وكان أوّلَ من بعث إلى المعتضد بإشبيليّة خمسُ قصائد من شِعْره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون، يقول في فصل منها.))[1]، ويقول في موضع آخر: ((... ومن ترسيله فصل له من رقعة خاطب بها المظفّر بن الأفطس))[2]، ويقول: ((... ومن كلامه في صدر كتابه المترجم بـ ((أعلام الكلام))، فصل يقول فيه.))[3]، وهذا واضح أيضاً من خلال تقديمه لتلك الرسائل حيث كان يردد عبارة، ((وله من أخرى... ومن أخرى... الخ[4].

ومن هذه الإشارات نستطيع أنْ نتبيّن أنّ كاتبنا قد خلّف لنا رسائل مطوّلة كثيرة إلاّ أنّ المصادر التي وصلتنا لم تحفظ لنا تلك الرّسائل كاملة بل حفظتها لنا على صورة مقطّعات قصيرة فأضاعت علينا فرصة التعرّف إلى طريقة كاتبنا ومنهجه الفنّي في رسائله.

ومهما يكن من أمر، فإننا من خلال الرسائل التي تبادلها كاتبنا مع ملوك الطّوائف ووزرائهم بالأندلس نستطيع أنْ نلمح بعض أركان منهجه الفنّي في رسائله من حيث البدء والعرض والختام، ففي الرسالة الّتي ردّ بها أبو مروان بن قزمان على كاتبنا ما يشير إلى أنّه كان يستهل بعض تلك الرّسائل بالشّعْر، وأنّه كان يكثر فيها من الحكم والأمثال، وهذا واضح من قوله ((... ورد كتابك المبتدأ خطابه من الشّعْر بما هو السّحر الحلال، والمصوّر من القريض بما

---

(1) الذخيرة، ص:١٧٢.

(2) المصدر نفسه، ص: ١٩٣.

(3) المصدر نفسه، ص:١٧٩.

(4) المصدر نفسه، ص:١٩٤.

شهد لك بالجلال، لو قصد الطّائيان قصده لأجبلا، أو حذا الحمّادان[1] حذوه لأدبرا وما أقبلا، ولم تدع فيه فنّا من الحكمة إلاّ أهديته ولا معنى لطيفاً إلاّ أبديتـه، ولا نوعـاً مـن الأدب ألاّ جلبتـه، ولا غريباً من المثل إلاّ ضربته، فلله بلاد غذّاك هواؤها!))[2].

وقد يستهلّ بعض رسائله الإخوانيّة بالحديث عن لهفته وشـوقه لمـن يكتـب لـه، ومـن ذلـك رسالته الّتي بعث بها إلى المظفّر بن الأفطس، وقد بدأها بقولـه: ((...كتبـت وشـوقي إلـى شـرف لقيـاه، وشـيم سـقياة، وشـوق القـارظين[3] إلـى سكون وسـكنى، والقيسـين[4] إلـى ليلـى ولبنـى[5]، وإعتلاقي بذكره إعتلاق مالك بعقيل[6]، وقفا نبك الملـك الضّليل، وبـلال بشـامة وطفيـل[7]، واللّـه

---

[1] وهما: حمّاد عجرد، وحمّاد بن الزبرقان. أُنظر: طبقات الشعراء، ص:٦٩.

[2] الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٦.

[3] وهما: قارظان كلاهما من عَنْزَة الأكبر منهما يَذْكَر بن عَنْزِة والأصغر: هو: رُهم بن عامل بـن عَنْزَة، كلّ منهما خرج يطلب القرظ ولم يعد، وفيهما يضرب المثل: ((حتى يؤوب القارظان))، أُنظـر: مجمـع الأمثال، ١/٢١١، فصل المقال، ص:٣٧٣-٣٧٤، وغيرهما.

[4] وهما: قيس بن الملّوح صاحب ليلـى، ويضـرب بـه المثـل فـي الحُبّ، أُنظـر: ثمـار القلـوب، ص:٨٦، وفوات الوفيات، ٣/٢٠٨، الأغاني، ٢/٥. وقيس بـن ذريـح صـاحب لبنـى، أُنظـر: الأغـاني، ٩/١٧٤، وفوات الوفيات، ٣/٢٠٤، وغيرهما.

[5] وهما: ليلى بنت مهدي بن سعد أم مالك من بني كعب بن ربيعـة صاحبـة المجنـون "قيس بـن الملـوح"، أُنظر: الأغاني، ٢/١٢، النجوم الزّاهرة، ١/١٧٠، وفوات الوفيات، ٣/٢٠٩، أعـلام النسـاء، ٤/٣٠٨. ولبنى بنت الحباب الكعبيّة صاحبة قيس بن ذريح ثم زوجته فمطلقتـه، وقيـل: مـاتت قبـل قيـس فرثاهـا ومات بعدها بأيام (-٧٠هـ)، أنظر: الأغـاني، ٩/١٧٥، وفـوات الوفيـات، ٣/٢٠٤، النجـوم الزّاهـرة، ١/١٧٠، أعلام النساء، ٤/٢٧٦.

[6] وهو: مالك بن فارج بن مالك بن كعب من بنـي القيـن مـن أسـد، نديـم جـاهليّ كـان هـو وأخ لـه أسـمه ((عقيل)) من خاصّة ((جذيمة)) الأبرش الأزدي ملك العراق، نادماه أربعين سـنة، قيـل لـم يعيـدا عليـه فيها حديثاً، يضرب بهما المثل في طول الصحبـة. أُنظـر: ثمـار القلـوب، ص:٢٤، الأعـلام، ٦/١٤١، وغيرهما.

[7] جبلان مشرفان على مجنة وهي بريد من مكة، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة كان بلال يحـن إليهـا ويقول: وهل أردنّ يوماً حياة مجنةٍ وهل يبدون لي شامة وطُفَيل. أُنظر: معجم ما استعجم، ٣/٨٩٢، والروض المعطار، ص: ٣٩٦، وغيرهما.

ببلوغ الأمل خير كفيل.))[1]، وبعد أنْ يعبّر عن تعلّقه وشوقه لرؤية هذا الأمير، ينتقل أنتقالاً لطيفاً وموفقاً إلى الحديث عن نفسه، وعن المحنة الّتي تعرّض لها، فيشير إلى أنّ وضعه الإجتماعي قد تغيّر، وإلى أنَّ محنته وغربته قد طالتا، فيقول: ((... وحال وليّه بالناحية الّتي إستقذرتها حال من ذهبت منه اللذاذة، الفتاء، والشيخ بهدفه الشتاء،))[2]، ويختتم هذه الرسالة ببيت من الشّعْر. فيقول: ((... وقد رأيت طوفان قرطبة يقيم دهراً، وإنمّا أقام طوفان نوح شهراً، وأمّا صيفها فكما قال:

لَمْ استقم عِنَاقَهُ لِقُدُومِـــهِ حتى أبتدأت عِنَاقَــه لِوِدَاعِــهِ[3]

الألفاظ والأساليب:

أشرنا فيما تقدّم عندما تحدّثنا عن الألفاظ في الشّعْر إلى أنَّ الألفاظ تحتلّ مكانة مهمه في المعمار الفنّي للشّعْر والنّثر على حد سواء، ذلك لأنَّ ((الكلمة عنصر من عناصر العمل الأدبيّ وعامل من أقوى العوامل الّتي تتوقّف عليها قيمته الجمالية، والأداء الفنّي الجميل أساسه الدّقة في إختيار الكلمة ووضعها في بيئتها وإمتزاجها مع معناها، أذ ليس هو في مجموعِه إلاّ طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبّرة.))[4]، ومن أجل هذا فقد عُني كاتبنا بإختيار كلماته وتنسيقها ووضعها في بيئتها المناسبة ومكانها الملائم حيث كان يختار لموضوعاته الّتي يطرقها ما يناسبها من الألفاظ، فهو إذا ما تحدّث عن البخيل وتعرّض لشخصيته ونفسيته بالوصف والتحليل فأنّه يتخير لذلك من الألفاظ الّتي تناسب طبيعته، وتصوّر حياته بما فيها من بُخْلٍ وشُح وحرص، وإليك بعض الأمثلة على ذلك، حيث يقول في وصف بخيل: ((... يجود الجُلْمُود ولا يجود، ويعود إلى إثماره يابس العود، وهو لا يبدي ولا يعيد، كيسه مغلق، وبنانه مطبق، وداره سملّق، وجيشه مملّق، وميزانه حبيس لا يطلق، كفتاه ككفيه لا تذيبهما النّار، ولا يعرفان الدّرهم ولا الدّينار، وأكياسه كالنَقَد، قد خنقتها العقد، يده حامرٌ وقّاح، وقفله ليس له مِفْتاح، تمرُّ الأيّام ولا يُشمّ له طعام، ولو ملك طوفان نوح، لم يسمح منه بشربه لظمآن))[5]. وأمّا عندما يتحدّث عن الكريم فإنّه يتخيّر له من الألفاظ

---

(1) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٤.

(2) الذخيرة، ق٤م١/١٩٤.

(3) المصدر نفسه، ص:١٩٤.

(4) النثر الفني، وأثر الجاحظ فيه، ٢١٦.

(5) الذّخيرة ق٤ م١/١٨٩-١٩٠.

أيضاً ما يناسب شخصيته وصفاته، وما يناسب موضوعه الّذي يكتب فيه ومن ذلك قوله في وصف رجل كريم: ((... هَرِمُ الجُود، على العِلاّت والوجود، كفّه غَيْث، لا يبالي من حيث ماله، أكثر جوده على جنوده، أغنى حيشه...))[1].

وهكذا فإنَّ الدّقة في إختيار الكلمة ووضعها في بيئتها الملائمة لها كانت من أبرز خصائص أُسلوب كاتبنا، وهذا أمر يستطيع الدّارس أنْ يلاحظه فيما وصلنا من نثره وأدبه.

ولم يكن الأمر ليقتصر على الإهتمام بالكلمة في نثر كاتبنا الّذي كان يهتم بجملته وبإقامته التناسق والتعادل فيما بينهما وبين الجمل الأُخرى الّتي تتصل بها، فقد عُنِيَ عنايةً كبيرة بإقامة التعادل والتوازن بين جمله الّتي ألّفها، حتّى إنّنا نستطيع أنْ نلاحظ هذه الظاهرة في معظم ما وصلنا من نثره؛ ذلك لأنّ ((... مهمَّةَ الأديب إنّما هي الأداء والإمتاع، وأنّه من الواجب أنْ يُوفّر عنايته بتنسيق الجمل، وإيجاد التعادل بينها حتّى يستطيع أنْ يحقّقَ عنصر الإمتاع من هذه المهمَّة...))[2]، وهذا أمر يستطيع أنْ يلاحظه بوضوح كلّ مَنْ يتصل بنثره وأدبه، وإليك بعض الأمثلة على ذلك حيث يقول: ((... غوره أقرب قريب، وقلبه مورد القليب، فسرائره مكشوفة، ودخيلته معروفة، كتمانه إخبار، وتدبيره إدبار، رأيه وراء، وساحته عراء، حسّه هامد، وفهمه جامد، لا يعرف الرّشد من الغي، ولا يفّرق بين التقبيل والكيّ، طلل بال، لا يخطر على بال، الشمس عنده سهى، والحمق نهى، لا يعلم رأسه من أين أنفاسه، ولا يدري دماغه من أين أصداغه))[3].

ولقد أكثر كاتبنا من إستعمال المحسنات اللّفظيّة والمعنوية في نثره من سجع وجناس وطباق، ليعمل على تلوين أُسلوبه، ويضفي عليه رونقاً لفظياً بزيادة الدّفقة الموسيقية عليه، فالسجع كما في قوله: ((... عَوْدٌ إذا زَحَف، وطَوْدٌ إذا وقف، وسيل إذا حمل، وكتيبة إذا إعتزل، حسامه إمام، يهدي في ظلمة القتام، ويهتدي إلى مسالك الحمام لا تردعه لامعة السيوف، ولا تفزعه مصارعة الحتوف...))[4]، فعلى ما يبدو أنّ كاتبنا كان من الّذين أغرموا بالسجع وفتنوا به حتّى أنّك لا تستطيع أنْ تجد في نثره جملة واحدة غير مسجوعة؛ ذلك لأنّ السجع كان أُسلوباً عاماً للكتابة في ذلك العصر، وقد إلتزم به معظم الكتّاب في تلك الفترة، وهذا ما عبّر عنه الدّكتور شوقي ضيف بقوله: ((... وكان الكتّاب في العصر

---

(1) الذخيرة، ص:١٨٥.

(2) النثر الفني، وأثر الجاحظ فيه، ص:٢٢٤.

(3) الذّخيرة ق٤ م١/١٨٨-١٨٩.

(4) المصدر نفسه، ص:١٨٦.

الأموي يتخففون من السّجع أحياناً كما رأينا عند ابن شهيد، أمّا في هذا العصر (عصر ملوك الطّوائف) فإنّهم يلتزمونه إلتزاماً، بل قد يجد الإنسان في عصر الأمويين كاتباً لا يسجع مطلقاً، وأمّا في هذا العصر فإنّ الكتّاب جميعاً يسجعُون))(1).

وأمّا الجناس فقد أكثر منه كاتبنا في نثره، ومن ذلك قوله ((... وأنا وإنْ بعثت بالأقمار في الأطمار.))(2)، حيث جانس هنا ما بين لفظتي ((الأقمار)) و((الأطمار)) جناساً ناقصاً، وكما في قوله: ((... وكثر سبّاق الروّاد، وفرّاط الورّاد.))(3)، وهنا جانس أيضاً جناساً ناقصاً ما بين لفظتي ((الروّاد)) و((الورّاد))، وكما في قوله: ((... عزوتها إلى من لم يَحكِهَا، وأضفت نسجها إلى مَنْ لم يَحُكْهَا.))(4)، وقد جانس هنا جناساً ناقصاً ما بين كلمة ((يَحكِها)) وكلمة ((يَحُكْها))، وكما في قوله: ((... زهّاد تركوا العَرَض، وأصابو الغَرَضَ، اقترحوا الغنَا، وأطّرحوا الغِنَى.))(5)، وقد جانس كاتبنا هنا جناساً ناقصاً ما بين الكلمات التالية: ((العَرَض)) و((الغَرَض)) وبين ((الغنَا)) و((الغِنَى))، والأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة في نثر ابن شرف، يستطيع الدّارس أنْ يلاحظها بوضوح فيما وصلنا من نثره ومؤلّفاته.

وأمّا الطّباق فلم يكن حظه لدى كاتبنا بالقليل، فقد أكثر منه في نثره، وإليك بعض الأمثلة على ما ذهبنا إليه، ومن ذلك قوله: ((... وإختلقت فيها أخباراً فصيحات الكلام، بديعات النظام، لها مقاصد ظِراف، وأسانيد طِراف، يروق الصّغير معناها، والكبير مغزاها.))(6)، حيث طابق كاتبنا هنا ما بين كلمة((الصّغير)) وكلمة ((الكبير))، وكما في قوله: ((... ليله منتشٍ، ونهاره مرتشٍ.)) وقد طابق هنا ما بين لفظتي ((نهاره)) و((ليله))، وكما في قوله: ((...يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال، وحكايات قصار، وطوال.))(7)، وهنا طابق ما بين كلمة ((قصار)) وكلمة ((طوال))، ومن أمثلة الطّباق في نثره أيضاً قوله: ((... وقد طرّزَتْ بِلَمَحِ الجِد والهزل، وحَسُنَتْ بمقابلة الضدّ للمثل، ليس في ذلك كلّه رواية رويتها عن قديم ولا جديد، ولا حُدِّثْتُ بها عن قريب ولا بعيد.))(8)، حيث طابق كاتبنا في هذا النّص ما

---

(1) الفن ومذاهبه في النّثر العربيّ، ص:٣٢٥.

(2) الذّخيرة ق٤ م١/١٧٣.

(3) المصدر نفسه، ص: ١٧٧.

(4) المصدر نفسه، ص: ١٧٩.

(5) المصدر نفسه، ص: ١٨٧.

(6) أعلام الكلام، ص:١٣.

(7) الذّخيرة ق٤ م١/١٧٩.

(8) المصدر نفسه، ص:١٨٠.

بين ((الجدّ)) و((الهزل)) وما بين كلمتي ((الضدّ)) و((المثل))، وبين كلمتي: ((قديم)) و((جديد)) وبين ((قريب)) و((بعيد)). وهكذا فقد أثقل كاتبنا نثره بالمحسنات اللّفظيّة والمعنويّة، فعُنِيَ بتزيين الألفاظ، وتزويق العبارات، وحشد فيها كل ما يستطيع أنْ يأتي به من تلك المحسنات حتّى إنّنا لا نجد عبارة واحدة فيما كتبه لا تثقلها المحسنات البديعيّة، وهذا أمر يستطيع الدّارس أنْ يلمحه في مقاماته الّتي التزم فيها السجع وأثقلها بالمحسنات البديعيّة كما رأينا.

ولقد تميّز أسلوب كاتبنا في نثره بمظاهر مختلفة من مثل الحوار كما في قوله: ((... قال أبو الرّيان: لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير، قلت: بلى ولكن ما عندك فيمَنْ سميت لك؟ قال أما الضّليل مؤسس الأساس وبنيانه...))[1]، وكما في قوله: ((... قلت لأبي الرّيان في مجلس عقب هذا المجلس، يا أبا الرّيان، لقد رأيت نقداً مصيباً، ومرميّ عجيباً، ولقد أرغب في أنْ أنال منه نصيباً، فقال: النّقد هبة في الموالد، وفيه زيادة طارف إلى تالد،... قلت أنا شديد الرّغبة إلى فضلك،... قال نعم: أوّل ما عليه تعتقد، وإيّاه تعتمد، ألاّ تستعجل باستحسان ولا باستقباح.))[2].

والتكرار كما في قوله: ((... متشاغل بالأنياب الطّاحنة في فمه، عن الأنياب الوالغة في دمه.))[3]، حيث كرر لفظه الأنياب مرتين في هذه العبارة، وكما في قوله: ((... فأكلته ثغور الأعوام، قبل ثغور الأنام.))[4]، وقد يكرر كاتبنا اللّفظة عينها أكثر من مرّة في النص الواحد، ومثال ذلك قوله: ((... أخفى من نقطة الجيم، ومن بياض الميم، أخفى مِن الأسرار عند الأحرار، أخفى من السُّهَى ومنديل الرّها، وأخفى من تفسير شِعْر لبيد على فهم البليد، وأخفى من عطارد على المطارد، وأخفى من السوسة في العود))[5]. حيث كرر لفظه أخفى في هذا النصّ أكثر من سبع مرّات.

ولقد أكثر ابن شرف من إستعمال الجمل المعترضة في نثره، ومن ذلك قوله: ((... فبكى -علم اللّه- مع باكٍ وشكا منّي إلى شاكٍ.))[6]، وفي قوله: ((... الاّ أنّي -أيّده اللّه- لا أوثر

---

(1) أعلام الكلام، ص:١٥.

(2) المصدر نفسه، ص:٢٧.

(3) الذّخيرة ق٤ م١/١٨٩.

(4) الخريدة ق٤ ج٢/١١٢.

(5) الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٤.

(6) المصدر نفسه، ص: ١٩٥.

مرادي على مراده.))[1]، وفي قوله: ((... فيعود -أيّده اللّه- بفضيلة الإيثار.))[2]، وكما في قوله: ((... ولمّا كنت -أعزك اللّه- حسّانه المقدّم...))[3].

ويستطيع الدّارس أنْ يلاحظ أنّ ابن شرف قد مال إلى أُسلوب السّخرية والإستهزاء فيما وصفه لنا، وهذا أمر يمكننا أنْ نراه في تصويره للقادة، والقضاة، والكتّاب، وغيرهم من طبقات المجتمع التي عرّض بها كما أسلفنا.

وأما المصادر الّتي أستقى منها ابن شرف الفاظه، فكثيرة ومتعددة، فقد استقى بعضها من القرآن الكريم، وذلك كما في قوله: ((... فهو يدري إذا ليلي عسعس، وشمسي إذا صبحي تنفّس.))[4]، ومن خلال هذا النّص نستطيع أنْ نلاحظ أنّه في قوله هذا ينظر إلى قوله -تعالى-: ((والليل إذا عسعس، والصبّح إذا تنفّس.))[5]، وكما في قوله: ((...يراعة ترعد، تقوم وتقعد. إذا الحرب دعت أبطالها، وزلزلت الأحشاء زلزالها، نخب ما بين جنبيه، وغاب السّواد من عينيه...))[6]، وهو في قوله هذا ينظر إلى قوله -عزّ وجلّ-: ((إذا زلزلت الأرض زلزالها))[7]. وكما في قوله: ((... فاطلاق بإمتنان، وتسريح بإحسان، أو نزل من حميم وتصلية جحيم))[8]. فهذه كلها ألفاظ مستمدّة من القرآن الكريم، ومن ثقافته الدّينية الواسعة.

وتأتي بيئة ابن شرف وما فيها من مواطن جمال، فتكوّن مصدراً ثانياً من المصادر الهامّة الّتي أستمد منها معظم الفاظه، وهذا واضح في قوله: ((... وكثر سبّاق الرّواد، وفرّاط الورّاد، فما تركوا للمتأخرين من الرياض زهرة، ولا من الحياض قطرة.))[9]، وفي قوله: ((... وقد رفعت إليه البكر ابنة الفكر، وفي هودجها الفَرِج، وجلبابها الأُرج، وأنت الكفؤ الكريم، وأشرف

---

(1) الذخيرة، ص: ١٩٥.

(2) المصدر نفسه، ص:١٩٥.

(3) المصدر نفسه، ص:١٧٣.

(4) المصدر نفسه، ق٤ م١/١٧٣.

(5) سورة التكوير، آية/١٦-١٧.

(6) الذّخيرة، ق٤ م١/١٩٠.

(7) سورة الزّلزلة، آية/١.

(8) الخريدة، ق٤ ج٢/١١٣.

(9) الذّخيرة، ق٤ م١/١٧٧.

من أُهدي له الحريم.))[1]، وفي قوله: ((... وقد قَدَحْتُ زَنْدَ الفكر فأورى شَرَرَاً، وأمتَحْتُ قُلَيْبَ القلب فأجرى نهراً.))[2]، وكما في قوله: ((يَجُود الجُلمود، ولا يجود، ويعود إلى اثماره يابس العود، وهو لا يبدي، ولا يعيد، كيسه مغلق، وبنانه مطبّق...))[3].

وهذه ألفاظ استقاها ابن شرف من بيئته الّتي عاش فيها على إختلاف أنواعها الطبيعيّة، والإجتماعيّة، والثقافيّة، ومن طبيعة بلاده الجميلة وما فيها من مباهجَ ومفاتنَ.

كما استقى بعض ألفاظه من ثقافته الواسعة ومن ذلك قوله: ((... أشهر في العطاء من الطائيّ[4]، وفي الأيادي مِنَ الإياديّ[5]، أشهر من الآس[6] في الأعراس، أوضح من النجوم لبطليموس[7] والطب لجالينوس[8]، والعاج في الابنوس.))[9]، وكما في قوله: ((... فلم يُحِط

---

(1) الذخيرة، ص: ١٨٠.

(2) المصدر نفسه، ص: ١٧٨.

(3) المصدر نفسه، ص: ١٨٩.

(4) وهو: حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائيّ القحطانيّ، أبو عديّ، فارس، جواد، جاهليّ، يضرب المثل بجُوده، كان من أهل نجد. أنظر: ترجمته وأخباره في، تهذيب ابن عساكر، ٤٢٤/٣، الأغاني، ٢٧٨/١٧، ثمار القلوب، ص:٧٥.

(5) كل شئ كان واقياً أو كل مَعقِلٍ أوْ جَبَلٍ حصينٍ، وإياد أسم رجل وهو: إياد بن معدّ وهو اليوم باليمن. أُنظر: جمهرة أنساب العرب، ص:١٢، اللّسان مادة: ((أيد)).

(6) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضيّ الورق، أبيض الزهر، عطريّ. أُنظر: المعجم المحيط، ٢٠٦/٢. والمعجم الوسيط، ١/١، وغيرهما.

(7) وهو: بطليموس القلوزيّ، فلكي جغرافي يوناني الأصل، مصريّ النشأة، عاش بالإسكندرية أبان القرن الثاني الميلادي، من مشاهير علماء الأغريق/ وممن كان لهم أثر في تاريخ الفكر الإسلامي، أنظر: القاموس الإسلامي، ٣٢٥/١.

(8) وهو: طبيب يونانيّ مشهور، أُنظر ترجمته وأخباره في عيون الأنباء، ص: ١٠٩، دائرة المعارف، ٢٥١/٦، القاموس الإسلامي، ٥٥٨/١، وغيرهم.

(9) الذّخيرة ق٤ م١/١٨٣.

بوصفها ابن صفوان[1]، ولا سحب فيها لسانه سحبان[2]، وأين لسان بأقل من سحبان وائل؟ فالفصحاء في العجز عنها معذورون، فكيف المعذّرون؟))[3]. الأمر الّذي يكشف لنا عن ثقافة واسعة متنوعة كان كاتبنا قد تسلح بها، وعن سعة إطلاع.

---

[1] وهو: خالد بن صفوان بن عبدالله بن عمرو بن الأهتم بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر التميميّ، كان مشهوراً بالبلاغة والفصاحة، نشأ بالبصرة وطالت أيامه حتّى قيام الدولة العبّاسيّة أُنظر: وفيات الأعيان، ١٢/٣، الشعر والشعراء، ٥٢٩، القاموس الإسلامي، ٢٠٥/٢.

[2] وهو: سحبان بن زُفَر بن أياس الوائليّ الباهليّ، أحد فصحاء الخطباء، كان يضرب به المثل في الخطابه والبلاغة والفصاحة، أُنظر: ثمار القلوب، ص: ٧٩، القاموس الإسلامي، ٢٧١/٣، دائرة المعارف، ٥١٥/٩.

[3] الذّخيرة، ق٤ م١/١٨٣.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

نقده

أولاً: نظراته النقديّة.

ثانياً: مقاييسه في نقد الشعر.

ثالثاً: نقده التطبيقي.

نظراته النقدية:

لقد تجسّدت آراء ابن شرف ونظراته النقديّة في مقامته النقديّة الّتي وسمها بـ ((رسائل الانتقاد))[1] ، حيث بثّ في هذه المقامة الكثير من القضايا النقديّة الّتي كانت تشغل بال مَنْ سبقوه وعاصروه من النّقاد العرب، وبيّن موقفه منها.

وَمِنْ أهمّ القضايا النقديّة الّتي استوقفت ابن شرف، وشغلت باله مثلما شغلت بال من سبقوه، قضيّة القِدَم والحداثة، وهي قضيّة قديمة في الأدب العربيّ، وقد استأثرت باهتمام كبير من النقّاد العرب، فأولوها مزيداً من العناية والبحث، وحاول كلّ واحد منهم أنْ يتخذ منها موقفاً، فمنهم مِنْ ناصر القديم وتعصّب له[2]، ومنهم مَنْ ناصر الحديث وتعصب له[3]، وثالث وقف موقفاً وسطاً منها[4].

ولقد كان ابن شرف من أنصار المذهب الثالث الّذي وقف من هذه القضيّة موقفاً معتدلاً، ودرس الشّعْر دراسة فنيّة تقوم على أنّ الجَوْدَةَ موجودة في القديم والحديث معاً، وعلى النَّظر في طبيعة الشّعْر نفسه، بغض النّظر عن قِدَمِه أو حداثته، وهذا واضح في قوله: ((وتحفّظ من شيئين: أحدهما أنْ يَحْمِلَكَ إجلالُك القديم المذكور، على العجلة باستحسان ما تسمع له، والثّاني أنْ يَحْمِلَكَ إصغارُكَ المعاصر المشهور على التهاون بما أُنْشدت له، فإنّ ذلك جَوْرٌ في الأحكام، وظُلْمٌ مِنَ الحكّام، حتّى تمحص قوليهما، فحينئذ تحكم لهما أوْ عليهما.))[5].

---

[1] نشرها الخانجي تحت عنوان: أعلام الكلام، وهي هي

[2] وعلى رأس هؤلاء علماء اللغة. أُنظر: فحولة الشعراء، ص:١٨-٢٠، الصناعتين، ص:٥١، العمدة، ٩٠/١.

[3] أنظر الصّولي في أخبار أبي تمّام، ص: ٢٨.

[4] أُنظر: الشعر والشعراء، ٦٢/١-٦٣، الكامل في اللّغة، ٢٩/١.

[5] أعلام الكلام، ص: ٢٨.

وَمِنْ أجلِ هذا فقد رفض أنْ يكون تقدّم الزّمن أو تأخّره بالشّعْر والشاعر مقياساً لقبول الشّعْر أو رفضه، وحمل على علماء اللّغة والنّحو الّذين تعصبّوا للقديم لمجردّ قدمه حملة عنيفة لافتاً أنظارهم إلى أنّ القديم كان جديداً في عصره، وهذا واضح في قوله:

قُلْ لِمَن لا يَرى المعاصِرَ شيئاً ... وَيَرى للأوائلِ التقديما
إنّ ذاكَ القديمَ كانَ جديداً ... وَسَيَغدو هذا الجديدُ قَديما[1]

ويحاول أن يعلّل تعصّب علماء اللّغة للقديم لمجردّ قدمه، فيشير إلى أن التشبثّ بالقديم، والتعلّق به، واستصغار الحديث المعاصر لمعاصرته، يكاد يكون صفة ملازمة للنّاس، وطبيعة فطروا عليها، فيقول: ((... فهذا باب في إعتلاقه استصعاب، وفي صرف العامّة، وبعض الخاصّة عنه أتعاب، وقد وصف تعالى في كتابه الصّادق تشبّث القلوب بسيرة القديم، ونفارها عن المحدث الجديد، فقال حاكياً لقولهم: ((إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وانا على آثارهم مهتدون.))[2]، وقال أيضاً: ((...بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.))[3]))[4].

ويؤكد ابن شرف أنّ الّذين حطّوا من قيمة الحديث، وتعصبّوا للقديم، كانوا مدفوعين بدافع الحسد، فيقول:

أغريَ النّاسُ بامتداحِ القديمِ ... وبِذم الجديدِ غيرِ ذميمِ
ليسَ إلاّ لأنّهم حَسَدوا الحي ... ورقوا على العِظَامِ الرميمِ[5]

ويستمر ابن شرف في مهاجمته للمتعصبين للقديم متهماً إياهم بالتعصّب الأعمى، والسّذاجة، والجهل وهذا واضح في قوله: ((وستجد ناصراً لا يصدّق معاصراً، ولا يفضّل على متقدم عصر متأخراً، بيني على ضعف اسمه، ويفديه من الجهل والعيب بنفسه، فإذا اعترضك من

---

(١) أعلام الكلام، ص:٢٨.
(٢) سورة الزّخرف، آية: ٢٢.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٠.
(٤) أعلام الكلام، ص: ٢٨.
(٥) المصدر نفسه، ص:٢٨.

هذا النّمط معترض، فأعرض عنه، ودعه على أخلاقه مستمتعاً بخلاقه، وأتبع المسلك الّذي أوضحته لك.))[1].

ويدعو النقاد إلى تحرّي العدل والصّواب في أحكامهم ومقاييسهم الّتي يحكمون بها على الشّعْر، وإلى الابتعاد عن العواطف والمشاعر السابقة، وإلى الإقبال على دراسة الشعر دراسة فنية من حيث هو أثر فنيّ بغضّ النظر عن زمنه وقائله، وبعد ذلك يمكنهم الحكم على الشّعْر، وتمييز غثّه من سمينه، وجيّده من رديئه، فيقول: ((فلا يرعك أنْ تجري على منهاج الحق في جميع الخلق، فبه قامت السموات والأرض، وبه أُحكم الإبرام والنقض.))[2].

ومّما تقدّم نستطيع أنْ نرى أنّ ابن شرف قد رفض مبدأ التعصب سواء للقديم أو الحديث، مشيراً إلى أنّ الجودة الفنيّة هي المقياس الّذي يجب أنْ يحكم فيه على الشّعْر، لا القِدَم والحداثة.

وحتّى يؤكّد لنا ابن شرف نظرته هذه، فقد عرض لنا أمثلة تطبيقيّة من الشّعر القديم، والشّعر الحديث؛ ليثبت لنا أنّ القدماء يخطئون؛ وفي أشعارهم الكثير مِنَ الأخطاء والعيوب الّتي تؤخذ عليهم على الرُّغم من قدمهم وشهرتهم، وأنّ المحدثين يخطئون، وفي أشعارهم ما يعابون به، وهذا واضح في قوله: ((ولفضلاء المُولّدين سقطات مختلفات في أشعارهم.))[3].

ومن أجل هذا فقد توقّف عِنْدَ امرئ القيس أقدم الشعراء عصراً، وأكثرهم شُهرةً، وطفق ينعى عليه بعض الهنّات والسقطات الّتي وقع فيها، على الرّغم من أنّ النّاس يعتقدون أنّ الخطأ لا يتطرّق إلى شِعْره، وهذا واضح في قوله: ((هذا أمرؤ القيس أقدم الشعراء عصراً، ومقدمهم شعراً، وذكراً، وقد اتسعت الأقوال في فضله اتساعاً لمْ يَفُزْ غيره بمثله، حتّى إنّ العامّة تظنّ بل تُوقن أنّ جواد شِعْره لا يكبو، وأنّ حُسام لفظه لا ينبو، وهيهات من البشر الكمال، ومن الآدميين الاستواء والاعتدال.))[4].

ويتوقّف عند بعض الأمثلة من شِعْرِهِ، فيقول: ((ومن كلام امرىء القيس المخلخل الأركان الضّعيف الإستمكان، المتزلزل البنيان قوله:

---

[1] أعلام الكلام، ص: ٣٣.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٨.

[3] المصدر نفسه، ص: ٣٩.

[4] المصدر نفسه، ص: ٣٨

أمرخٌ خيامُهُم أمْ عَشَـــــــرُ أم القلبُ فـي أثْرِهـم مُنحَــــدِرُ
وَهِرٌ تَصيدُ قلوب الرجَـــــال وأفـلِتَ مِنْهَـا ابن عمرو وحُجرُ[1]

ويعلّق على هذه الأبيات، فيقول: ((فأنت تسمع هـذا الكـلام الّذي لا يتناسـب ولا يتواصـل، ولا يتقارب، ولا يحصل منه معنىً ولا فائدة سوى أنَّ السامع يدري أنّه يذكـر فرقـة مـن أحبـاب، لكنَّ ذلك عَنْ ترجمة معجمة مضطربة منقلبة. سأل عن الخيام أمَرخٌ هي أمْ عَشَرُ، وليست الخيـام مرخاً ولا عشراً. وإنّما هما عودان، فإن أراد في مكان هذين الخيام فقد نقـض عمـدة الكـلام؛ لأنَّ مَرْخَهُ وَعَشَرَهُ بهما نكرتين فأشكل بذلك. ثُمّ قال: أم القلب في أثرهم مُنْحَدِرُ، وليـس هـذا السؤال الأول في شيء إلاّ من بُعْدٍ بعيد، واحتيال شديد. وقال بعد هذا:

وَشَاقَكَ مِنَ الخَليطِ الشطـــــــرُ وَممن أقامَ مِنَ الحي هِـــــــرُ[2]

فأتى بكثير كلام لا يفيد إلاّ قليل معنى، وذلك القليل لا غريب ولا عجيب. وهـو كلّـه ذكـر فراق، ثُمَّ رجع إلى أنَّ هرّةً مقيمة تصيد قلبه وقلب غيره، فأبطل بإقامتها كـلّ مـا قـال مـن أخبـار الفراق ونقضه، وَجَعَل بكاءه المتقدّم لغير شيء. ثُمّ قال: ((وأفلت منها ابن عمر وحُجـر))، فحسـن عنده أنْ يخبر أنَّ النّاس قد صادت هرٌ جميع قلوبهم، إلاّ قلب ((حُجر))، أبيه. وهذا مـن الأحـاديث الرّكيكة، والأخبار الّتي ما بأحد حاجة إليها، ومع هذا فقد أورد أصحـاب الأخبـار أنَّ ((هِرّ)) هـذه كانت زوجة أبيه حُجْر. فانظر ما في جملة هذه الأبيات من الرّكاكات، وقلّة الإفادات. فإنها لا تفيد قُلامة، ولا تهزُّ ثُمامة.))[3].

ومما تقدّم فإنّنا نستطيع أنْ نرى أنَّ الشّعر الجيدّ في نظر ناقدنا هو الشّعْر الّذي يوازن فيـه صاحبه بين ألفاظه ومعانيه، فيجعل الألفاظ على قدر المعاني.

وإمعاناً من ابن شرف في إثبات نظرته الّتي ذهـب إليهـا، فقد توقّـف عنـد علـم آخـر مـن أعلام القدماء، يقدّمه النقاد لقدمه، ولشهرته ألا وهو زهير ابـن أبـي سلمى وحـاول أنْ يُظهـر لنـا بعض هَنَاته وسقطاته الّتي وقع فيها؛ ليثبـت أنَّ القدمـاء يخطئـون مثلمـا يخطـئ المحدثـون، وهـذا

---

[1] ديوان امرىء القيس، ص:١٥٤-١٥٥.
[2] المصدر نفسه، ص:١٥٥.
[3] أعلام الكلام، ص: ٣٢-٣٣.

واضح في قوله: ((قال زهير على ما وصفناه به، ووصفه غيرنا من العلوّ والرفعة في هذا الصنعة من مذهبته الحكميّة، ومعلّقته العلميّة[1]:

رأيتُ المَنَايا خَبطَ عَشواءَ مِن تُصِب تُمِتهُ وَمَنْ تُخطئ يُعمّر وَيَهرمِ[2]

فتوقّف عند هذا القول طويلاً، وأخذ على زهير مخالفته للمنطق، ومعارضته للعقل فيما ذهب إليه، ونقده بقوله: ((وقد غَلِطَ في وصفها بخبط العَشْوَاءِ على أنّنا لا نطالبه بحكم ديننا؛ لأنّه لم يكن على شرعنا بل نطلبه بحكم العقل فنقول: إنّما يصحّ قوله: لو كان بعض النّاس يموت وبعضهم ينجو. وقد علم وهو عالم حتّى البهائم أنّ سهام المنايا لا تخطىء شيئاً من الحيوان حتّى يعمها رَشْقَها، فكيف يوصف بخبط رامٍ لا يَقْصِد غرضاً من الحيوان إلاّ أقصده حتّى يستكمل رَمْيَاتِه في شواكل رُمَيَاته، وإنّما أدخل الوهم على زهير موت قوم عبطة، وموت قوم هرماً، فظنّ طول العمر إنّما سببه أخطاء المنيّة، وسبب قصره إصابتها. وهيهات الصواب مِنْ ظنّه. لم يؤخّر الهرم إلاّ أنّها ما قصدته، فحين قصدته أصابته، ولو أنّ الرُّماة تهتدي كاهتدائها، لملأت أيديها بأقصى رجائها.))[3].

ويشير ابن شرف إلى أنّ لزهير هذا على الرّغم من شهرته وقدمه أخطاء كثيرة، وعيوباً جمّة غير هذه، معلناً حملته مِنْ جديد على أولئك الّذين يتعصّبون له ولغيره من القدماء دونما تمييز أو تمحيص في أقواله سعياً وراء الجودة لمعرفة الغثّ من السمين، ويصفهم بالتعصّب الأعمى، وبعدم البحث والتدقيق، فيقول: ((...ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء، هذا على اشتهاره بأنّه أمدح الشعراء، وأجزل الوافدين على الأشراف والأُمراء، وسيتعامى المتعصّب له عن وضوح هذا البيان، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاءً وظلماً، ومطالبة وهضماً ويزعم أنّ جميع الشّعْر لو طُلِبَ هذه المطالبة لبطل صحيحه، وأنعجم فصيحه. والباطل الّذي زعم، والمحال الّذي به تكلّم. فالسليم سليم والكليم كليم... فعامل هذا الصنف بعطفك عنه العطف، ورفعك عليه الأنف، وأعرض عنه بالفكر والذّكر كِبْرَاً، وإنْ لم تكن من أهل الكِبْر.))[4].

---

[1] شرح المعلّقات السبع، ص: ١١٨، وجمهرة أشعار العرب، ص: ٢٠٤.

[2] أعلام الكلام، ص:٣٣.

[3] أعلام الكلام، ص: ٣٣-٣٤.

[4] المصدر نفسه، ص: ٣٣-٣٧.

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ ابن شرف كان يتعصّب ضدّ القديم لقدمه، ويحطّ من شأنه وشأن شعرائه، ويغمط حقهم في السبق إلى المعاني والصور الشعرية، لينتصر الحديث، وهذا واضح من قوله في امرىء القيس: ((... وأما الضليل مؤسس الأساس وبنيانه عليه النّاس، كانوا يقولون أسيلة الخد حتّى قال أمرؤ القيس: ((أسيلة مجرى الدّمع))، وكانوا يقولون: تامّة القامة، طويلة القامة، وأشباه هذا، وجيداء، وتامة العنق. حتّى قال امرؤ القيس: ((بعيدة مهوى القُرْط. وكانوا يقولون في الفرس: السّابق يلحق الغزال، ويسبق الظليم، وأمثال هذا حتّى قال: ((بمنجرد قيد الأوابد هيكل)). ومثل هذا له كثير، ولم يكن قبله من فطن لهذا، وبنى مَنْ بعده على هذه الإشارات والاستعارات، فحسنت به أشعارهم جداً، وسلكوا منهاجاً قصداً، فتطرّزتْ أقوالهم وكانت الأشعار قبلها سواذج، فبقيت هذه جُدَداً وتلك نواهج وكلّ شِعْر بعدها خلا منها فغير رائق النسج، وإنْ كان مستقيم النَّهج. ولامرىء القيس استعارات في أشعاره رائقة، وتشبيهات صحيحة لائقة، تركنا ذكرها لشهرتها، ولئلا يطول الكتاب بها.))[1]، ويقول في موضع آخر في حقّ امرىء القيس: ((... ولسنا ننكر هذه العيوب، ونزارتها، ما أقررنا له به من الفضائل وندارتها.))[2]. وإلى مثل هذا ذهب في زهير[3].

وليس القدماء وحدهم هم الّذين يعابون في بعض أقوالهم على ما وقعوا فيه من هَنَات وسقطات أُخِذَتْ عليهم، فالمحدثون أيْضاً يخطئون، وفي شِعْرِهِم ما يعابون عليه من السقطات والهنّات، وهذا واضح في قوله: ((ولفضلاء المولّدين سقطات مختلفات في أشعارهم، أذكر لك مِنْها في أشياء؛ لتستدِلّ بها على غرضك لا لطلب الزّلات، ولا لاقتفاء العثرات. كان بشار تتباين طبقات شِعْره فيصعد كثيرها، ويهبط قليلها كثيراً، وكذلك كان حبيب الطّائي، فإذا سمعت جيّدها، كذّبت أنَّ رديهما لهما، وإذا صحّ عِنْدَكَ أنّ ذلك الرّديّ لهما، أقسمت أنَّ جيّدهما لغيرهما.))[4].

وممّا يؤكد لنا أنَّ ابن شرف قد نظر إلى الشّعْر نظرةً موضوعيةً تقوم على النظر في طبيعة الشّعْر ودراسته دراسة فنيّة على أنّه عمل فنيّ بغضّ النظر عن الزمن الذّي قيل فيه، وعن

---

(1) أعلام الكلام، ص: ١٥-١٦.

(2) المصدر نفسه، ص: ٣٣.

(3) انظر: المصدر نفسه، ص: ١٧.

(4) المصدر نفسه، ص: ٣٩.

شهرة قائله ومكانته، وقوله في أبي الطيّب المتنبّي: ((وكان لحنه وشعره شريفين، وعقله ودينه ضعيفين، ومع ذلك فسقطاته كثيرة إلاّ أنّ محاسنه أكثر وأوفر.))[1].

وحديث ابن شرف هذا عن الشّعراء القدماء والمحدثين، يكشف لنا عن تعمّق في دواوينهم، وأشعارهم، فنستطيع أنْ نرى من خلاله أنّه قد أقبل على دراسة الشّعْر القديم، وأتصل به اتصالاً وثيقاً، ومرّن عقله وذوقه عليه، مثلما أقبل على دراسة الشّعْر الحديث، وحاول أنْ يوازن بينهما من حيث المعاني والمبتكرات الّتي تضمّنها كلّ منهما، فانتهى إلى أنّ الجَوْدَة فيهما معاً، ورفض فكرة التعصّب للقديم لمجرد قِدَمِهِ، والعزوف عن الحديث لحداثته. وهو بهذه النظرة النقدية يلتقي مع ابن قتيبة الّذي يقول: ((... ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخّره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كُلاًّ حظّه، ووفرت عليه حقّه. فإنّي رأيت من علمائنا من يستجيد الشّعْر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيّره، ويَرْذِل الشّعْر الرَّصين، ولا عيب له عنده إلاّ أنّه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائله. ولم يقصر اللّه العلم والشّعْر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره، وكلّ شريف خارجياً في أوّله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدّون مُحْدثين.

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كَثُر هذا المُحْدَثُ، وَحَسُنَ حتّى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بِبُعْدِ العهد مِنْهم، وكذلك يكون من بعدهم لِمَنْ بَعْدَنا، كالخريميّ والعَتابيّ والحسن ابن هانئ وأشباههم. فكلّ مَنْ أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخُّر قائله أوْ فاعله، ولا حداثة سنّه، كما أنّ الرّدي إذا ورد علينا للمتقدّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدّمه.))[2].

هذا ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف قد تأثر بنظرة ابن قتيبة هذه تأثراً واضحاً وملموساً إلاّ أنّه استطاع أنْ يحولها من نظريّة مجرّدة إلى واقع تطبيقيّ لا سيما عندما أقبل على دراسة الشّعْر القديم والشّعْر الحديث، وأخذ يوازن بينهما، فأعطى كلّ ذي حقّ حقّه بناءً على جَوْدة شِعْره، لا على أساس شهرته أو تقدّم عصره.

---

[1] أعلام الكلام، ص: ٤٥.

[2] الشِعْر والشعراء، ١/٦٢-٦٣.

ويبدو لي أنَّ هذه النظرة كانت شائعة في عصره بالقيروان، فقد تبناها معظم نقاد عصره وعلى رأسهم معاصره وشيخ عصره عبد الكريم النهشليّ[1] الّذي يقول: ((قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فَيَحْسُنُ في وقت ما لا يَحْسُنُ في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما أستجيد فيه، وكثر استعماله عند أهله بعد أنْ لا تخرج من حُسْن الاستواءِ، وحدّ الاعتدال، وجودة الصنعة، وربّما استعملت في بلد الفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره.))[2].

وإلى مثل هذا ذهب معاصره وقرينه ابن رشيق، حَيْثُ يقول: ((إنّما مَثَلُ القدماء والمحدثين كَمَثَلِ رجلين: إبتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه.))[3].

اللّفظ والمعنى:

ومن القضايا النقديّة الكبرى الّتي تصدّى لها ابن شرف، وبدأ بمعالجتها ومناقشتها، محاولاً أنْ يحدّد موقفه منها، قضية اللّفظ والمعنى، وهي من القضايا النقديّة الّتي شُغِل بها النقاد على مرّ العصور، فحاول كلّ واحد منهم أنْ يتخذ منها موقفاً وأنْ يدلي برأيه فيها، فجاءت آراؤهم متباينة مختلفة، فمنهم وقف إلى جانب اللّفظ، وقدّمه على المعنى، ومنهم من وقف إلى جانب المعنى وقدّمه على اللّفظ، وثالث وقف من هذه القضيّة موقفاً وسطاً، فذهب إلى أنّهما توأمان لا انفصال بينهما، وفي هذا يقول ابن رشيق: ((ثم للنّاس فيما بعد آراء ومذاهب: منهم من يؤثر اللّفظ على المعنى فيجعله غايته وولْده، ومنهم من ذهب إلى سهولة اللّفظ فعُنِيَ بها، واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط، ومنهم من يؤثر المعنى على اللّفظ فيطلب صحته، ولا يبالي حَيْثُ وقع من هجنة اللّفظ وقبحه وخشونته.))[4].

وبهذا يلخصّ لنا ابن رشيق آراء النقاد العرب الذين سبقوه وعاصروه، ويصور لنا خلاف النقاد حول هذه القضية في عصره، وفي العصور التي سبقته.

---

[1] وهو: عبد الكريم بن إبراهيم النّهشليّ، أبو محمّد، ت ٤٠٥هـ، كان شاعراً مقدّماً عارفاً متقدّماً باللّغة خبيراً بأيّام العرب وأشعارها، أُنظر: مسالك الأبصار ق١ ج٢٩٢/١١، والعمدة، ٩٣/١.

[2] العمدة، ٩٣/١.

[3] العمدة، ص: ٩٢.

[4] المصدر نفسه، ص: ١٢٤/١-١٢٦، أُنظر: النقد الأدبي الحديث، ص:٢٥٤.

وأما موقف ابن شرف من هذه القضية فيتجلى في قوله: ((وإنّ منَ الشّعْر ما يملأ لفظه المسامع، ويرد على السامع منه قعاقع، فلا ترعك شماخة مبناه، وأنظر إلى ما في سكناه من معناه، فإنْ كان في البيت ساكن، فتلك المحاسن، وإنْ كان خالياً فأعدده جسماً بالياً، وكذلك إذا سمعت ألفاظاً مستعملة، وكلمات مبتذلة، فلا تعجل باستضعافها حتّى ترى ما في إضعافها فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب.))[1].

وفي هذا القول على ما يدل دلاله واضحة على أنَّ ابن شرف كان مِمَّنْ ينتصرون للمعنى ويكبرونه إكباراً شديداً، ومن أجل هذا فقد أخذ على ابن هانئ الأندلسيّ أنّه لم يكن مكين المعاني، وهذا واضح في قوله: ((وأمّا ابن هانئ الأندلسيّ ولادة القيروان، وفاده وإفادة، فرعديّ الكلام سُرَديّ[2] النظام، متين المباني، غير مكين المعاني، يجفو بعضها عن الأوهام، حتّى تكون كنقطة النظام، إلاّ أنه إذا ظهرت معانيه في جزالة مبانيه رمى عن منجنيق يؤثر في النيق[3].))[4].

ومن الأدلة الّتي تشير إلى أنّ ابن شرف قد أكبر المعنى وفضّله على اللّفظ، قوله في كشاجم: ((وأما كشاجم فحكيم شاعر، وكاتب ماهر، له في التشبيهات غرائب، وفي التأليفات عجائب، يجيد الوصف ويحققه، ويسبك المعنى فيرققه، ويرونقه.))[5].

ولعل ميله إلى جانب المعنى ونصرته له، هو الّذي ملأ عليه نفسه إعجاباً بابن روميّ، صاحب توليد المعاني الجديدة المبتكرة، وهذا واضح في قوله: ((وأمّا ابن روميّ فشجرة الاختراع، وثمرة الابتداع.))[6].

ولقد اتخذ ابن شرف من المعنى مقياساً وحَكَماً لقبول الشّعْر أوْ رفضه، فكثيراً ما كان يبدي إعجابه بالبيت الشّعْريّ، لمّا يتضمنه من معنى، وهذا واضح في قوله: ((... ولا تخلني أُقدّم الأجود فالأجود، لكنّي أقدّم اما اعتفاني، وأؤخر ما عفاني، وسأبدأ بالأبيات المفردات،

---

[1] أعلام الكلام، ص:٢٧.

[2] السُّردي: أي يجيد سياق الحديث. أُنظر: القاموس المحيط، ٣١١/١، والمعجم الوسيط، ٤٢٨/١.

[3] النّيق: الطويل من الجبال. أُنظر اللّسان، مادة (نوق).

[4] أعلام الكلام، ص: ٢٦.

[5] المصدر نفسه، ص:٢٤.

[6] المصدر نفسه، ص:٢٤.

والمزدوجات، وأوخَر القطع العشريات، والقصائد المعرّبات، فقد رويت ما استغربت معناه، واستطرفت مغزاه.))[1].

هذا وعلى الرّغم من أنَّ ابن شرف قد انتصر للمعنى وقدّمه على اللّفظ إلاّ أنّه لم يكن ليهمل اللّفظ ويسقطه، إنّما كان يرى أنَّ الجَوْدَة في الشّعْر تكتمل وتتحقق باجتماعها معاً، وأنَّ ما يعتري أحدهما من ضعف أو خلل ينعكس على الآخر، ويؤثّر فيه، ذلك لأنّ العلاقة الّتي تربط بينهما وثيقة، فالألفاظ قوالب وأجسام للمعاني، تقوى بقوّتها وتضعف بضعفها وهذا واضح في قوله: ((... والمعاني هي الأرواح، والألفاظ هي الأشباح، فإنْ حَسُنا فذلك الحظّ الممدوح، وإنْ قَبُحَ أحدهما فلا يكن الرّوح.))[2].

ومما تقدّم نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان يكبر اللّفظ كما يكبر المعنى، وينادي بضرورة الموازنة بينهما في العمل الأدبيّ، لأنّ في ذلك الغاية المنشودة الّتي يسعى إليها الشّعْر، ولأنّ الجودة الفنيّة في الشّعر لا تتحقق إلاّ بهما مجتمعين، وهذا ما نصّ عليه ابن شرف في طيّات مقامته النقديّة عندما تعرّض لنقد الشّعْر والشعراء، فكثيراً ما كان يفضل الشاعر الّذي يُعْنَى باللّفظ والمعنى معاً، ويوازن بينهما، وهذا واضح في قوله: ((وأمّا الشيخ أبو عقيل[3] فشعره ينطق بلسان الجزالة عن جنان الأصالة، فلا تسمع له إلاّ كلاماً فصيحاً، ومعنى متيناً صحيحاً.))[4]، وفي قوله: ((وأمّا البحتريّ فلفظه ماء ثجاج، ودرّ رجراج، ومعناه سراج وهّاج على أهدى مِنْهَاج.))[5]، وفي قوله: ((وأمّا أبو فراس بن حمدان ففارس هذا الميْدان إنْ شئت ضرباً وطعناً، أو شئت لفظاً ومعنىً.))[6].

ويكاد ابن شرف في نظرته النقديّة هذه يتفق مع قرينه ومعاصره ابن رشيق الّذي نظر إلى اللّفظ والمعنى على أنّهما شيء واحد لا ينفصل بعضه عن بعض، وهذا واضح في قوله: ((اللّفظ

---

[1] أعلام الكلام، ص:٤٧.

[2] أعلام الكلام، ص: ٢٧-٢٨.

[3] وهو: لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ، كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم، أدرك الإسلام، ووفد على النبي (صلى اللّه عليه وسلم)، أُنظر: الشعر والشعراء، ٢٧٤/١. والخزانة، ٣٣٧/١-٣٣٩.

[4] أعلام الكلام، ص: ١٦.

[5] المصدر نفسه، ص: ٢٤.

[6] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوّته، فإذا سلم المعنى وإختل بعض اللّفظ كان نقصاً للشّعر وهُجْنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَجِ والشّلَلِ وما أشبه ذلك من غير أنْ تذهب الروح، وكذلك إنْ ضَعُفَ المعنى وإختلّ بعضه، كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، فإنْ أختلّ المعنى كلّه وفسد بقي اللّفظ مواتاً لا فائدة منه، وإنْ كان حسن الطّلاوة في السمع، كما أنّ الميت لم ينتقص من شخصه شيء في رأي العين، إلاّ أنّه لا ينتفع به، ولا يفيد فائدة، وكذلك إنْ إختلّ اللّفظ جملة وتلاشى لم يصحّ له معنى، لأنا لا نجد روحاً في غير جسد البتّة.))[1].

ويتضح لنا من خلال ما تقدّم أنّ ابن شرف قد أطلع على آراء النقاد الّذين سبقوه[2] وعاصروه في هذه القضية، وناقشها مناقشة دقيقة قادته إلى نظرته الّتى تقوم على تقديم المعنى والعناية به، لكنّها لا تهمل اللّفظ ولا تسقطه في حالة من الأحوال، وهو بهذه النظرة شديد التأثّر بموقف المرزوقيّ مِنْهَا، حَيْثُ يقول: ((...فلمّا كان الشّاعر يعمل قصيدته بيتاً بيتاً، وكلّ بيت يتقاضاه بالأتحاد، وَجَبَ أنْ يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى وأنْ يبلغ الشاعر في تلطيفه، والأخذ من حواشيه، حتّى يتسع اللّفظ له، فيؤديه -على غُموضه وخفائه- حَدّاً يصير المُدْرِك له والمُشْرِف عليه، كالفائز بذخيرة إغتنمها والظّافر بدفينة إستخرجها.))[3].

ولكنّه مع ذلك لم يفقد إستقلال شخصيته النقديّة بتأثره بنظرة المرزوقيّ، ذلك لأنّه إستطاع أنْ يحوّلَ هذه النظرة النقديّة إلى واقع عمليّ، فجعلها مقياساً هامّاً مِنْ مقاييس الجَوْدة في الشّعر، بل مقياساً أساسياً لقبول الشّعر أوْ رفضه كما أسلفنا.

السرقات الشعرية:

لقد شغلت قضية السرقات النقاد العرب على مختلف العصور الّتى مرّ بها الأدب، ((فموضوع السرقات الشعريّة يشغل جانباً كبيراً في الأدب العربي وتاريخه، فلا تكاد تجد كتاباً

---

(1) العمدة، ١/١٢٤.

(2) أنظر: الحيوان، ٣/١٣١-١٣٢، عيار الشّعر، ص: ١١-١٢، نقد الشّعر، ص: ١٥-٢٥، وأخبار أبي تمام، ص:٨٧-٨٨، الصناعتين، ص:١٦٧، أعجاز القرآن، ص:٨٨.

(3) شرح ديوان الحماسة، ١/١٨-١٩.

في البلاغة أوْ في النقد الأدبيّ خالياً من البحث في هذا الموضوع، ومن الجدل الشديد في مسائله والعناية به.))[1].

ولقد حاول كل ناقد من النقاد أنْ يدلي برأيه فيها، وأنْ لا يخلي كتابه من الحديث عنها؛ ذلك لأنّ معرفتها كانت تُعَد دليلاً على أنّ الناقد صاحب كفاية وإطلاع، وفي هذا يقول القاضي الجرجاني: ((... ولَسْتَ تُعَدّ مِنْ جهابذة الكلام، ونقاد الشّعر حتّى تميّز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علماً برتبه ومنازله، فتفصل بين السَّرق والغَصْب، وبين الأغارة والإختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة...))[2].

ولمّا جاء ابن شرف في القرن الخامس، ووجد أنّ النقاد قد شغلوا بقضية السرقات، بدأ بمناقشتها، وحاول أنْ يتخذ منها موقفاً، فانتهى إلى أنّها من العيوب الّتي تقع في الشّعر، وهذا واضح في قوله: ((ومن عيوب الشّعر السّرق، وهو كثير الأجناس في شعْر النّاس.))[3].

ويتحدّث ابن شرف عن أنواع السرقات الّتي تأتي في الشّعْر، فيرى أنّها نوعين: سرقة لفظ، وسرقة معنى، فيقول: ((فمنها سرقة ألفاظ، ومنها سرقة معنى. وسرقة المعنى أكثر، لأنّها أطغى مِنَ الألفاظ.))[4].

ويتحدّث عن السرقة الممدوحة الّتي تقع في الشّعر، فيشير إلى أنّ السرقة الّتي تكون بزيادة المعنى على اللّفظ هي مِنْ أفضل السّرقات، فيقول: ((... ومنها سرقة المعنى كلّه، ومنها سرقة البعض، ومنها مسروق بإختصار في اللّفظ وزيادة في المعنى، وهو أحسن السّرقات.))[5].

وأمّا السرقة الّتي يَلْجَأ فيها الشّاعر إلى سرقة البيت بإختصار معناه وزيادة لفظه فهي من السّرقات المذمومة، وهذا واضح في قوله: ((ومنها مسروق بزيادة ألفاظ وقصور عن المعنى، وهو أقبحها.))[6].

---

(1) أصول النقد الأدبي، ص: ٢٦٠.

(2) الوساطه/ ص:١٨٣.

(3) أعلام الكلام، ص:٤٢.

(4) المصدر نفسه، والمكان ذاته.

(5) المصدر نفسه، ص:٤٢.

(6) المصدر نفسه، ص:٤٢.

وفي هذا القول ما يدل دلالة واضحة على أنَّ ابن شرف كان يقدّم المعنى على اللّفظ، ويعنى به عناية كُبْرَى.

ويشير ابن شرف إلى أنَّ الشاعر الّذي يأخذ قولاً لغيره بلفظه ومعناه لا فضل له في ذلك، وإنّما يكون الفضل والسبق فيه لمن أُخِذَ عنه، ويمثل على هذا ببيت لأبي نواس أخذه بتمام لفظه ومعناه عن أبي الشيص[1]، فيقول: ((... ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص والفضل في ذلك للمسروق مِنْهُ، ولا شيء للسارق كسرقة الحسن أبي نواس في هذه القصيدة الّتي ذكّرتنا معنى أبي الشيص بكماله. قال أبو الشيص[2]:

وَقَفَ الهَوى بي حيثُ أنتَ فليسَ لي ... مُتأخرٌ عَنهُ وَلا مُتَقَدّمُ

فسرقة الحسن بتمامه، فقال:

فَمَا جَازَهُ جُودٌ ولا حل دُونَهُ ... ولكن يَسيرُ الجُودُ حيثُ يسيرُ

فهذا على أنَّ بيت أبي الشيص أحلى وأطبع، ومع حلاوته جزالة.))[3].

ويؤكد أنَّ سرقة المعاصر لِمَنْ يعاصره ضرب من أضرب العجز والتقصير فيقول: ((وقد ذُكِرَ عن الحسن أنّه قال: ما زلت أحسد أبا الشيص على هذا البيت حتّى أخذته منه، وسرقة المعاصر قصور همّه.))[4].

وابن شرف بهذه النّظرة يردد ما أكده أبو هلال العسكريّ، حيث يقول في هذه القضية: ((أنَّ مَنْ أخذ معنىً بلفظه كان له سارقاً، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان أولى به ممّن تقدّمه. وقالوا إنَّ أبا عُذْرَةَ الكلام مَنْ سبك لفظه على معناه، ومَنْ أخذ معنىً بلفظه فليس له فيه نصيب. على أنَّ إبتكار المعنى والسّبق إليه ليس هو فضيلة ترجع إلى المعنى، وإنّما هو فضيلة ترجع إلى الذي إبتكره وسبق إليه.))[5].

---

(1) وهو: محمّد بن عبدالله بن رُزَيْن. أُنظر: الشّعر والشعراء، ٨٤٣/٢، والأغاني، ١٠٤/١٥-١٠٨.

(2) الشّعر والشعراء، ٨٤٣/٢.

(3) أعلام الكلام، ص: ٤٢.

(4) المصدر نفسه، ص:٤٢.

(5) الصّناعتين، ص:٢٠٣.

ومهما يكن من أمر، فإنّ حديث ابن شرف عن قضية السرقات هذه يكشف لنا عن سعة إطلاع، وتعمّق في دواوين الشّعر وكتب الأدب والنقد.

نقده النّفسي، ((المبدأ التعويضي)):

لقد تحدّث النّقاد في طبيعة العلاقة الّتي تربط بين الشّعر وعقائد الدين، وقواعد الخلق[1]، إلاّ أنّهم لم يلْمَحُوا العامل النفسي الّذي لمحه ابن شرف عندما تصدّى لهذه القضيّة. فهو يرى أنّ الشخص الّذي يعاني من وجود عيب أو نقص في شخصيتّه يحاول أنْ يتغلّب عليه، ويغطيه بكثرة الحديث عنه، والتباهي به، وهذا واضح في قوله: ((والممنوع من الشيء حريص عليه، مدّع فيه.))[2]، وفي قوله: ((وكلّ مَنْ حَرِصَ على نيل شيء فمُنِعَ منه فِعْلاً، إدّعاه قولاً.))[3].

وحتّى يثبت ابن شرف هذه النظرة النفسية فقد إستغلّ الروايات والأخبار[4] الّتي كانت تشير إلى أنّ أمرأ القيس كان مفركاً عند النساء، غير مرغوب في مواصلته ومعاشرته، لذلك فقد أخذ يُعْلِن وبكلّ صراحة عن مغامراته معهنّ، ويتغنّى بوصلهنّ ومطارحتهنّ الغرام؛ ليغطي ما يحسّ به من نقص، ويخفي ما يعتلج في نفسه من حرمان.، وهذا واضح في قوله: ((قال أمرؤ القيس:

سَمَوتُ إليها بَعدَمَا نامَ أهلُهَا ... سُمُوّ حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ
فَقالَت لَحَاكَ اللـه إنّكَ فاضِحي ... ألَستَ تَرى السُّمّارَ والناسَ أحوالي
حَلَفتُ لَها باللهِ حِلْفَةَ فاجِرٍ ... لَنامُوا فما إن مِنْ حديثٍ ولا صالِ[5]

فأخبرها هنا أنّه هيِّن القَدْر عِنْدَ النِّساء، وعِنْدَ نفسه برضاه قولها ((لحاكَ اللّه))، فحصل على ((لك الويلات)) مِنْ تلك[6]، وعلى لحاك اللّه من هذه، فشهد على نفسه أنّه مكروه، مطرود، غير مرغوب في مواصلته، ولا محروص على معاشرته، ولا مرضي بمشاكلته.))[7].

---

(1) جمع الجواهر، ٣٣-٣٤، أخبار أبي تمّام، ص:١٧٣، الوساطه، ٦١-٦٢، نقد الشّعر،١٣-١٤.
(2) أعلام الكلام، ص:٣١.
(3) المصدر نفسه، ص:٣٠.
(4) أنظر: الشّعر والشعراء، ١٢١/١.
(5) ديوان امريء القيس، ص:٣١-٣٢.
(6) يشير إلى قوله: ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقالَتْ لَكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجِلِي أُنظر: ديوانه، ص: ٢٣.
(7) أعلام الكلام، ص: ٣٠.

ويشير ابن شرف إلى أنّ امرأ القيس بهذه الأقوال قد خرج على قواعد الخُلُق، وإستهان بها خاصة عندما أعلن عن فسقه، وصرّح بفجوره مِنْ غير تحرّج فيقول: ((ثُمَّ أخبر عن نفسه أنّه يرضى بالحنث والفجور وهذه أخلاق لا خلاق لها. وأقرّ بما يكتمه الأحرار، ولا ينمّ بقبحه إلاّ الأوضاع الأشرار فقال:[1]

فَلمّا دَنَوتُ تَسَدّيتُهَا فَثَوبَاً لَبِستُ وَثَوباً أجُرْ،[2]

وأيّ فُجْرٍ في الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبّه[3].

ويحاول ابن شرف في أثناء حديثه عن امرئ القيس أنْ يقارن بين موقفه من معشوقته وتصريحه لمغامرته المفضوحة معها، وبين موقف أبي يعقوب الخريميّ[4] من جارته، وتمنّعه من النظر حتّى إلى وجهها، فيقول: ((... وأين هذا من قول أبي يعقوب الخريميّ.))[5]:

ولا أسألُ الوِلدانَ عَنْ وَجْهِ جَارَتي بَعيداً وَلا أرعَاهُ وَهوَ قَرِيبُ[6]

ويؤكد ابن شرف إعتراف امرئ القيس بهذه القصص الصريحة المكشوفه، إنّما يعود إلى فشله مع النساء، وإلى ما يحس به من حرمان، فيقول: ((وإنّما سهّل عليه كلّ هذا حرصه على ماكان ممنوعاً منه، وذلك أنّه كان مُبْغَضاً للنساء جدا، مفروكاً ممنّ ملك عصمتها، لأسباب كثيرة ذكرت، وكلّ مَنْ حرص على نيل شيء فمنع منه فعلاً، ادّعاه قولاً.))[7].

وأمعاناً من ناقدنا في إثبات هذه النظّرة النفسيّة فقد توقّف عند الفرزدق ذلك الشاعر الذي كان محروماً من معاشرة النّساء، ومن مواصلتهن، لموانع في شخصيّته كانت تحول دون ذلك، ولكنّه مع ذلك كان يدعي الزّنا ويتغنّى بمغامراته الفاضحة مع النساء؛ حتّى يشبع حرمانه،

---

(1) ديوان امرئ القيس، ص: ١٥٩.

(2) أعلام الكلام، ص:٣٠.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) وهو: إسحاق بن حسّان، ويكنى أبا يعقوب، عُمِيَ بعدما تقدمت به السن. أنظر: الشّعْر والشعراء، ٨٥٣/٢.

(5) ديوانه، ص: ١٤.

(6) أعلام الكلام، ص:٣٠.

(7) أعلام الكلام، ص: ٣٠.

ويغطي ما يعتمل في نفسه من نقص وحرمان، وفي هذا يقول ابن شرف: ((وله أشباه فيما أتاه، يدّعون ما ادّعاه إفكاً وزوراً، وكذباً وفجوراً، ومنهم الفرزدق، وهو القائل:[1]

هُما دَلّياني مِنْ ثَمَانينَ قامــــــةً   كما انقض بازِ أقتمُ الريشِ كاسره[2]

ويتوقّف ابن شرف عند هذا البيت وقفة النّاقد المدقق البصير الّذي يعنى بدقائق الأمور، وخفايا الأشياء، وينقده بقوله: ((فهذا أوّل كذبه، ولو قال ثلاثين قامةً لكان كاذباً، لتقاصر الأرشية عن ذلك. وكان مغرماً بالزّنا مدّعياً فيه، وقد بلي بموانع تصرفه عنه، ومنها: ما شهر به من النّميمة بمن ساعده، والأدعاء على من باعده، ومنها دمامته، ومنها إشتهاره، والمشهو يصل إلى شهوة يتبعها ريبة، فكان يكثر في شعره من إدّعاء الزّنا، وإستدعاء النّساء، وهنّ أغلظ عليه من كبد بعير، وأبغض فيه وأهجى له من جرير.))[3].

ومثل هذين الشّاعرين في إفتخارهما بالزّنا، وإدّعائهما فيه على الرّغم من حرمانه من مواصلة النّساء، سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان المقرور يترفع عن مجالسته تقززاً، ولكنّه مع ذلك كان يتغنّى بقصصه الصّريحة المكشوفة مع النساء، ويدّعي الزّنا معهنّ، ليشبع حرمانه، وفي هذا يقول ابن شرف: ((وحذا طرق هؤلاء الأجناس، سحيم عبد بني الحسحاس، أسود في شَمْلَهٍ دَنسَة قملة، لا يؤاكله الغرثان تقززاً، ولا يصاليه الصّرد العريان. وهو مع ذلك يقول[4]:

وأقبلنَ مِنْ أقصى الخيامِ يُعْدنني   نَواهِدُ لا يَعرِفنَ خَلَقاً سوائيــا
يَعُدْن مريضــاً هُـنّ هَيّجــنَ دَاءهُ   ألا إنّما بَعضُ العوائِـدِ دَائيــا
تُوسدني كفاً وتَحنو بِمعصَــــــمِ   عليّ وترمي رِجلَهَا من ورائيــا[5]

ويشير ابن شرف إلى أنَّ الدّافع الّذي يكمن وراء هذا التصريح بمثل هذه الأمور، إنمّا هو حرمانه ممّا يتغنّى به، ويدّعيه، فيقول: ((فأنْتَ تسمع هذا الأسود الشنّ، وإدعاءه، وتعلم أنَّ اللّه لو

---

(1) العقد الفريد، ٢٨٥/١، والموشّح، ص: ١٥١.
(2) أعلام الكلام، ص:٣١.
(3) المصدر نفسه.
(4) ديوان سحيم، ص: ٢٠-٢٣.
(5) أعلام الكلام، ص:٣١.

أخلى الأرض، فلم يُبْقِ رجلاً في الطول والعرض لم يكن هذا العبد زَلَمَةً عند أراذل السودان إلاّ كبعرة بعير في معرّس عير. والممنوع من الشيء حريص عليه، مدّع فيه...))[1].

وحتّى يؤكدّ ابن شرف نظريته النفسية الّتي ذهب إليها فقد أتى بأمثلة أخرى لشعراء يمثّلون النقيض لهؤلاءِ كانوا يتمتعون بصفات ومزايا تشدّ النساء إليهم، وتقربهنّ منهم، ولكنّهم مع ذلك تحفّظوا بأسرارهنّ ولم يلجأوا إلى التصريح بمغامراتهم معهنّ، ويمثّل على ذلك بالمرقّش الأكبر[2] الّذي كان جميلاً، وللنساء فيه تعلق ورغبة، ومن أجل هذا فقد استغنى عن التصّريح بمغامراته المكشوفة، وعن التظّاهر بالإفصاح عمّا كان يجري له معهنّ، وهذا واضح في قوله: ((... والمُسْعَدُ بما يهواه كاتِمٌ لَهُ مستغن ببلوغ مناه. والدّليل على ذلك أنّ المرقّش الأكبر كان من أجمل الرّجال، وكانت للنساء فيه رغبة وشدّة محبّة، وكان كثير الإجتماع بهنّ، والوصول إليهنّ، وله في ذلك أخبار مرويّة، ولم يكن في أشعاره صفة شيء من ذلك.))[3].

وهذه نظرة جديدة في النّقد الأدبي تحاول أنْ تفسر الشّعر تفسيراً نفسيّاً على أساس الحرمان أوْ الفشل، ولعلّ ابن شرف بهذه النظرة النفسية النقديّة أوّل ناقد عرض الفكرة بمثل هذا المفهوم النقديّ، وحاول أنْ ينقد الأدب، ويفسّر بعض الظواهر الشعريّة الّتي وردت فيه –ولكنّه لم يتوسّع في تطبيقها على الشّعر، ولو أنّه فعل ذلك، وحاول أنْ يفسّر الشّعر بهذا المفهوم النفسي، لأتى بنظرية نفسية نقدية لم يسبقه إليها غيره من النّقاد.

ولكنّ هذا لا يمنعنا من القول إنّ ابن شرف بهذه النظرة التعميميّة، قد خالف الواقع والمألوف خاصّة عندما ذهب إلى أنّ الفرزدق لا يمكن أنْ يُحَبَّ لدمامته، وسوء خلقه، وأنّ سحيماً لن يجد أمرأة في الدّنيا تحبّه وتواصله، فقادته هذه النظرة التعميمية إلى الحكم على الطبائع المختلفة بمعيار واحد، فالواقع يقتضي أنْ يجد كلّ واحد منهما من تحبّه وتبادله العِشْق والغرام.

يضاف إلى ما تقدّم أنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف كان من النقّاد الّذين يتخذون من عقائد الدين، وقواعد الخلق مقياساً لتقييم الشّعر ونقده، ويحثون الشعراء على التقيّد بهما، ولا

---

[1] أعلام الكلام، ص:٣١.

[2] وهو: ربيعة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، وهو أحد عُشّاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته أسماء بنت عوف. أُنظر: الشّعْر والشعراء، ١/٢١٠.

[3] أعلام الكلام، ص: ٣١.

يبيحون لهم الخروج عليهما، وإنْ كان يحاول أنْ ينفي عنه ذلك، فيقول: ((فإنْ قال قائل: إنّما وصفت عن امرىء القيس عيوباً في خُلقه لا في شعره، قلنا: هل أراد بما وصف في شعره إلاّ الفخر. فإنْ قال: لم يرد ذلك، وإنّما أراد إظهار عيبه، قلنا: فأحمق النّاس إذن هو.))[1]، ويقول: ((... على أنّنا لا نطالبه بحكم ديننا لأنه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل...))[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه النّظرة تكشف لنا عن شخصيّة ناقد مدقق بصير، واسع الثقافة، كثير الإطلاع، قادر على عرض الأمور ومعالجتها معالجة منطقية مقنعة.

الاستهلال والخاتمه:

لقد أهتمّ النقاد العرب بالحديث عن بدايات القصائد ومطالعها إهتماماً كبيراً، فحثّوا الشعراء والكتّاب على إتقانها وتجويدها؛ لما لها من تأثير كبير في نفسيّة المتلقّي والقاريء، فالقاضي الجرجانيّ يرى أنّ حسن الإستهلال والتخلّص والخاتمة من صفات الشّعر الجيّد، فيقول: ((والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الإستهلال والتخلّص، وبعدهما الخاتمة، فإنّها المواقف الّتي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء.))[3]، وأبو هلال العسكريّ يرى أنّها من دلائل الإعجاز والبيان، فيقول: ((أحسنوا معاشر الكتّاب الإبتداءات فإنّهنّ من دلائل الإعجاز.))[4]، وأمّا ابن رشيق قرين ناقدنا ومعاصره فيرى: ((أنّ الشّعر قُفْل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أنْ يجوّد إبتداء شِعْره.))[5].

ومن أجل هذا فقد أوصى ناقدنا الشعراء بتجنب البدايات الثقيلة الغامضة، وعدّ ذلك عيباً من العيوب الرديئة المذمومة الّتي يجب على الشاعر أنْ يبتعد عنها في شِعْرِه، وهذا واضح في قوله: ((ومما يعاب من الشّعر الإفتتاحات الثقيلة.))[6]، ويمثّل على هذه الظاهرة المذمومة بقصيدة أبي تمام الّتي إستهلها بقوله:

---

(1) أعلام الكلام، ص: ٣٢.

(2) المصدر نفسه، ص: ٣٣.

(3) الوساطة، ص: ٤٨.

(4) الصناعتين، ص: ٤٥١.

(5) العمدة، ٢١٨/١.

(6) أعلام الكلام/ ص: ٣٩.

هُنّ عَوَادِيَ يُوسُفَ وَصَوَاحِبُـــهُ فَعَزْمَـاً فَقِدماً ما أدرك الثأرَ طالبهُ[1]

وبقصيدة ديك الجنّ الّتي بدأها بقوله:

كأنّها ما كانّها خَلَل الخِلّـــــــــ ـةِ وَقْفَ الهُلوكِ إذ بَغَمـــــــا[2]

ويشير إلى أنّ هذه البدايات تقود إلى التعقيد والغموض لأنّ أسلوبها غير واضح، ومعناها غير بيّن، وهذا واضح في قوله: ((فأبتدأ هو وحبيب بمضمرات على غير مظهرات قبلها، وهو رديء.))[3].

ويشترط ابن شرف في البداية الجيّدة أنْ تكون صادرة عن الذّوق المرهف، بعيدة عما يوحي بالتشاؤم والتطيّر، ملائمة للغرض الّذي نظمت القصيدة من أجله، وهذا ما عرف بمبدأ اللياقة عند العرب[4]، لذلك فليس من اللياقة في نظر ابن شرف أنْ يبدأ أبو نواس قصيدته التي رفعها إلى جعفر البرمكيّ مهنئاً ببناء بيت جديد بقوله:

أربْعَ البِلَى إنّ الخُشُوعَ لَبـــــادِ عليك وإني لم أخُنـــكَ وِدادي[5]

ذلك لأنّ أبا نواس في هذا المطلع، قد خالف الغرض الّذي نظم قصيدته من أجله، وأوحى لممدوحه بما يشعر بالتشاؤم والتطيّر، وفي هذا يقول ابن شرف: ((وتُعاب الإفتتاحات المتطيّر بها والكلام المضاد للغرض، كابتداء أبي نواس قصيدته الّتي أنشدها جعفر بن يحيى بن خالد البرمكيّ يهنئه ببناية الدّار الجديدة...))[6].

ويسوق ابن شرف على هذه الظاهرة المذمومة امثلة أُخرى لشعراء سبقوه وعاصروه، فيشير إلى أنّ المتنبي في قوله:

كَفَى بِكَ داءً أنْ تَرى الموتَ شافياً وَحَسبُ المَنَايا أن يكنّ أمانيـــا[7]

---

(1) ديوان أبي تمام، ٢١٦/١، والصناعتين، ص:٤٥٤.

(2) ديوان ديك الجن، ص:١٨٧.

(3) أعلام الكلام، ص: ٤٠.

(4) أنظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: ٤٥.

(5) ديوان أبي نواس، ص:٢٢٠.

(6) أعلام الكلام، ص: ٤٠.

(7) ديوان المتنبي، ٢٨١/٤.

قد استفتح ببداية خشنة، تنفر منها النَّفْس لما فيها من طَيَرَةٍ وتشاؤم، وهذا واضح في قوله: ((... فهذا خطاب بالكاف يقبح، ولا سيّما في أوّل لُقْيَةٍ وفي إبتداء استعطاف ورد به.))[1]، ويؤكد ابن شرف أنّ المتنبّي بمطلعه هذا قد خالف الأدب، وخرج على مبدأ اللياقة عندما إستهل قصيدته بمثل هذا البيت؛ ذلك لأنّه جعل ممدوحه داءً عظيماً، فأدخل في نفسه التشاؤم، والجفاء، وهذا واضح في قوله: ((وقد تأدّب خواصّ النّاس وكثير من عوامهم في أمثال هذا المكان، فهم يقولون عند مخاطبات بعضهم بعضاً بما يخشن ذِكْرُهُ، قلت للأبعد كذا وكذا...))[2].

ولم يكن ابن شرف في نقده ليكتفي بالإشارة إلى مواطن الخطأ فيما يتصدّى له، بل كان يحاول بما أوتي من ذوق شعريّ ونقديّ أنْ يرشد الشاعر إلى التعبير الصحيح، والأسلوب الأفضل، وهذا واضح في قوله: ((... واصلاح هذا الفساد، وبلوغه إلى المراد أنْ يقول:

كَفَى بالمنايا أنْ يكنّ أمانيـــــــا وَحَسبُكَ داءً أنْ تَرى الموتَ شافياً

فيعود الداء المستعظم كما أراد، وتزول خشونة إبتدائه، وشدّة جفائه، إذا خاطب الممدوح بالكاف فجعله داءً عظيماً في أوّل كلمة سمعها منه.))[3].

وأنّ أبا مقاتل لم يكن شاعراً حاذقاً حين إستهلّ قصيدته بقوله:

لا تَقُل بُشرى ولكن بُشريـــــانِ غُرّةُ الداعي وَيَوم المهرجـــانِ[4]

ذلك لأنّه بدأ قصيدته بما يشعر بالتشاؤم، فأتى بمطلع قبيح تشمئزّ منه النَّفْس، وفي هذا يقول ابن شرف: ((ولو كان هذا الشاعر حاذقاً، لكان إصلاح هذا الفساد من أيسر الأشياء عليه، وذلك بأن يعكس البيت فيقول:

غرّةُ الداعي وَيَوم المهرجـــــان أي بُشرى هي لا بل بُشريـــان[5]

---

[1] أعلام الكلام، ص: ٤٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ٤٣.

[3] المصدر نفسه، ص: ٤٣.

[4] الصناعتين، ص:٤٥٢، ويتيمة الدهر، ١٤٦/١.

[5] أعلام الكلام، ص:٤١.

وفي هذا ما يدلّ على أنّ ناقدنا لم يكن يكتفي بالتحذير من الوقوع في الخطأ، وإظهار القبح الذي وقع فيه بعض الشعراء في مطالعهم، إنما كان يكشف لنا عنه، ويعمل على تصويبه، فكشف لنا بذلك عن نظر نقديّ، وذوق رفيع، وعن عين بصيرة بمواقع الكلام ومحاسنه.

هذا ومن الأمور القبيحة المستكرهة التي حذّر ابن شرف من الوقوع فيها، ودعا الشعراء إلى تجنبها، وتبرئة مطالعهم منها الجفاء في النسيب، ويمثل على ذلك بقول أبي نواس، فيقول: ((وممّا يقبح الجفاء في النّسيب على الحبيب، والتضجرّ ببعده، وغلظة العتاب على صدّه، كقول أبي نواس[1]:

أجارة بيتنا ابوك غَيورُ ... وميسورُ ما يُرجى لديكِ عَسيرُ
فإن كُنتِ لا خِلاً ولا أنتِ زوجةٌ ... فلا برحت منّا عليكِ سُتُورُ
وجاورت قوماً لا تزاور بينَهم ... ولا قربَ إلاّ أنْ يكون نُشُورُ[2]

وينقده بقوله: ((فلم أسمع بأوحش من هذا النّسيب، ولا بأخشن من هذا التشبيب، وذلك قوله: إنْ لم تكوني لي زوجة ولا صديقة، فلا برحت منا ستور التراب عليك، ولا كان جارك ما عشنا نحن إلاّ الموتى الذين لا يتزاورون، ولا يتواصلون إلى يوم النشور مع أن كلامه يشهد عليه بأنه شاك.))[3].

ذلك لأنّ أبا نواس خالف الغرض الذي نظم من أجله قصيدته، كما خالف طبيعته وأدبه، وفي هذا يقول ابن شرف: ((وانّما المعروف في أهل الرقّة والظرف، والمعهود من أهل الوفاء والعطف أن يفدوا أحبابهم بالنفوس من كلّ مكروه وبؤس. فأين ذهبت ولادته البصريّة، وآدابه البغداديّة حتّى إختار الغدر على الوفاء؟ وبلغت طباعه إلى أجفى الجفاء، فأعلم هذا وإيّاك أنْ تعمل به.))[4].

وهذا إعتبار يحسب للبيئة والثقافة حساباً كبيراً، ويرى أنّهما تلعبان دوراً كبيراً في صقل شخصيّة الأديب، وتؤثران فيها تأثيراً واضحاً.

وممّا تقدّم نستطيع أنْ نلمح معايير الجودة الّتي إشترطها ابن شرف لقبول المطلع الجيّد، فهو يريده أنْ يكون واضح المعنى، بعيداً عن التعقيد والغموض، ملائماً للغرض العام الّذي نظمت

---

(1) ديوان أبي نواس، ص: ٣٢٧.
(2) أعلام الكلام، ص:٤١.
(3) المصدر نفسه، ص: ٤١-٤٢.
(4) المصدر نفسه، ص: ٤٢.

القصيدة من أجله، صادراً عن ذوق مزهف فلا يوحي للمتلقّي أو القاريء بالتشاؤم والإنقباض، وهذه أُمور دعا إليها معظم النقاد العرب الّذين سبقوه وعاصروه[1]، إلاّ أنّ ابن شرف ينفرد عنهم بهذه التدقيقات الّتي طالعنا بها، وبهذا التحليل الدقيق كما رأينا.

هذا وإذا كانت بداية القصيدة بمثابة مفتاح لها فإنّ خاتمتها هي قفلها، وفي هذا يقول ابن رشيق: ((وأمّا الإنتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أنْ يكون مُحْكَماً لا تُمْكِن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أوّل الشّعر مفتاحاً له وجبَ أنْ يكون الآخر قفلاً عليه.))[2]، ويقول: ((...وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس، لقرب العهد بها، فإنْ حَسُنَتْ حَسُنَ، وإنْ قَبُحَتْ قَبُحَ، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلّم-.))[3].

ومن أجل هذا فقد اشترط ابن شرف على الشاعر أنْ يقيم توازناً وتلاؤماً بين خاتمة قصيدته وموضوعها الذي نظمت من أجله، فيبعدها عن كلّ ما يشعر بالتشاؤم والحزن في مواطن الفرح والتهنئة، وعن كلّ ما يوحي للمتلقي بالإنقباض والتطيّر، لذلك فقد جَهْلَ أبو نواس وأخطأ في نظر ابن شرف عندما أنهى قصيدته الّتي رفعها مهنئاً بقوله[4]:

سَلامٌ على الدنيا إذا ما فُقِدتُـــم ... بَني بَرمَكٍ مِنْ رائحينَ وَغَـــادِ[5]

وذلك لأنه بهذه الخاتمة قد خالف الغرض الّذي نظم قصيدته من أجله، فأتى بما يوحي بالتطيّر والإشمئزاز، وفي هذا يقول ابن شرف: ((فكّمل جَهْلَهُ، وتممَّ خطأه، وزاد القلوب، المتوقعة للخطوب سرعة توقّع، وأضاف للنفوس المتوجّعة بذكر الموت شدّة توجّع، وأراد أنْ يمدح فهجا، ودخل أنْ يسرّ فشجى.))[6].

---

(1) أنظر: الشّعْر والشعراء، ١/٧٤-٧٥، ٥٢٢-٥٢٣، عيار الشعر، ص: ٢٧، ١١١-١١٩، والموازنة، ١/٤٠٦، الرسالة الحاتمية، ص: ٦٦-٦٩، الوساطه، ص: ١٥٢-١٦٠، الصناعتين، ص: ٤٥١-٤٥٧، واليتيمة، ١/١٤٥-١٤٧، ص: ١٧٤-١٧٦، العمدة، ١/٢١٧-٢٤١.

(2) العمدة، ١/٢٣٩.

(3) المصدر نفسه، ١/٢١٧.

(4) ديوان أبي نواس، ص: ٢٢٠.

(5) أعلام الكلام، ص:٤٠.

(6) المصدر نفسه، ص: ٤٠.

مقاييسه في نقد الشِّعْر:

مقياس اللّغة والنَّحْو:

لقد اشترط ابن شرف في الشّعر الجيد أنْ يكون مطابقاً لمقاييس اللّغة والنَّحْو، ولما هو شائع مألوف من قواعدهما، ومن أجل ذلك فقد تشدد في محاسبة الشعراء، ورفض أنْ يخالفوا في أشعارهم قواعد اللّغة، ويخرجوا عليها، ونظر إلى الألفاظ الملحونة الّتي تقع في الشّعر على أنّها من العيوب المذمومة الّتي تحطّ من قيمته، وتقلل من شأنه، وهذا واضح في قوله: ((... ومن عيوب الشّعر اللّحن[1] الّذي لا تسعه فسحه العربيّة.))[2].

وفي هذا ما يدّل على أنّ ابن شرف كان يحرص حرصاً كبيراً على مراعاة العرف اللغويّ في الشّعر، ويدعو الشعراء إلى السُمّوّ بأشعارهم عن كُلّ ما يعيبها، ولذلك فقد أخذ على جرير قوله[3]:

وَلَو وُلِدتْ لِعَنزَةَ جَرْوَ كلــــبٍ   لَسَبَّ بِذلِكَ الجَرْوُ الكِلابَــا[4]

وذلك لأنه خالف مقاييس اللّغة والنَّحو، فنصب ما حقّه أنْ يرفع، وهذا مخالف لما هو شائع ومألوف من قواعد اللّغة.

كما أخذ على الفرزدق قوله[5]:

وعضّ زَمَانٌ يا ابن مروانَ لَمْ يَدَعْ   مِنَ المالِ إلاّ مُسحِتاً أوْ مُجلِفُ[6]

وأشار إلى أنّ المتعصبين له من النَّحْويين واللّغويين حاولوا أنْ يلتمسوا له العذر، وأنْ يبرّروا له هذا الخطأ على أنّه إِقواء، وحذّر الشعراء من الإنزلاق في مثل هذه المواطن المستقبحة الّتي لا تليق بهم، وإنْ تحيل لهم النحويّون بشتى العلل والمبررات، فقال معقباً على قول الفرزدق:

---

(1) اللحن بتسكين الحاء، الخطأ في الإعراب، أنظر اللّسان، ١٣/٣٧٩-٣٨١.

(2) أعلام الكلام، ص: ٣٧.

(3) خزانة الأدب، ١٦٣/١.

(4) أعلام الكلام، ص:٣٧.

(5) ديوان الفرزدق، ٢٦/٢.

(6) أعلام الكلام، ص:٣٧.

((فرفع مجلفاً وحقّه النصب. وقد تحيّل بعض النحويين للفرزدق على وجه الإقواء أحسن منه، فأحذر مثله، وإياك وما يُعتَذَرُ منه بفسيح من العُذْر فكيف بضيق.))[1].

وابن شرف في نظرته هذه إلى اللّحن يجري على ما جرى عليه النقاد العرب من قبل، فهذا قدامة ابن جعفر يقول: ((... ومن عيوب اللّفظ أنْ يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللّغة.))[2].

التلاؤم بين الألفاظ:

لقد جعل النقاد العرب تآخي الألفاظ وإنسجامها في التراكيب شرطا لجـ ة العبارة وفصاحتها، وحثّوا الشاعر على إقامة التجانس والإنسجام بين ألفاظه، فلا يأتي في تركيبه اللغوي بلفظة لا تتفق والألفاظ الأخرى الّتي يتضمنها في معناها، ولا تتناسب مع الألفاظ الّتي ترافقها في السّياق، وفي هذا يقول العسكري: ((وحُسْنُ الرّصف أنْ تُوضَع الألفاظ في مواضعها، وتُمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، إلاّ حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمّي المعنى، وتضمّ كلّ لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لُفقِها.))[3].

ومن أجل هذا فقد نظر ابن شرف إلى اللّفظة الّتي لا تنسجم مع ما قبلها وما بعدها، والّتي لا تتلاءم مع غيرها من الألفاظ المرافقة لها في التركيب على أنّها لفظة ثقيلة مستكرهة، وجعل ذلك من العيوب المذمومة الّتي تقع في الشّعر، وهذا واضح في قوله: ((... ومن عيوبه المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقارنها.))[4].

ويسوق لنا أمثلة على عدم توفيق الشعراء في وضع الكلمة المناسبة في مكانها الّذي يليق بها، ويلائمها، فيورد قول الكميت بن زيد الّذي يقول فيه[5].

وَقَدْ رأينا بِها حُوراً مُنَعَّمـــــــةً بِيضاً تَكامَلَ فيها الدّلُّ والشّنَبُ[6]

---

(1) المصدر نفسه، ص: ٣٧-٣٨.

(2) نقد الشّعر، ص: ١٩٦، أُنظر: الموشّح، ص: ٣١٧.

(3) الصناعتين، ص: ١٦٧.

(4) أعلام الكلام، ص: ٣٨.

(5) ديوان الكميت، ٩٣/١.

(6) أعلام الكلام، ص:٣٨.

فالكميت في هذا البيت لم يوفّق في إستعمال اللّفضة المناسبة عندما جاور ما بين لفظة ((الدّلّ))، ولفظة ((الشّنب))؛ لأنّهما لفظتان غير متقاربَتين، ولا متناسبتَين في معناهما. وقول الشاعر الّذي يقول فيه:

فإنّكَ غُيّبتَ في حُفْـــــرةٍ   تَراكمَ فِيـها نَعيمٌ وَحُـــورُ[1]

ويعقِّب عليه بقوله: ((وإنْ كان النّعيم والحور مِنْ مواهب أهل الجنة، فليس بينهما في النفوس تقارب، ولا لفظة تراكم ممّا تجمع بين الحور والنّعيم.))[2].

وقول الشاعر:

واللهِ لَولا أنْ يُقالَ تَغَيّـــرا   وَصَبَا وإنْ كانَ التّصابي أجْـدَرا
لأعادَ تِفاحَ الخُدودِ بَنَفْسَجَــا   لَثْماً وكافُور التَرائِبِ عَنْبَـــرا

وذلك لأنه لم يكن موفّقاً في مجاورته بين لفظتي ((التّفّاح)) و((البنفسج))، لأنّهما غير متقاربتين ولا منسجمتين، ولكنّه كان موفّقاً ومصيباً عندما جاور بين لفظة ((الكافور))، ولفظة ((العَنْبَر))، وهذا واضح في قوله: ((فالتّفّاح ليس من جنس البنفسج؛ لأنَّ التّفّاح ثمرة والبنفسج زهرة، وقد أجاد في جمعه بين الكافور والعَنْبَر، لأنّهما من قبيل واحد.))[3].

هذا ومن الجدير بالإشارة هنا أنَّ ابن شرف لم يكن ليكتفي بإظهار العيب أو الخطأ فيما يتعرّض له بالنقد، أو فيما يتوافر له الإطلاع عليه، إنّما كان يحاول أنْ يدل الشاعر على التعبير السّليم الّذي يجب أنْ يجري عليه الإستعمال، ليضع أمامه ما هو أرفع وأحسن، وليرشده إلى الصياغة الصحيحة، فيستقيم بذلك المعنى الّذي يريد أنْ يعبّر عنه، وهذا واضح في قوله: ((... ولو قال:

لأعَادَ وَرْدَ الوَجْنَتَينِ بَنَفْسَجَـــاً   لَثْماً وَكافورَ التَرائِبِ عَنْبَـــرا

لأجاد الوصف، وأحسن الرصف، لكون الورد من قبيل البنفسج، فهذا النوع فافتقد، وهذا الشرع فاعتمد.))[4].

---

(1) أعلام الكلام، ص:٣٩.

(2) المصدر نفسه، ص: ٣٩.

(3) المصدر نفسه، ص: ٣٩.

(4) المصدر نفسه، ص: ٣٩.

وفي هذا ما يكشف لنا عن ثقافة واسعة، وسعة إطلاع على دواوين الشّعر العربيّ، وكتب النّقد والبلاغة، وعن بصر ودقّة فيما يتعرّض له بالنقد والتحليل، مثلما يكشف لنا عن ذوقٍ مرهَفٍ، وأُذن موسيقية تأبى النشاز وترفضه.

السهولة:

ومن مقاييس الجودة في الشّعر عند ابن شرف أن تكون الفاظه متآلفة الحروف، سهلة الجري على اللّسان، عذبة الوقع في السّمع. ومن أجل هذا فقد نظر إلى اللّفظة الّتي يثقل لفظها، وتتنافر حروفها على أنّها لفظة ثقيلة، ينفر منها السمع، ويستهجنها النقد؛ لما تحدثه من إضطراب ونشاز في أذن المتلقّي، وإنْ وردت هذه اللّفظة في قصيدة جزلة، وبيت جميل، لذلك فقد حكم على قصيدة لجرير تُعَدّ من عيون شِعْرِهِ وأفصحه بالثّقل؛ لوجود لفظة ((بُوْزَع)) في أحد أبياتها، وهذا واضح في قوله: ((وممّا يعاب به الشّعر ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير[1]:

وَتَقُولُ بُوزَعُ قَد دَبَبْتَ على العَصَا هلاّ هَزِئتِ بِغَيرِنا يا بُـــوزَعُ[2]

ويعقّب على هذا البيت فيقول: ((وهذا بيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير، وأملحها، وأجزلها، وأفصحها، فثقلت القصيدة كلّها بهذه اللّفظة، ولا تكاد ترى أختاً لها في شعره.))[3].

وهذه نظرة جزئية للعمل الأدبي تقوم على النظر إلى البيت الشّعْريّ في القصيدة على أنّه قائم بذاته، مستقل عن غيره في معناه، وإلى اللّفظة في البيت على أنّها منفصلة عن مثيلاتها فيه.

ومهما يكن من أمر، فإنّ قضية السهولة هذه من المقاييس النقديّة الّتي شُغِلَ بها النقّاد العرب –على إختلاف عصورهم– فقد جعلوا سهولة مخارج الكلمة، وعدم تنافرها شَرْطاً لجودتها، وهذا ما أكدّه الجاحظ حَيْثُ يقول: ((أجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه أفرغ أفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان.))[4].

---

[1] ديوان جرير، ٢/٩١٠.

[2] أعلام الكلام، ص:٣٨.

[3] المصدر نفسه، ص: ٣٨.

[4] البيان والتبين، ١/٦٧، وأنظر: العمدة، ١/٢٥٧، وسر الفصاحة، ص: ٦٥–٧٢، والصناعتين، ص: ١٤٧.

البعد عن التعقيد:

لقد اشترط النّقاد العرب في العبارة الجيّدة أنْ تكون ذات دلالة واضحة على معناها، وجعلوا ذلك من أهمّ شروط التأثير والبلاغة؛ ليصل إلى قلب المتلقّي بسهولة، ويحدث فيه الغاية المنشودة، ونظروا إلى العبارة المعقّدة على أنّها عبارة رديئة تحطّ من قيمة الشّعْر، وتقلل من شأنه، وفي هذا يقول بشر بن المعتمر: ((...وأيّاك والتّوعّر، فإنّ التّوعّر يُسْلِمُكَ إلى التعقيد، والتعقيد هو الّذي يستهلك معانيك ويشيّن الفاظك.))[1]، ويقول الثعالبيّ: ((... إنّ مثل هذا الكلام إذا قرع السمع، لم يصل إلى القلب إلاّ بعد إتعاب الفكر، وكدّ الخاطر، والحَمْل على القريحة، وإنْ ظُفِرَ بعد العَناء والمشقّة. فقلمّا يحصل على طائل.))[2].

لذلك فقد نظر ابن شرف إلى التعقيد على أنّه من الأُمور المستكرهة المذمومة الّتي تقع في الشّعْر وينفر منها النّقاد؛ لأنه يقود إلى طمس المعنى ويتعب المتلقّي، ويستهلك وقته وجهده مِنْ غير طائل[3].

ويشير ابن شرف إلى أنّ التعقيد في الشّعْر يتأتّى عندما يخلّ الشاعر بترتيب ألفاظه، ويتلاعب بها، فيقدّم ما حقّه التأخير، ويؤخّر ما حقه التقديم، ويستعمل اللّفظة في غير معناها الدّقيق، فيؤدي به ذلك إلى إستخدام أبعد الطرق للتعبير عمّا في نفسه، ويقوده إلى التعقيد. ومن أجل هذا فقد أخذ الفرزدق قوله[4] في مدح إبراهيم ابن هشام المخزوميّ، خال هشام بن عبد الملك:

وَمَا مِثلَه في النّاس إلاّ مُمَلّكاً　　　أبُو أمّـهِ حَيٌّ أبـوه يقارِبُـهُ

وعد هذا القول من الأقوال المستكرهة المذمومة، وجعله غاية في التعقيد والتنكيد، وهذا واضح في قوله: ((ويكره النقاد تعقيد الكلام في الشّعْر، وتقديم آخره وتأخير أوّله، وهذا غاية في التعقيد والتنكيد.))[5].

---

[1] البيان والتبيين، ١/١٣٥-١٣٦، والعمدة، ١/٢١٣.

[2] يتيمة الدّهر، ١/١٥٤.

[3] أُنظر: أعلام الكلام، ص: ٣٨، وص: ٤٥.

[4] الموشّح، ص: ٩٤.

[5] أعلام الكلام، ص: ٣٨.

وذلك لأنّ الفرزدق يريد أنْ يقول: ((إنّ إبراهيم بن هشام ما مثله في النّاس حي إلاّ مملّك، يعني هِشاماً أبو أُمّه أي جد هشام لأمّه، أبو إبراهيم هذا الممدوح، فهو خاله أخو أمّه، فهو يشبهه في الناس لا غير.))[1].

وأخذ على المتنبي ميله إلى التعقيد في شِعْره، وفي هذا يقول: ((... وكان يميل إلى تعقيد الكلام، ويعتمده على علمه بقبحه، ومن ذلك قوله[2] يصف ناقته:

فَتَبيتُ تُسئِدُ مُسئِداً في نِيِّهَـــا إسآدَها في المَهمَةِ الإنضـــاءُ

وقوله[3]:

أنّى يَكونُ أبا البَرِيّـــةِ آدَمُ وابوكَ والثّقَلانِ أنتَ مُحمّـــدُ

وقوله[4]:

كأنّكَ مَا جَاورْتَ مَن بَانَ جُـودُهُ عَلَيكَ وَلا قَاتَلْتَ مَنْ لَمْ تُقَاوِمُ))[5]

ويعقّب على هذه الأبيات، فيقول: ((وهذه الأجناس من أبيات وإن ظهرت معانيها بعد إستقصاء، وأطاعت غوامضها بعد إستقصاء، فهي مذمومة السّلك، وإنْ اطلعت منها على أجزل الإفادة فكيف إذا حصلت منها على السلامة بلا زيادة.))[6].

وممّا تقدم فإنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنّ ابن شرف قد جعل الدقة في اختيار الألفاظ، وبعدها عن التعقيد والغموض مقياساً هاماً من مقاييس الجَوْدة في الشّعر، ودعا الشعراء إلى الإبانة والوضوح في شعرهم، وحثّهم على تجنّب التعقيد والإلتواء، وهو

---

(1) أعلام الكلام، ص: ٣٨.

(2) ديوان المتنبي، ١/١٧.

(3) المصدر نفسه، ٣/٣٤٠.

(4) المصدر نفسه، ٤/١١٧.

(5) أعلام الكلام، ص:٤٤-٤٥.

(6) أعلام الكلام، ص: ٤٥.

بهذا يجري على الإتجاه العام الذي جرى عليه النقاد العرب[1] الّذين سبقوه وعاصروه في هذه القضية.

تجنّب القوافي المعجمة:

لقد عُنِيَ النقاد العرب بالحديث عن القافية في الشّعْر، لأنّها آخر ما يطرق السمع من البيت، ونظروا إليها على أنّها من أخصّ ميزات الشّعْر، وفي هذا يقول ابن رشيق: ((القافية شريكة الوزن في الإختصاص بالشّعْر، ولا يسمّى شعراً حتّى يكون له وزن وقافية.))[2].

ومن أجل ذلك فقد تحدّث النقاد عن شروط جودتها، فأشترطوا فيها أنْ تكون غير مغتصبة ولا مستكرهة، متمكنة في مكانها من البيت، ترتبط بما قبلها ارتباطاً وثيقاً، لتحقّق المعنى الّذي إستعملت من أجله، وهذا واضح في قول قدامة بن جعفر: ((ومن عيوب الشّعْر أنْ تكون القافية مستدعاه قد تكلّف في طلبها، فاشتغل معنى سائر البيت بها.))[3].

ولذلك فقد نظر ابن شرف إلى القافية الّتي لا توافق ما يتصل بها، والّتي يؤتى بها لتكون قافية فحسب لا لتخدم المعنى الّذي قُصِدَ إليه، على أنّها قافية معيبة مستكرهة ينفر منها النّقاد، وهذا واضح في قوله: ((ويَقْبُح جدّاً الاتيان بكلمة القافية معجمة، لا ترتبط بما قبلها من الكلام، وإنّما هي مفردة بِحَشْوِ القافية، كقول بعضهم[4]:

وَوُقيتَ الحُتُوفَ مِنْ وارِثٍ وَا ... لِ وابقَاكَ صَالِحاً رَبُّ هُودِ)) [5]

ويشير ابن شرف إلى أنّ هذا النوع من القوافي القبيحة الغثّة، يدلّ دلالة واضحة على عجز الشاعر، وعلى عدم مقدرته الفنية على إستجلاب القافية المناسبة الّتي يتطلبها البيت، ويقتضيها المعنى، فيقول: ((فأنت ترى غثاثة هذه القافية، واللّه -تعالى- ربُّ جميع الخلق وكلّ

---

(1) أُنظر: عيار الشعر، ص: ٤٣، الموشّح، ص:٩٤، الصناعتين، ص: ١٦٨، يتيمة الدّهر، ١/١٥٤، الموازنة، ١/٢٨٠، العمدة، ٢/٢٦٧، سر الفصاحة، ص:١٢٥.

(2) العمدة، ١/١٥١.

(3) نقد الشعر، ص: ٢٥٤، وأُنظر: الموشّح، ص: ٢١٤، والصناعتين، ص: ٤٧٢.

(4) وهو: أبو زيد القرشي. أُنظر: ترجمته في: نقد الشعر، ص:٢٥٦، الموشّح، ص: ٢١٤، والصناعتين، ص: ٤٧٢.

(5) أعلام الكلام، ص:٤١.

شيء، فخصّ هوداً -عليه السلام- وحده، لضعف نقده، وعجزه عن الإتيان بقافية تليق وتحسن.))[1].

وابن شرف في موقفه هذا من القافية المعجمة المعيبة يذكرّنا بموقف قدامة بن جعفر منها، حَيْثُ يقول: ((... ومن عيوب هذا الجنس أنْ يؤتى بالقافية لتكون نظيرة لأخواتها في السّجع، لا لأنّ لها فائدة في معنى البيت، كما قال أبو عديّ القرشيّ:

وَوُقيتَ الحُتُـــوفَ مِنْ وارثٍ وَا   لِ وابقَاكَ صَالِحاً رَبُّ هُـــود

فليس نسبة هذا الشّاعر اللّه -عزّ وجلّ- إلى أنّه رَبّ هود بأجود من نسبته إلى أنّه ربّ نوح، ولكنّ القافية كانت دالية، فأتى بذلك للسجع لا لإفادة معنى بما أتى به منه.))[2].

وعلى أية حال، فإنَّ حديث ابن شرف عن هذه القضية قد كشف لنا عن تفهم لأهمية القافية ودورها في الشّعر، وعن ذوق أدبيّ رفيع.

هذا ومن مقاييس الجودة في الشّعر عند ابن شرف أنْ يكون سليماً من عيوب الوزن والقافية، بعيداً عن الكسر[3]؛ ذلك لأنّ الكسر مِنَ العُيُوب الّتي تُهَجِّنُ الشّعر، وتخرجه عن طبيعته ورونقه، ولذلك فقد رفض ابن شرف الشّعر الّذي يقع فيه الكسر، وإعتبر الشاعر الّذي يقع فيه ليس شاعراً، ولا يحقّ له أنْ يُسلَكَ في عداد الشُّعراء، وهذا واضح في قوله: ((ومن عيوب الشّعر كلّها الكسر، لأنه يخرجه عن نعته شِعْرَاً، وليس ممّا يقع لمن نُعِتَ شاعر)).[4].

وأمّا بقية عيوب الشّعْر الأُخرى الّتي تتصل بالوزن والقافية من مثل الإقواء، والإيطاء، والسّناد، والإكفاء، وصرف ما لا ينصرف من الأسماء، والزّحاف، فهذه كلّها أُمور محتملة ويمكن للشّاعر أن يستخدمها في شِعْرِهِ إلاّ أنَّ عدم وجودها في الشّعْر يجعله مفضلاً وجميلاً، وفي هذا

---

(1) أعلام الكلام، ص: ٤١.

(2) نقد الشّعر، ص: ٢٥٥-٢٥٦، وأنظر: الموشّح، ص: ٢١٤، والصّناعتين، ص: ٤٧٢.

(3) الكسر في اللّغة هو عدم إقامة الوزن، وفي هذا يقول ابن منظور: ((... وكسر الشّعر يكسره كسراً فانكسر لم يقم وزنه)). اللّسان، ١٣٩/٥. وهذا ما عرف عند النقاد العرب بـ ((التخليع)). أنظر: نقد الشعر، ص: ٢٠٦، والموشّح، ص:٧٤.

(4) أعلام الكلام، ص: ٣٨.

يقول: ((... فأمّا الإقواء، والإيطاء، والسّناد، والإكفاء، والزّحاف، وصرف ما لا ينصرف، فكل ذلك يستعمل إلاّ أنّ السالم من جميع ذلك أفضل وأجمل.))[1].

ويبدو لي أنّ ناقدنا قد إكتفى بذكر هذه العيوب ولم يفصّل القول فيها، لأنّها كانت مألوفة في عصره ومعروفة؛ ولأنّها كانت متداولة ومفصّلة في معظم كتب النقد التي سبقته وعاصرته[2] ، فاكتفى بالإشارة إليها، وحذّر من إستعمالها.

وحديث ابن شرف عن هذه الظاهرة يكشف لنا عن أُذن موسيقيّة حسّاسة مرهفة لا تقبل النشاز والإضطراب في الشّعر مهما كان بسيطاً، مثلما تكشف لنا عن تشدد ومحافظة على ما ورث عن العرب من أوزان شعريّة.

نقده التطبيقي:

لم يكن ابن شرف ناقداً نظرياً فحسب يكتفي بعرض المصطلحات والتعريفات النقدية، وإنّما كان ناقداً تطبيقياً يكثر من عرض الأمثلة والنماذج الشّعْريّة، ويأتي بالأدلة والحجج؛ ليدعم ما يأتي به من فرضيات وبراهين. ومن أجل ذلك فقد أتى نقده النظريّ نزيراً إذا ما قورن بنقده التطبيقيّ الّذي بثّه في تضاعيف مقامته النقديّة الّتي وصلتنا.

ويكفينا للتدليل على ما ذهبنا إليه أنْ نتوقف عند بعض النماذج النقديّة التطبيقية الّتي تصدّى لها ابن شرف في نقدة من مثل: نقده لأمرىء القيس، ونقده لزهير بن أبي سلمى، وإستحسانه لبعض الأبيات الشّعريّة.

نقده لامرىء القيس:

إذا كان معاصر ناقدنا وقرينه ابن رشيق قد قدّم أمرأ القيس، وجعله مثلاً أعلى للشعراء الّذين جاءوا بعده في التّوليد والإبتكار، وجعله رائداً لهم في السّبق إلى المعاني الجديدة[3]، فإنّ

---

(1) أعلام الكلام، ص: ٣٨.

(2) أنظر: الشّعْر والشعراء، ١/٩٥-٩٧، نقد الشّعر، ص: ٢١٠-٢١٣، الموشّح، ص: ١٣-٢٥، العمدة، ١/١٦٤-١٧٠.

(3) أنظر: العمدة، ١/٩٤-١٠٢، قراضة الذهب، ص: ١٥-١٧.

ناقدنا قد إتخذ منه هدفاً لسهام نقده، ومثالاً للكشف عن عيوب الشّعر والشعراء، وطفق ينعى عليه بعض الهَنات والسّقطات الّتي وقع فيها، وحاكمه محاكمة أخلاقية على بعض أقواله وأشعاره الّتي وردت في معلقته الشهيرة الّتي تُعدّ من أعظم آثاره الشّعريّة الّتي وصلتنا، ومن ذلك قوله: ((يقول أمرؤ القيس في قصيدته المقدّمة، ومعلّقته المفخّمة[1]:

وَيَومَ دَخلتُ الخِدرَ خِدرَ عُنَيْـــزَةٍ   فَقَالَت لَكَ الوَيلاتُ إنّكَ مُرْجِلي))[2]

ويتوقّف ابن شرف عند هذا البيت وقفة الناقد والمدقق البصير الّذي يُعْنَى بصغائر الأشياء، ودقائق الأمور، ويأخذ عليه تصريحه بهذه الأُمور الّتي لا تتناسب ومستو. ، ولا تليق بمكانته، فهو ملك والملك ينبغي أنْ يترفّع عن ذكر هذه الأُمور السوقيّة المعيبة، وهذا واضح في قوله: ((فما كان أغناه عن الإقرار بهذا، وما أشد غفلته عمّا أدركه من الوصمة به، وذلك أنَّ فيه أعداداً كثيرة من النَّقْصِ والبَخْسِ، ومِنْها: دخوله متطفلاً على مَنْ كره دخوله عليه، ومنها قول عنيزة له: ((لك الويلات))، وهي قولة لا تقال إلاّ للخسيس، ولا يقابل بها رئيس.))[3].

ويستمر ابن شرف في نقده لهذا البيت مشيراً إلى أنَّ المرأة الّتي يتغزل بها أمرؤ القيس كانت فقيرة، وأنّها ليست من مستواه الإجتماعي، فيقول: ((فإنْ احتجَّ محتجّ بأنّها كانت أرأس منه، قيل له: لم يكن ذلك، لأنّ الرئيسة لا تركب بعيراً يموت إذا زاد عليه ركوب راكب ساعة، بل هذا بعير فقيرة حقيرة.))[4].

هذا ويشير إلى أنّه لم يكن عاشقاً محبّاً للمرأة الّتي يتغزّل بها حين يقول[5]:

فَمِثْلُكِ حُبلى قَدْ طَرَقتُ وَمُرضِعاً   فألهَيتُهَا عَن ذِي تَمائِمِ مُحْوَلِ))[6]

ذلك لأنّها كانت أمرأة رجل غيره، والعاشق المخلص يأبى أنْ يُشَارِكَ في حبّه ومشاعره، وهذا واضح في قوله: ((... وإنّما المعروف للعاشق الإنفراد بمعشوقته،

---

[1] ديوان امرىء القيس، ص: ١١، وشرح المعلقات السبع، ص: ١٤.

[2] أعلام الكلام، ص:٢٨-٢٩.

[3] أعلام الكلام، ص: ٢٩.

[4] المصدر نفسه، ص: ٢٩.

[5] ديوان امرئ القيس، ص: ١٢.

[6] أعلام الكلام، ص:٢٩.

واطراح سواه، كالقيسين في ليلى ولبنى، وغيلان[1] بمية، وجميل[2] بثينة، وسواهم كثير. فلم يكن لها عاشقاً، بل كان فاسقاً، ثُمَّ أهجَنُ هُجنة عليه، وأسخن سخنة لعينيه، إقراره بإتيان الحُبلى والمُرضع، فأمّا الحُبْلى فقد جَبَل اللّه النفوس على الزهد في إتيانها والإعراض عن شأنها لوجوه منها: أنّ الحبل علة أشبه العلل بالإستسقاء، ومع الحبل كمود اللون، وسوء الغذاء، وفساد النكهة، وسوء الخلق، وغير ذلك، ولا يميل إلى هذا ألاّ مَنْ له نفس سوقيّ، ودع نفس ملوكي، وأعجب من هذا أنَّ البهائم كلّها لا تنظر إلى ذوات الحمل منْ أجناسها، ولا تقرب منها حتّى تضع أحمالها، وتفارق فُصْلانها، ثُمَّ لم يكفه أنْ ذكر الحُبْلى حتّى أفتخر بالمُرضع وفيها من التلويث بأوضار رضيعها، ومن أهتزالها، وإشتغالها عن أحكام إغتسالها، وقد أخبر أنَّ التمائم المحول متعلّق به، وأخبر أنّها ظئر ولدها، لا ظئر له، ولا مرضع سواها، فدّل بذلك على أنّها حقيرة فقيرة، ومثل هذه لا يصبو إليها مَنْ لَهُ همَّة، وهذه الصّفات كلّها تستقذرها نفس الصعلوك والمملوك، فكيف أنفس الملوك؟!))[3].

وكأنّي بابن شرف يريد أنْ يقول: إنَّ الشّعر يجب أنْ يدلّ على شخصية صاحبه، ويعبّر عن نفسيته، ولما كان أمرؤ القيس مَلِكاً، فلا بدّ أنْ تكون له نفسية ترفعه عن الهبوط إلى مستوى العامّة، والتلفّظ بألفاظها، وَقَد عُرِفَتْ هذه النظرة بـ ((قاعدة الإستواء النفسيّ)) عند النقاد العرب[4].

ومهما يكن من أمر، فإنَّ موقف ابن شرف الأخلاقي ا لّذي وقفه منْ امرىء القيس في هذه الأبيات يذكّرنا بموقف الباقلانيّ منْه من قبل[5]، فكلاهما يعتمد على النظرة الأخلاقيّة في نقده، ولكنّه مع ذلك كشف لنا عن ثقافة واسعة، وعن معرفة دقيقة بأحوال الناس وعاداتهم ونفسياتهم، مثلما كشف لنا عن معرفة بأحوال الحيوانات وطبائعها.

---

[1] وهو: غيلان بن عقبة بن بهيش، يكنى أبا الحرث، وهو من بني مصعب بن ملكان بن عدي بن عبد مناة المعروف بذي الرّمة. أُنظر: الشّعر والشعراء، ١/٥٢٤، الموشّح، ص: ١٥٥-١٦٨.

[2] وهو: جميل بن عبداللّه بن معمر، ويكنى أبا عمرو، وهو أحد عُشّاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته بثينة، أُنظر: الشّعر والشعراء، ١/٤٣٤، والموشّح، ص: ١٨٠-١٨٢.

[3] أعلام الكلام، ص: ٢٩-٣٠.

[4] أُنظر: الموشّح، ص: ٢٥، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: ٤٨.

[5] أُنظر: إعجاز القرآن، ص: ٢٥٣-٢٥٤، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: ٤٦٥.

نقده لزهير بن أبي سلمى:

ومن الأمثلة النقديّة التطبيقية الّتي تصدّى لها ابن شرف في نقده، وتوقّف عندها بالنقد الدّقيق المعلل معلقة زهير بن أبي سلمى، فقد توقف عن بعض الأقوال التي وردت فيها وحاكمها محاكمة منطقية دقيقة كشفت لنا عن نفاذ بصر وتعمق فيما يتعرّض له، ومن ذلك قوله: ((... وقال زهير في مذهبته[1]:

وَمَنْ لا يَذُد عَنْ حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَن لا يَظلم النّاسَ يُظلَمِ[2]

فأخذ عليه قوله: ((ومن لا يظلم النّاس يظلم))، وأشار إلى أنّه أسرف وتجاوز حدود العدل والحق بقوله هذا، لأنّه حرّض على الظُّلْم، وهذا واضح في قوله: ((وقد تجاوز في هذا الحقّ الباطل، وبنى قولاً ينقصه جريان العادة، وشهادة المشاهدة؛ وذلك أنّ الظُّلْمَ وعرة مراكبه، مذمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا، فحرّض في شِعْرِه عليه، وإنْ كان إنّما أشار إلى أنّ الظالم يُرْهَبُ فلا يظلم. فهذا قياس ينفسد، وأصل ليس يطرد لأن الظالم يُرْهبه من هو أضعف منه، وربّما إنتقم منه بالحيلة والمكيدة، وقد يظلم الظالم من يغلبه فيكون بذلك سبب هلاكه، مع قباحة السّمة بالظُّلم، والمثل إنّما يضرب بما لا ينخرم.))[3].

ويحاول ابن شرف بذوقه النقديّ والشّعريّ أنْ يتدخّل في إصلاح هذا الخلل الّذي وقع فيه زهير، وأنْ يرشده إلى التّعبير الصّحيح، والأسلوب الأفضل، فيقول: ((وقد كانت له مندوحة وإتساع في أنْ يقول: يُهَدّم ومن لا يدفع الظُّلْمَ يُظْلَم.))[4].

ويتوقّف ابن شرف في نقده لزهير عند قول آخر عدة قدامة بن جعفر نموذجاً من نماذج المدح الموفّق[5]، فيخالف قدامة فيما ذهب إليه مشيراً إلى أنّ زهيراً في قوله هذا لم يُصِب الغرض الذي قصده، ولم يهتد إلى التعبير السليم، فخالف بذلك الهدف الّذي رمى إليه، وهذا

---

(1) شرح ديوان زهير: ص: ٣٠، شرح المعلقات السبع، ص: ١٢١.

(2) أعلام الكلام، ص:٣٤.

(3) أعلام الكلام، ص: ٣٤.

(4) المصدر نفسه، ص: ٣٤.

(5) أنظر: نقد الشّعر، ص: ٧٧.

واضح في قوله: ((... وقال زهير يمدح سادة من النّاس قذفهم بأنواع الذم، وأكثر النّاس على إستحسان ما قال، بل أظنُّ كلّهم على ذلك، وهو قوله[1]:

عَلى مُكثرِيهم حَقُّ مَنْ يَعتَريهِمُ وَعِندَ المُقلّينَ السّماحَةُ والبَذلُ[2]

وينقده بقوله: ((فأوّل ما ذمَّهم به إخباره أنَّ فيهم مكثرين ومقلّين. فلو كان مكثروهم كرماء، لبذلوا لمقليهم الأموال، حتّى يستووا في الحال ويشبهوا في الكرم والحال الّذين قال فيهم حسّان[3]:

المُلحِقينَ فَقيرَهُمْ بِغَنيّهِمْ والمُشفِقِينَ عَلى اليَتيمِ المُرمَلِ

والّذين قالت الخرنق[4] فيهم:

الخَالِطينَ لُجَينهِمْ بِنُضارِهِمْ وَذَوي الغِنى مِنْهُمْ بِذي الفَقْرِ

فهذا كلّه -وأبيكَ- غايَةُ المَدْحِ النَّقي من القَدْحِ.))[5].

وممّا تقدّم فإنّنا نستطيع أنْ نلاحظ أنَّ ابن شرف كان يعتمد على عنصر المقارنة والموازنة في نقده، ليكشف لنا عن دقّة التعبير، ودقّة المعنى، ويحاول أنْ يعلل تلك المقارنات تعليلاً مقنعاً، فكشف لنا بذلك عن سعة إطلاع وتعمّق في دواوين الشّعر العربيّ، وعن ثقافة واسعة، مثلما كشف لنا عن ذوق أدبيّ، وإحساس مرهف دقيق.

ويمضي ابن شرف في نقده لهذا القول، فيقول: ((ثم أسمع ما في هذا البيت سوى هذا من الخلل والزلّل منها: أنّهم ضيّعوا القريب، وراعوا حقّ البعيد، وصلة الرّحم أولى ما يبدأ به. ومن مكارم العرب حميتّها لذوي أنسابها، وذبّها عن أحسابها الأقرب فالأقرب، وما فضل عن ذلك

---

[1] شرح ديوان زهير، ص: ١١٤.

[2] أعلام الكلام، ص:٣٥.

[3] شرح ديوان حسّان، ص: ٣٤٦.

[4] وهي: الخَرْنَقُ بنت بدر بن هفّان بن مالك بن ضبيعة بن قيس، شاعرة جاهليّة ((ت، ٥٧م))، وهي أخت الشاعر الجاهليّ المعروف طرفة بن العبد لأمه. أُنظر: خزانة الأدب، ٣٠٦/٢، والأمالي، ١٥٤/٢، شاعرات العرب، ص: ٩٤، وأعلام النّساء، ٣٤٨/١.

[5] أعلام الكلام، ص: ٣٥-٣٦.

فالأبعد. ثم أخبر أنَّ المكثرين ليس يسمحون بأكثر من الإستحقاق في قوله: ((عليهم حقّ من يعتريهم))، ومن أعطى الحقّ فإنّما أنصف ولم يتفضّل بما وراء الإنصاف، والزيادة على الإنصاف أمدح. ثم أخبرفي البيت أنَّ المقلين على قصور أيديهم أكرم طِبَاعَاً مِنْ مكثريهم على قدرتهم في قوله: ((وعند المقلّين السماحة والبذل))، والبذل مع الإقلال مدح عظيم وإيثار، والسمّاحة إعطاء غير اللازم، فمدح بِشِعْره هذا مَنْ لا يحظى مِنْه بطائل، وذمّ الّذينَ يرجو منهم جزيل النائل، وهذا غاية الغلط في الإختيار، وفي ترتيب الأشعار.))[1] .

ويأخذ أيضاً على زهير قوله[2]:

تَرَاهُ إذا مَا جِئته مُتَهَلِّلاً كأنّكَ تُعطيهِ الذي انتَ سَائِلُهُ[3]

فيتوقّف عند قوله هذا وقفة الناقد العارف بطبائع النّاس، وخفايا نفوسهم، مشيراً إلى أنَّ زهيراً في هذا القول لم يوفّق إلى الغَرَضِ الّذي يريد، ولم يوفّق إلى التعبير الصحيح، وينقده بقوله: ((... لقد مدح بهذا شريفاً أيّ شريف، فجعل سروره بقاصده كسروره بِمَنْ يدفع شيئاً من عرض الدّنيا إليه وليس من صفات النُّفُوس العارفة السّامية، ولا الهمم الشريفة العالية اظهار السرور إلى أنْ تتهلل وجوههم، وتسر نفوسهم ببهجة الواهب، ولا شدّة الإبتهاج بعطية المعطي. بل ذلك عندهم سقوط همّه، وصغر نفس، وكثير من ذوي النُّفُوس النَّفِيسَة، والأخلاق الرئيسة، لا يظهر السرور متى رزق مالاً عفواً بلا منَّة مثيل، ولا يد معطٍ مستطيل، لأنّه عند نفسه أكبر منه، ولأنّ قَدْرَ المال يقصّر عنه، فكيف أنْ يُمْدَحَ ملك كبير عظيم الفخر بأنّه يتهلل وجهه، ويمتلىء سروراً قلبه إذا أعْطَى سائله مالاً؟. هذا نقص الثناء، ومحض الهجاء. والفضلاء يفخرون بضد هذا.))[4].

ويستمر في نقده لهذا البيت، فيقول: ((وإنّما غرَّ زهيراً، وغرّ المستحسن بيته هذا ما جبلوا عليه مِنْ حُبِّ العطاء، وما جرت به عاداتهم مِنَ الرّغبة في الهبات والاستجداء، وليس كلّ الهمم تستحسن ذلك، ولا كلّ الطباع تسلك هذه المسالك.))[5].

---

(1) أعلام الكلام، ص: ٣٦.

(2) شرح ديوان زهير، ص: ١٤٢.

(3) أعلام الكلام، ص:٣٤.

(4) أعلام الكلام، ص: ٣٤-٣٥.

(5) المصدر نفسه، ص: ٣٥.

وهذه تدقيقات تميّز بها ابن شرف، تدلّ على نفاذ بصر وتعمّق فيما ينقده، أتى بها ليفسّر الشّعر تفسيراً جديداً، وكأني به يريد أنْ يتميّز عمّا أجمع عليه النقاد العرب، ومن أجل ذلك فقد رفض أنْ يأخذ بما صدر عن النقاد الّذين سبقوه على أنّه حقائق مسلّم بها، وأنّه نهاية المطاف في شعر أمرىء القيس، وزهير بن أبي سلمى، وبدأ بمناقشته ومعالجته.

استحسان بعض الأبيات الشعرية:

هذا ومن أهمّ المجالات النقدية التطبيقية الّتي تصدّى لها ابن شرف في نقده الّذي توافر لنا، قضيّة استحسان بعض الأبيات الشعريّة، ويكفينا للتدليل على ما ذهبنا إليه أنْ نشير إلى أنّه قد خصّص القسم الأخير من مقامته النقدية للحديث عن هذا الغرض[1]، فكثيراً ما كان ابن شرف يبدي إعجابه أو استحسانه ببعض الأبيات أو المقطّعات الشعرية الّتي حصلّها من ثقافته الشعرية الواسعة، وخاصّة تلك الأبيات الّتي كانت سليمة من عيوب الشّعر الّتي حذّر منها في نقده[2]، والّتي كانت تتضمن معنىً جيّداً، ومغزىً ظريفاً، وهذا واضح في قوله: ((فقد رويت منها ما استغربت معناه، واستظرفت مغزاه.))[3].

ولكنه لا يحاول أنْ يعلل لنا سبب استحسانه أو إعجابه بهذه الأبيات بل كان يكتفي بإيرادها فقط من غير تحليل أو تعليق، ومن أجل ذلك فقد أتى معظم الأبيات الّتي استحسنها وأُعْجِب بها غير معللّ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك، فقد كان ابن شرف -على سبيل المثال- يستحسن قول الشاعر[4]:

واقنَعْ مِنَ العَيشِ ما أتاكَ بِهِ ... مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيشِهِ نَفَعَهُ
قَدْ يَجمَعُ المالَ غَيرُ آكِلِهِ ... وَيأكلُ المالَ غَيرُ مَنْ جَمَعَهُ[5]

---

(1) أنظر: أعلام الكلام، ص: ٤٧-٥٤.

(2) أنظر: المصدر نفسه، ص: ٣٧-٤٦.

(3) المصدر نفسه، ص: ٤٧.

(4) وهو: للأضبط بن قريع السعديّ، وهو من بني عوف بن كعب بن سعد رهط الزبرقان بن بدر. أنظر: الشّعر والشعراء، ١/٣٨٢-٣٨٣، الخزانة، ١/١٩٥-١٩٦.

(5) أعلام الكلام، ص:٤٧.

وقول الشاعر[1]:

جَرَتِ الرياحُ علَى مَحَلّ ديَارِهِمْ فكأنّما كَانوا علَى ميعَادِ
فأرى النّعيمَ وكُلّ مَا يُلهى بِهِ يَوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفَادِ[2]

وقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعيّة الّتي تقول فيه[3]:

قَدْ كُنتَ لِي حَبلاً ألُوذُ بظِلِّهِ فاليَومَ تُسلِمنِي لأجرَدَ ضَاحِ
فاليَومَ أخضَعُ للذليلِ وأتّقي ظِلّي وادْفَعُ ظالِمي بالرّاحِ[4]

وقول أبي تمّام[5]:

وقَد كانَ فَوْتُ الموتِ سَهلاً فَرَدّهُ إليهِ الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونَفْسٌ تَخَافُ العَارَ حَتى كأنّما هُوَ الكُفرُ يَومَ الرّوعِ أو دونه الكفرُ
فأثْبَتَ في مُستنقعِ الموتِ رِجلَهُ وقَالَ لَها: مِنْ تَحتِ أخمَصكِ الحَشرُ
تَردّى ثِيابَ الموتِ حُمراً فَمَا أتَى لها الليلُ إلاّ وهي مِنْ سُندسٍ خُضرُ[6]

وقول أبي الطيّب المتنبّي[7]:

وفي صورةِ الروميّ ذي التّاجِ ذِلّة لأبلَجَ لا تيجانَ إلاّ عَمائِمُهُ
يُقبّلُ أفواه المُلوكِ بِساطَهُ ويَكبرُ عنها كُمّهُ وبَراجِمُهُ[8]

وقوله[9]:

---

[1] وهو: الأسود بن يَعْفُر، شاعر جاهلي يكنى أبا الجرّاح، وكان أعمى. أُنظر: الشّعر والشعراء، ٢٥٥/١-٢٥٦، والخزانة، ١٩٥/١.

[2] أعلام الكلام، ص:٤٧.

[3] أُنظر: ديوان الحماسة، ٥٣٠/١.

[4] أعلام الكلام، ص:٥٠.

[5] ديوان أبي تمّام، ٨٠/٤-٨١، والعمدة، ١٤٨/٢.

[6] أعلام الكلام، ص:٥١.

[7] ديوان المتنبّي، ٣٣٥/٣-٣٣٦.

[8] أعلام الكلام، ص:٥٤.

[9] ديوان المتنبّي، ٢٩٢/١.

وَقَيدْتُ نَفسي في ذُراكَ مَحَبّــــةً ... وَمَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيداً تَقَيّــدا[1]

ولكنّه لا يعلل إعجابه بهذه الأبيات، فجاء إعجابُه بها إعجاباً تأثّريّاً لا يستند إلى تعليل. ويستحسن ابن شرف قول قتيلة بنت الحارث[2]، ويعبّر عن استحسانه وإعجابه بهذا الشّعر، فيقول: ((ومن أحسن المراثي، وأفصحها، وأوجعها وأقرحها قول قتيلة أخت النّضر بن الحَارث، وقد قتله رسول اللّه –صلى اللّه عليه وسلّم– صبراً وكان من بني عبد الدّار:

يا رَاكِبــاً إنّ الأثيلَ مِظنّــــــةٌ ... مِنْ صُبحِ خَامِسَةٍ وأنتَ مُوَفَّــقُ
أبلِغْ بِهِ ميّتــاً بـأنَّ تحيّـــــةً ... ما إن تزالُ بهـا الركـائِبُ تَخْفِــقُ
منّـي إليـهِ وَعَبرةٌ مَسفوحـــــةً ... جَادَتْ بَواكِفِها وأخرى تُخنَــــقُ
هَلْ يَسْمَعَنَّ النَّـضرُ إن نَاديتُـــهُ ... أمْ كَيْـفَ يَسـمَعُ مَيّتٌ لا يَنطِــقُ؟
أمُحمّدٌ يا خيرَ صِنـوَ نجيبَـــــةٍ ... في قَومِهـا والفَحلُ فَحلٌ مُعــرِقُ
ما كانَ ضركَ لـو مَنَنْتَ وربّمـــا ... مَنَّ الفَتـى وَهْـوَ المُغيـظُ المُحنِـقُ
والنضرُ أقربُ مِنْ قَتلـتَ قَرابَـــةً ... وأحقّهم إنْ كـانَ عتقاً يُعْتَــــقُ
ظلّت سُيوفُ بني أبيه تنُوشُــــه ... للهِ أرحامٌ هُناكَ تُشقّـــــــقُ[3]

لكنّه مع ذلك لا يكشف لنا عن العلّة الّتي مِنْ أجلها أعجب بهذه الأبيات، والأمثلة على هذه الظاهرة في نقده كثيرة يستطيع الدّارس أنْ يلمحها بوضوح[4].

ومهما يكن مِنْ أمر، فإنَّ هذا الجانب النقديّ التطبيقيّ من نقد ابن شرف قد كشف لنا عن ثقافته الشعريّة الواسعة، وعن سعة إطلاعه على دواوين الشّعْر العربيّ، وكما كشف لنا عن مقاييسه النقدية الّتي اشترطها في قبول الشّعر واستحسانه.

---

(1) أعلام الكلام، ص:٥٣.

(2) أنظر: السيرة، ٣٠٣/٢، والعقد الفريد، ١١٢/٦، والأغاني، ٣٠/١، والعمدة، ٥٦/١.

(3) أعلام الكلام، ص:٥٠.

(4) أنظر: المصدر نفسه، ص: ٤٧–٥٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خاتمة

وبعد:

فهذا بحث في أبي عبد اللّه محمّد بن شرف القيروانيّ، يتناول حياته وأدبه في جوانبها المختلفة، وقد أتى في تمهيد وأربعة فصول، تحدّثنا في التمهيد عن العصر الّذي عاش فيه ابن شرف من الناحية السياسيّة، والاجتماعية، والاقتصادية والفكريّة بصورة عامّة متوخّين أنْ يكونَ حديثنا عن عصره بالقدر الّذي يمسّ حياته، ويؤثر فيها، فتبيّن لنا من خلال ذلك كلّ أنّ الحياة السياسيّة الّتي هيمنت على عصره كانت مضطربة قلقة، تعتريها الفتن والثورات الداخليّة، فأثّرت هذه الحالة القلقة على الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، لما بينهما من ارتباط وثيق، ولكنّ الحياة الثقافيّة والفكريّة -مع ذلك- كانت نشطة مزدهرة، وقد تمثل ذلك في ظهور نخبة من الأدباء، والشُعراء، والنقّاد، دارت أسماؤهم وآراؤهم في كتب النقد والأدب حتّى يومنا هذا، وقد كان من أشهرهم: الحصريّ، وابن رشيق، وابن شرف، وغيرهم من العلماء والفقهاء. وأنّ القيروان الّتي نشأ فيها ابن شرف كانت مركزاً من أهم مراكز العلم والثقافة في تلك الفترة، أمّها الدّارسون، وطلاب العلم من كلّ حَدْبٍ وصوْبٍ؛ لينهلوا من مناهل علمها إلى أنْ داهمها الأعراب من بني هلال، وبني سليم، وأتوا على حضارتها الزّاهرة، وعملوا على قلب الأوضاع فيها، وتشريد أهلها في كل مكان.

وجعلنا الفصل الأوّل من هذه الدّراسة للحديث عن حياة ابن شرف وثقافته في جوانبهما المختلفة، فتوقفنا عند أسمه، ونسبه، ونشأته الأولى، وحياته بالقيروان حيث بلاط المعزّ بن باديس المكتظ بالأدباء والشّعراء، فتبين لنا أنّ المصادر وكتب التراجم التي تعرّضت لترجمته وأخباره لم تعن بالحديث عن هذه الجوانب، وخاصّة وهو في بلاط المعزّ بالقيروان، وتوقّفنا عند مجريات حياته فرافقناه منذ ولادته بالقيروان في أواخر القرن الرابع الهجريّ حتّى وفاته بطليطلة بعيداً عن أهله ووطنه، وعند صلاته وعلاقاته بأُمراءِ الطّوائف بالأندلس، فوجدنا أنّه كان على علاقة طيّبة مع ملوك الطّوائف، وأنّه قد نال حَظوةً ومكانة لديهم. وتوقّفنا في هذا الفصل أيْضَاً عند شيوخه، وتلاميذه، وتكوينه الثقافي ومؤلّفاته، فعرّفنا بها، وأشرنا إلى ما وصلنا منها، ثم صححنا الوهم الّذي وقع فيه بعض الدّارسين فيما يتعلق بكتابيه ((أعلام الكلام)) و((رسائل الانتقاد))، فانتهينا إلى أنّهما كتابان مختلفان.

وتبيَّن لنا من خلال دراستنا لآثاره ومؤلّفاته، أنّه كان صاحب مؤلّفات كثيرة، إلاّ أنّ يد الزّمن قد امتدت إليها فخطفتها، ولم يصلنا منها إلاّ القليل.

وقد اتضح لنا من خلال دراستنا لهذا الفصل أنّ ابن شرف كان مشهوراً في عصره، متفوّقاً فيه، إلاّ أن الزمن لم يكن حليفه، فأتى على شهرته وآثاره، فلم يصل عنهما إلاّ هذه النُتف القليلة المبعثرة في طيّات الكتب، وأنّ حياته الّتي عاشها بالأندلس بعد نزوحه عن وطنه، كانت مضطربةً قلقة، فرأيناه متنقلاً فيها من بلد إلى بلد، ومن حضرة إلى حضرة.

وأمّا شعره فقد تحدّثنا عنه في الفصل الثاني من هذه الدّراسة، وعندما تصدينا لدراسته وجدنا أنّه لم يجمع في كتاب مطبوع أو ديوان مستقل، إنّما أتى مبعثراً في طيات كتب الأدب والتراجم، فأخذنا على أنفسنا جمعه، وتخريجه، وترتيبه ترتيباً هجائياً سنعمل على إصداره في وقت لاحق، وجعلناه فيها: جمعه وتدوينه، أغراضه وموضوعاته، وخصائصه الفنية، فتبيّن لنا من خلال ذلك كله أنّه قد طرق أكثر أغراض الشّعر العربيّ المعروفة في عصره من مدح، وهجاء، ووصف، وحكمة، ورثاء، وأنّه أجاد أكثر ما أجاد في رثاء وطنه وتصويره بعد تلك النكبة الّتي مُنِيَ بها، وأنّه قد تأثّر بالتراث القديم تأثراً كبيراً، واتكأ في معانيه على معاني الشُعراء القدماء الّذينَ سبقوه من جاهليين وإسلاميين، وسار على نهجهم في بناء قصائده في المديح، ولكنّه تأثر أكثر ما تأثر بأبي الطيّب المتنبّي، وقد تأثر به في نفسيته، وفي إكثاره من الحِكْمة في شعره، وفي جزالة ألفاظه، وتذمّره من الدّهر والزّمن. وقد تبين لنا من خلال ذلك كلّه أنّه كان شاعراً مبدعاً، صاحب إنتاج غزير، استطاع أنْ يمزج بين معطيات عصره، وبين ثقافته مزجاً بديعاً.

وقد عقدنا الفصل الثالث للحديث عن نثره، وقد جعلنا ذلك في قسمين، تحدّثنا في الأوّل منهما عن أغراضه وموضوعاته في النّثر، وعن مجتمعه كما يصوّره، وعن مقاماته، ورسائله الّتي بعث بها إلى ملوك الطّوائف ووزرائهم بالأندلس، فوجدنا أنفسنا أمام كاتب بليغ، امتلك ناصية النثر مثلما امتلك زمام الشعر، واستطعنا من خلال دراستنا لهذا الجانب من أدبه أنْ نلمح صورة مجتمعه الّذي عاش فيه، وأنْ نتعرّف إلى موقفه من ذلك المجتمع، ومن القضايا المستجدة التي طرأت عليه، وأن نتبين المكانة المرموقة الّتي وصل إليها ملوك الطّوائف بالأندلس.

وتحدّثنا في القسم الثاني من هذا الفصل عن نثره من الناحية الفنية، فتوقفنا عند معانيه وألفاظه، وأسلوبه في كتابة النثر، فكشف لنا هذه الجوانب عن ثقافة واسعة وتعمّق في دواوين الشّعر العربيّ، وكتب الأدب العربيّ الّتي سبقته وعاصرته.

وأقمنا الفصل الرابع من هذه الدراسة للحديث عن نقده، ومقاييسه في نقد الشّعر، فتبيّن لنا من خلال ذلك أنّه كان ناقداً بصيراً في نقد الأدب، عالماً بمواطن الجمال والقبح فيه، استطاع أن يأتي بنظرة نقدية تفسّر الشعر على أسس نفسية وأنّه في نقده يردد ما أكده النقاد القدماء، وأئمة اللغة من قبل.

فهذا هو أبو عبد الله محمّد بن شرف القيروانيّ الأديب، الشاعر، الكاتب الناقد، في حياته وأدبه، آملاً أنْ أكون بعملي هذا قد أضفت رافداً جديداً إلى المكتبة الأندلسية، واللّه وليّ التوفيق.

((وآخر دعواهم، أنْ الحمد للهِ ربِ العالمين)).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الناشر
مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن
١٩٩٨